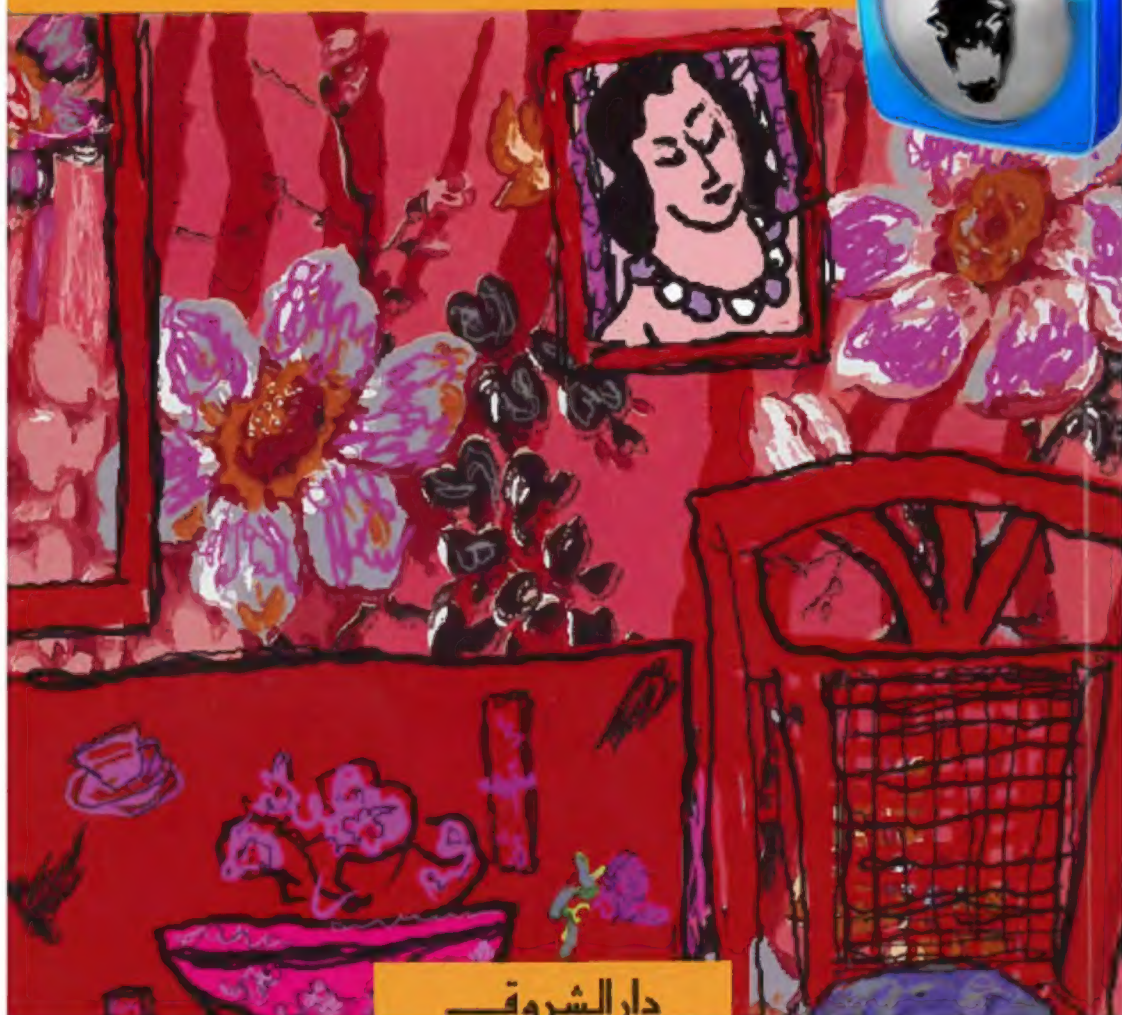


بنسالم حَميش امراة أعمال

رواية



دار الشروق

$$193 \times 13 =$$

امراة أعمال

امرأة أعمال

بنسالم حميش

لوحة الغلاف للفنان الفرنسي هنري مائيس

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق —

٨ شارع سيويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٣/٣٦٨٧

ISBN 978-977-09-3222-3

بنسالم حَمَّيش

امرأة أعمال

رواية

دار الشروق



الإهداء
إلى الذكيات المستحقات

ولو كان النساء كمن فقدنا

لُفُضِلَتِ النساءُ على الرجالِ

وما التَّأْنِيثُ للشمسِ عَيْبٌ

ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

أبو الطيب المتنبي

كشاف الكلمات

مانجمنت: فن التسيير والإدارة

بارافور: سجل

كاش-كاش: لعبة التواري

دياليز: عملية تطهير الدم

البّاربريز: زجاج السيارة الأمامي

ستريس: الضغط، القلق

دابا: الآن

كرّيسة: كارو

سبيتش: خطبة

كوشمار: كابوس

بيك-نيك: وجبة غذاء على الهواء الطلق

شطابا: مكنسة

كونتوار: مبسط

وين وين: المراقبة

سينوبسيس: ملخص

سبيطار: مشفى

كاسك: خوذة

كوسطار: بدلة أنيقة

تي تايم: وقت الشاي

هابي إند: نهاية سعيدة

إيكوغرافيا: فحص طبي بالأشعة

RAS: لا إشعار

في أرض خلاء ذات مسالك موحلة محفرة، والوقت ليل،
تمر عرب يدائية يجرها بغل. تجويفها كتابوت يتسع لجثتين أو
شوية أكثر، بطانية وأكياس خيش، يُسمع من تحتها لهاث
وأناث. عجب المسائفة - وهو ملاكم قديم - يعلن انتهاء الدورة
ويهدد قائلاً: اللهم رحم من زار وخفف، وإلا خويا زيد راك
في الثمن تريد. زذ المازد الدقيق... فجأة تكشف امرأة عن
وجهها وتنهر زاعقة: بركك! خلاص! انزل من فوق يا ولد
الهزازة. وفعلاً يقفز شاب على التربة لاعنا العاهرة وقواها
ومسويًا سر واله.

راجلاً يؤم القافز بيته الصفيحي بركك! الكورة في العاصمة
الرباط المحاذي لساحل البحر الأطلسي، يلقى أمه العجوز
نشطاً نشوان، يتقبل منها أسئلة عما فعله بيومه ثم يقات مما
قدمته من مأكّل خفيف وماء شرّوب، منصتاً إلى أخبارها عن
أهل الحي من أقراح كالزواج والولادة والختان، ومن أتراح
مدارها ضعف الزاد وضنك العيش وقلة الصحة. ويحدث
أن توصيه بزيارة هذا البيت أو ذاك للتهنئة أو التعزية كثيراً
ما يستجيب، مضيفاً عيادة مرضى قدامى أو جدد من طريحي
الأسيرة ومنتظري ملك الموت والنزع الأخير.

لحظات استرخاء يقضيها في القراءة وحفظ الأزجال
وكلمات أغاني شعبية أو في مشاهدة برامج تلفزيونية. وبعدها
يغتسل ويقص لحيته ثم يستسلم للنوم محاطا بعناية أمه
وأدعيتها. دعاؤها الأخير: سرّ يا ولدي زيد الله يزيد في عقلك
ورزقك وينجيك من بنات السوء وأولاد الحرام.

ككل صباح، يتنظف الشاب، يترك على المائدة دراهم
نفقة اليوم، يقصد جامع الحي حيث يتوضأ ويصلي، يتناول
فطوره في مطعم شعبي صحبة بعض من يعرفهم ويرتاح إلى
محادثتهم في أمور شتى. وهذه المرة سأله أحدهم مستغربا:

- الحرية والسفنج ويبيض مسلوق وحتى العدس... هذا
فطور الألبة!

جاوبه زيد مبتسما:

- هذا فيه فطور وغدا، من هنا حتى العشا. أما العدس ففيه
فيتامين الحديد، وفي هذا الزمان الحديد نفّعه كبير... فهمت
يا بوراس؟

يتسلم الشاب كأس قهوة من النادل، يحتسيها، يؤدي
ما عليه، يدعو الجماعة إلى حضور تجمع مطلبتي كبير أمام
البرلمان...

كان زيد يحرص أيما حرص على المشاركة في
المظاهرات والوقفات التي دأبت على تنظيمها حركة ٢٠
فبراير منذ نشأتها في هذا التاريخ من سنة ٢٠١١؛ تسمّت

بهذا الاسم وبرزت في رحاب مدنٍ جرّاء مخاضاتٍ عسيرة
دفينة، فاضت انسحاقاتِها ومكبواتِها المتراكمة، وتجلت في
أجواء الربيع العربي وثوراته على العبث العربي وقوى القهر
والاستبداد. حركة شبابية انضم إليها زيد - اللامتمي حزبيا
- من بابين: باب معيشه الشخصي والأهلي المتسم بالضنك
والضيّق، وإحساسه الحادّ مغربيا أنها حركة انفجار ناجم
عن سنوات الرصاص والضغط ومعالجات أمنية طال أمدها
وعسفها، ودارت في حلقات فاسدةٍ عقيمة؛ أما الباب الثاني
فهو تفوّقه في إبداع شعارات احتجاجية أو مطلبية سرعان ما
انضافت إلى أخرى، من دون أن يعرف في البدء نسبتها إليه إلا
قلةٌ قليلة من المنظمين، اضطروا إلى تكذيب مغرضين دخلاء
ببيان حقيقة، مما جاء فيه: ... وعليه فإن زيد أمحزون لم يبع
للحركة شعاراته بل أهداها لها على سبيل النضال والتطوع...

كان آخر عهد زيد بالحركة قبيل نهاية السنة المذكورة
لما التحق وصحبّه بجمهور حاشد للمعتقلين والمعوقين من
ذوي المطالب المشروعة، وذلك في وقفة احتجاجية دعى
إليها المنظمون عبر وسائط التواصل الحديثة لتكون أمام
البرلمان وبعده بباحة الولاية. وكُلف زيد بقيادة المعوقين
بصريا ولمّ صفوفهم بواسطة جبل يسمونه غالبا العروة الوثقى،
وذلك لموهبته في محاكاتهم في المشية والتطلع إلى السماء،
كأنما هو واحد منهم. قَبِل التكليف وكذلك تحميسَ الجموع

بشعاراته عبر البوق كما في السابق، لكنه طالب كغيره أن لا يتم اقتحام أيّ وزارة أو مؤسسة عمومية، ولا أن يُلجأ للعنف أو استفزاز قوى الأمن. وما إن دنا منتصف النهار حتى كان شارع محمد الخامس يعج بالمتظاهرين ذكورا باللحي أو بدونها وإنائنا حاسرات أو محجبات، يهتفون جميعهم ملء حناجرهم بشعارات تلقائية تنبعث من هنا وهناك، وبأخرى منتظمة جماعيا تصدر بالتناوب من أبواق، وتتوحد حين يعلوها صوت زيد بطاقيته ونظارته السوداء، فيردد الجمهور بعده شعاراته واحدا واحدا، ومرارا وتكرارا لما فيها من معاني هادفة وصياغات موفقة، منها:

هذي وقفه سلميه	والمبادئ حقوقيه
هذي خرجه سلميه	وقيّمنا تحريره
هذي وفقه سلميه	وطريقنا هي هي
هذي خرجه إنذاريه	والمطالب اجتماعيه
هذي وقفه سلميه	والحلول ضروريه...

تعب زيد وبجّ صوته، فخلفه صوت آخر مدويا بشعارات مبسطة تردها أطراف عن ظهر قلب:

إلهنا واحد	كتابنا واحد
وطننا واحد	لساننا واحد
مشروعنا واحد	سيلنا واحد
جهادنا واحد	مصيرنا واحد...

ثم انبعث صوت آخر من البوق نفسه:

لا لكنْ ولا حتّى	الشرعة ولا بدّ
لا لكنْ ولا حتّى	العدالة ولا بدّ
لا لكنْ ولا حتّى	الإحسان ولا بدّ
لا لكنْ ولا حتّى	التنمية ولا بدّ
لا لكنْ ولا حتّى	الخدمة ولا بدّ...

لما أحس زيد بشيء من العياء يدبُّ في هدير الأصوات،
بادر إلى إعادة الحيوية إليه وتأجيجه بعد أن اطمأنَّ إلى قعود
العميان على العشب ملتفين، فتناول بوقه معتليا كتفي متظاهر
قويّ عملاق، وصاح والجموع تردد كل شعار فاه به:

الحركة سلميه	والجراك بلا عراك
خيرات البلاد أنهبتوها	وبالريغ أنهكتوها
على فيا قنا تحاصرونا	واللي بغضنا يضر بوضونا
الكرامه دابا دابا	أو الما والشطابا
الفساد الفساد	هو عدو هذا البلاد
شغشع الحق والطريق بان	أتحركوا يا النيام
بالوعود أنخمتونا	وعلى الغصّ أزميتونا
لا عمل ولا أمل	أحكمتمو علينا بالزوال
ما مفركيش ما مفكيش	وعلى الظلم ما راضينش

الإصلاح الإصلاحي هو طريق الفلاح
هذي وقفه سلميه...

حين حل وقت توجه المتظاهرين إلى باحة الولاية القريبة
من شارع محمد الخامس، منعهم أعضاء فرق محاربة الشغب،
إذ غلقوا كل الأزقة المفضية إلى وجهتهم، إلا التي يسهل
فيها تفريقهم وتشتيت شملهم. وقد توقفوا في ذلك لوفرة
عددهم وعتادهم، مستعملين القوة في صفوف المتظاهرين
المقاومين، فوقعت مشادات واشتباكات تلتها تدافعات ثم
إغماءات وإصابات، فجيء بسيارات الإسعاف، وتعال
أصوات التنديد والاحتجاج من بعض الفارين أو الصامدين،
تعلو حيناً وتخفت أحياناً.

أما زيد فقد سلك بقافلة العميان دربا ضيقا تغاضى عنهم
فيه أفراد البوليس، حتى إذا أوصلهم إلى مكان آمن ودعهم
وذهب إلى حال سبيله حاملا بوقه، واثق الخطو، غير متعثر.
وفجأة برز له من الخلف رجلٌ بزيّ مدني، فلوى على ذراعه
وقال: «أنا اللي أقودك الآن يا لعمى لمزور، لكن إلى مخفر
الشرطة...» ولم يمهل الرجل تهديده حتى تخلص زيد من قبضته
وانطلق يعدو بسرعة فائقة أفشلت تماما جهود ملاحقه البدين.

في زنقة بيت لحم المتفرعة عن شارع مولاي يوسف
وسط المدينة، عجبنا ما يفعله زيد، حارس السيارات، بوحدة
من نوع مرسيدس سبور حمراء في موقفها المعتاد: يغسلها
بالماء الراغي مرات عديدة من سقفها إلى أخمص عجلاتها،
ثم يمسح ما غسل ونظّف بتفانٍ ينسبه مديده لسائقين مغادرين
أو إرشاد آخرين يريدون الركوب، ويختتم عمله بوضع بوسات
حارة على السيارة حيث استطاع.

لاحظته ذات مرة من نافذتها موظفة مع المنظفة فلم تعبأ.
ولما تكررت ملاحظتها أخبرت بالأمر زميلتها التي تشاركها
المكتب وأخرى من نافذة مكتبها الخاص، وذلك في وكالة
عقارية بالطابق الأول لعمارة قديمة، فهبين جميعاً إلى الشرفة
المطلّة على الزنقة، وهنا قوّيَ عجبهن لما يفعله الشاب ذو
الصدرية الزرقاء والطاقيّة السوداء بسيارة مديرتهن السيدة
أسماء. تناوبن على نهرة والإشارة إليه بالابتعاد، لكن عبثاً.
تطوعت إحداهن للنزول إليه عجلئ، فاختنفى ولم تعثر له
على أثر. وحين رجعت لاهثة، وجدت المديرة تنهر زميلتها
وتأمرهما بالانكباب على العمل والملفات عوض الانشغال
بحارس أحرق يغسل سيارتها ويلوذ بالفرار كلما أرادت جزاءه

وشكره. وقالت مهددة قبل أن تعود إلى مكتبها: هذي آخر مرة أسامحك يا نائيتي عفاف، وأنتِ نعمى وحتى أنتِ نعيمة يا خفيفة الرجل...

من بين المذكورات بالإسم: عفاف، خمسونية، أرملة، هي الأكبر سنا والأوفر تجربة وكفاءة، ترتدي دوما جلبابا أنيقا وتضع على رأسها حجابا خفيفا؛ وهي المؤتمنة على مفاتيح العروض العقارية المعلقة في ألواح بمكتبها الخاص؛ كما أنها الأعراف بحياة المديرية الخاصة منذ مدة والمؤتمنة على سرّ يسرها المالي. تتقاضى منها راتبا شهريا قارا يكفيها لاتمام الشهر ورعاية بيتها، وينضاف إليه قدر متحول بحسب حال سوق العقود والصفقات. أما نعمى ونعيمة فكلهما عازبة مليحة دون الثلاثين، تغنيان أثناء غياب المديرية لوردة الجزائرية، «أنا عازبة معجزة»، وقصدهما الزواج الحلال، العاصم من إغراءات الزيف والتهيان.

وأما الست أسماء!

أسماء التي أطفأت شمعتها الأربعين بداية هذي السنة ٢٠١٢، فهي امرأة أعمال (صفتها الأثيرة، وويل لمن سماها سمسارة)، تبدو أقل من سنّها بفضل هندامها المميّز ورشاقة جسمها وشغفها بالرياضة وعمليات الدلك والتجميل، هذا علاوة على أن جمالها أصلا لا لبس فيه ولا ريب: متوسطة القامة، هيفاء مهيمنة بأحذيتها العالية؛ ناهضة الصدر رشيقته؛ ذات شعر مبوكل أو حرّ طليق، أسود أو كستنائي حسب

الفصول؛ محياها نصر ريان، ماكياجه خفيف لطيف، أسيلة الخدين، عسليّة العينين نجلاوان؛ إذا ابتسمت أو نظقت زادها ثغرها ذو الأسنان الناصعة والشفيتين اللحيمتين رونقا وبهاء. تتهامس معيناتها وأيضا آخرون (وهم إلى حد كبير محقون) بأنها مزيج موفق بين الممثلتين الشهيرتين يسرا المصرية وأدجاني الجزائرية الأصل، أما هي فتأبى التشبيهات والمماثلات بين أي امرأة وأخرى؛ لكن، إجمالا، كل من جالسها من الملاك والمستثمرين العقاريين والزبناء يشهدون لها بالحسنين: حسن الخلقة والقسمات وحسن التدبير والادارة. وإذا أحدهم غرّته نفسه وحاول خرق حدود اللياقة والأدب، نهته بحزم وذكرته بموضوع اللقاء ووجوب التقيد بقواعد المهنة وضمنان دوام المعاملات وانتعاشها. وبهذا الشرط كانت عند الضرورة تقبل معالجة ملف أو مفاوضة عارض حول فطور أو غداء في مطعم محترم راقٍ.

ذات يوم جمعة استقبلت الست رجلا عليه سمات الورع والوقار، يرتدي زيا تقليديا يفوح عنبرا ومسكا. قال إن اسمه الحاج عباس عبد اللاوي، وادعى أن الوقت يداهمه، وكلامه معها متشعب كثير، وحرصه على أداء صلاة الظهر مع الجماعة أكيد، فترجاها أن تقبل دعوته لوجبة غداء غدا السبت، وترك لها قبل أن ينصرف بطاقته وعنوان المطعم.

اعتادت أسماء عموما على قضاء عطلة آخر الأسبوع في منزلها، قريبا من زوجها المريض وابنها من قرينها الأول

المتوفى منذ سنين في حادثة سير مروعة. هذه المرة اختلقت عذرا قاهرا، وهبت إلى موعدها على شاطئ الهرهوري في ضاحية الرباط الجنوبية. استقبلها نادل قوي البنية، قادها إلى عتبة المطعم حيث لقيها شخص ذو بدلة عصرية أنيقة، ظنت أنه رب المطعم أو مسيره، فما إن أخذ يرحب بها ويحثها على تشريفه بالدخول حتى أيقنت من صوته أنه زائرها في مكتبها وصاحب الدعوة. تماكنت نفسها، سيما وقد لاحظت أن القاعة ليس فيها زبائن وسمعت الرجل يقترح عليها فتح زجاجة شامبني في الصالون. تذرعت بكونها لا تشرب المسكر ولا تدخن، واستعجلته في تناول الموضوع الذي جاءت من أجله، فأجاب متصنعا اللطف والدمائة: ليس قبل أن نتناول وجبة الغداء!

حول الطاولة أصرت المدعوة على أن تجلس قبالة داعيها، وشرع النادل في وضع شتى أنواع المأكولات، يسقي سيده خمرا وتملاً هي كأسها ماء، يعرض عليها صحنات تلو آخر فتكتفي بالنزول اليسير. أخذ الرجل يحكي لها نتفا من حياته: المطعم جناح إحدى الفيلات التي يملكها. امرأته الأولى طلقها بإحسان، والثانية ماتت، والحاجة، زوجته الحالية، ترهلت وشاخت قبل الأوان؛ له ضيعات وعمارات على امتداد الوطن؛ ابنه كبرا وهاجرا، واحد إلى أمريكا والثاني إلى أستراليا حيث تجنسا وتأهلا، يراهما مرة كل سنتين لا أكثر...

فجأة ساد صمت تخللته زفرات المضيف واصطناع المدعوة المضغ بغم فارغ. رنّ موبايل أسماء، فقالت لمخاطبتها عفاف كلاما مشفرا يعني ضده: لا يا عفيفي، اطمئن ولا تبقى على الخط... ثم أنبات جليسيها أن حارسها الشخصي قلق عليها ويريد اللحاق بها. اضطرب الرجل في قعدته، أشعل سيجاره واقترح تناول القهوة أو الشاي في الصالون. اعتذرت عن ذلك وطلبت الخروج بعد أن سمعت منه بضع كلمات في موضوع هذا اللقاء. قال إن الأمر يتعلق بعرض صادق سخّي: أن يوليها تسيير كل أعماله المالية والعقارية لقاء راتب تحدده وزواج حلال يشرع لها أن ترث منه... استقامت أسماء واقفة وقصّدت الباب قائلة: لا يحل لامرأة أن يكون لها زوجان، وأوصته ببعث رسومه الملكية تنظر فيها وتبلغه جوابها. تعثر المخاطب في اصطحابها وتلعثم قائلا: طلقي زوجك أو اقبليني عشيقا، أتشيع من أجل جمالك، فيحل لنا زواج المتعة حتى يفرّج الله...

استقلت الست سيارتها وانطلقت من دون أن تنصت إلى لغو المعتوه وتضرعاته. ذكّرتها هذه الواقعة بسابقاتها مع أن شروط الوقاية والسلامة كانت أوفر وأضمن. قررت إخبار الحاج مروان النصري في لقائها القادم معه بما حدث، وهو مالك الوكالة وولي نعمتها، لعله يجد لها حلا يصونها ويعصمها.

عادت الست إلى منزلها بحي الليمون بعد أن زارت بعض صديقاتها، رباتٍ مخازن ألبسة نسوية، واقتنت منها ما حلا لها وواتاها. اختلت في طابق الدار الفوقي منتظرة أن ينهي زوجها وابنها صلاتهما في البيت الكبير. ما تبقى من عطلة آخر الأسبوع تعلم أنه، كما منذ عام وزيادة، سيكون مشحونا بالشنآن واللوم والحزن. الزوج، إدريس الريفي، المصاب بمرض مزمن وعلل أخرى، دأب على تأثيمها بسبب عملها الذي ما زاولته امرأة إلا جعلها مضغة الأفواه، وتلطخت به سمعة أسرتها، وُسِّمَت السمسارة، فتُنسب عند الخصوم وحتى عامة الناس إلى عالم السمسرة والصيد في المياه العكرة؛ والابن حسان العشروني، الميال عطفًا وإسعافًا إلى من يعتبره أباه الروحي، يلقاها بالنبد والصدود، لا يكلمها عند الضرورة إلا بما قل وقصر؛ أما هي، المأخوذة بين مطرقة البعل وسندان الولد، فقد تعبت من محاولة إقناعهما بأن الزمن تطور، والمرأة فيه تطلب رزقها الحلال حيثما استطاعت، مسلحة بكفاءتها وصفاء سلوكها ونواياها. تذكرهما عبثًا أنها عملت في شركة للنسيج أفلست، وفي أخرى للتأمين تأزمت فسرحتها مع آخرين؛ تُنبههما إلى أنها بمستواها باكالوريا

في المانجمنت اضطرت إلى العمل في وكالة عقارية صارت في وقت وجيز مديرتها بفضل كدها وحنكتها وتوقها إلى مساعدة الابن على نيل إجازة الفيزياء-الكيمياء، والزوج ذي الدخل المحدود من وظيف بدار للضرائب؛ أما سيارتها المرسيديس وتمكينهما من أظرفة مالية سخية - وهنا بالذات تنهشهما أنياب الريبة والشك - فمصدرها من عائدات إضافية تدرها عليها الصفقات العقارية المربحة وفوائد سهومها بالبورصة. وهذه وتلك عند رجلها والابن معا من تلبسات إبليس، يسكنها الحرام والربا. وتعقدت علاقتهما بها وساءت أكثر مع محاولة إرغامها على أن تستتر وتحتجب، إظهارا لحسن نيتها ودرءا للشبهات عنها، فكان ردّها الرفض البات والامتناع القاطع، فقابلا موقفها بالإعراض عن مساعداتها المادية، حتى بعد أن شُخصت إصابة الزوج بقصور كلوي حاد وكثرت حاجيات الابن إلى آلات وأدوات دراسية حديثة.

هكذا أضحت الست تمضي أيام العطل في فضائها الفوقي بين المطبخ وغرفتين، تداري وضعها العائلي البائس المضني بالانكباب على ملفات عملها، وقراءة كتب في التدبير والتسويق، ومتابعة أفلام ديفيدي، والتحدث في الموبايل والاستماع إلى الجاز والبلوز، من موسيقاها المفضلة. كان ابنها حسان حتى قبل مرض الزوج يأمرها صارخا من وسط الدار أن تسكت ما يسميه أفلام الخلاعة وموسيقى الفسوق، فتطيع الشاب تجنباً لإثارة أعصابه وأعصابها؛ سيّما وأن

إدريس صار طريقَ الفراش، وحسّان حادّ الطبع، ملتجيا،
فباتت السمّاعة الأذنية وسيلتها الوحيدة للتفريج عن نفسها
المكلومة.

من فتحات في الدربزين، دأبت الست على استراق
النظر والسمع مساءً إلى الطابق السفلي، فتلاحظ تقاطر
رجال على بيت المريض يعودونه، وأحيانا يخرجونه
والابنَ إلى مسجد الحي أو لحضور ليالي الأمداح النبوية
والسماع. وكان أدمهم على زيارته وإسعافه فقيه جار،
معروف بفضيلتي الاستقامة والطبوبة، واسمه الشائع
الحاج المختار.

ذات ليلة، لما أيقنت أسماء أن الدار خلت إلا من قطط
أليفة، نزلت إلى السفلي خفيفة الوطأ حذرة، تفقدت بيت ابنها
فألقت الكتب الدينية تعدل أو تفوق عددا المؤلفات الدراسية؛
ثم عرجت على بيت الزوج فلفتت نظرها علب الأدوية الكثيرة
على مائدته، علمت من قراءة وصفات بعضها أن الرجل
مصاب أيضا بالبواسير وربما بأعراض أخرى. هالها الأمر،
فصعدت عجلي لاهثة إلى مستقرها لتستحم وتأخذ قسطها من
النوم استعدادا لعمل الغد؛ لكنّ النوم استعصى عليها لما بات
يعج به ذهنها من صور وأقوال متسلسلة متزاحمة، بعضها عن
مهنتها وملفاتِها العالقة أو الشائكة، وبعضها الآخر عن حياتها
العائلية الكثيبة المأزومة. حاولت مراودة النوم بالإنصات إلى

بعض أقراص أغاني اسمهان وفيروز بعد تخفيض الصوت والضوء. انتهت الأقراص وتقدم الليل ولا نوم. فجأة تناهت إلى سمعها أصداء رجوع الزوج والابن من سهرتهما الدينية، وحين تلاشت اضطرت إلى بلع منوم اعتادت على تناوله كلما استبد بها السهاد وعبث، فأغمض جفניה وأنعسها.

صبيحة يوم الاثنين، ركنت الست المديرية سيارتها كالمعتاد، ألقت من حولها نظرات فاحصة، عليها تلمح الحارس الأحمق، وحين صعدت إلى وكالتها غادر مخبأه خلف سارية وقصد عداد الزنقة الآلي وطفق، كدأبه مطلع كل صباح، ينطحه نطحات ويركل عموده الفولاذي مرات عديدة حتى التعب والانهاك، مترجيا من المارة الملتفتين إليه أن يعينوه على اقتلاع هذه الآلة الشيطانية، مصاصة الدراهم ومخربة أرزاق حراس السيارات الأدميين. أثناء عمله، قلة قليلة يجودون عليه بما استطاعوا، والآخرين ينصرفون مديرين سباباتهم في أصداغهم. عندئذ يتوجه بمناديله ومناشفه وسطل ماء إلى مرسدس المديرية ليشمّلها كعادته بعناية خاصة، غسلا ممنهجا ومسحا وبوسا. وبعدها يجري مسرعا العمل نفسه على سيارات آخر (لكن من دون حماس ولا تقبيل) رجاء أن يحصل من أصحابها الخارجين من إداراتهم على دريهمات يقتات بها هو وأمه العجوز في بيته الصفيحي.

نعمى ونعيمة لم تعودا تعيران أيَّ اهتمام بالحارس الأحمق وفعله بسيارة المديرية. عبرتهما الست بتحية عجلية، وطلبت من عفاف اللحاق بها في مكتبها. كان العناق بين المرأتين حارا

مؤثرا. أحست عفاف توا أن حالة الرايسة النفسية تسوء بسبب تدهور علاقتها بزوجها وابنها. جلست على الأريكة حذاءها تكفكف دمعها وتواسيها بكلمات تقريظ واستنهاض، تذكّرها بصورتها الشيقة المضيئة في أعين رجال وحتى نساء تعاملوا معها وشهدوا لها بقدرة تفاوضية عالية وبالفتنة والدهاء. نددت عن المنصبة تنهيدة أعقبتها بابتسامة مشعة خفيفة وتعليق ساخر: يا المزوّق من برّ أش اخبارك من الداخل؟... نهتها عفاف عن الأمثال الفارغة ونادت على العون بويا عمر الجندي المتقاعد الأعرج لإحضار الفطور، فأتى به محييا على طريقته ووضعها على الطاولة وانسحب، يتبعه تحذير المنادية بأن يكف عن مناوشة المنظفة والكاتبتين والتدخين داخل الوكالة، وأوصته بمحاولة القبض على الحارس الأحمق وإحضاره، ثم مالت على جليستها وقالت:

-أمري بمنع التدخين يعني حتى الست المديرة... لا سيجارة واحدة ولا نصفها. هذا الفطور نعطيه حقو ووقتو. اسمعي كيف أشرب الشاي... بالنغمة، وأستحلي. شوفي الكرواسن أغمسها بالعسل والزبدة وأكلها قطعة قطعة، ولا أبالي... ودابا قلديني... هكذا... ما تفكري في شيء، غير لذة الطعام والشراب. ومن بعد نعمل اللي علينا، والبقية لها مدبر حكيم... خف حال أسماء ولان، وأشرق وجهها وابتهج، قالت مبتسمة:

- كلامك عفاف عسل. من هذي الساعة حتى هبوط الليل مذاقه يشفيني. شكرا حبييتي. والآن ما العمل؟

- صباح كل يوم يلزمك عسلي، وأنت بحسن مزاجك ونور ابتسامتك عسليني... العمل؟ بالأمس في داري هيأت لك كل شيء. تقارير خبرة وأحكام قضائية لصالح الوكالة وحسابات للتوقيع، هوذا السجل. طلبات مواعيد غربلتها وأتكفل بها، إلا من مستثمر شامي يلح على مقابلتك ولو في حضوري. سألته عن الموضوع قال: طوب-سكريت. مواعده غدا في الرابعة بعد الزوال بحيث سفير السينغال يفضل زيارة فيلا الإقامة للكرءاء في الصباح، ومرافقتك له ضرورية، كما يشترط صاحب الملك وملاك فيلات غيرها، وإلا توجهوا إلى وكالات أخرى.

- مزيان... خبري السائق بالموعد... الآن قريبي أذنك مني... الحاج علال المختار في دور الجامع، سمعت به؟

- طبعاً! الرجل معروف حتى في حي المحيط...

- إذن رتبي لي غدا لقاء معه في بيتك بعد صلاة المغرب. ما عاد يقبل زيارتي في الوكالة... طوب-سكريت... عودي داباً إلى مكتبك. راقبي عمل البنتين.

استوت الست أسماء خلف منصدها، تحتسي قهوتها وتطلع على الوثائق وتوقع على بعضها. وفيما هي ترقن على

حاسوبها سمعت ضجيجاً في بهو الوكالة. استخبرت عن سببه في الأنترفون، أجابتها عفاف أن بويّا عمر ألقى القبض على الحارس الأحمق وأحضره. هبت لرؤية المشهد فرأت الشاب، الذي لم يلحظها، يشاكس العون ويهدده على طريقة الراب بعد أن أبدل طاقيته بكاسكيت:

اطْلُقْ يَا الشَّايْبُ مِنِّي
واقْبُضْ فِي الهَوَا لَا يَفْلَتْ لِكَ
سَرْتَلَهِّي بِشَغْلِكَ
وشَغْلِكَ يَخْدُمُ عَلَيْكَ
وإِلَّا تُفَرِّجْ هَذَا النِّسْوَهْ فَيَكْ
نَبْدَا بِالضَّرْبَةِ الرَّأْسِيَهْ
ثُمَّ كُؤْمَاتُ فَنِيَهْ...
الأُولَى كُووَالثَّانِيَهْ كُو
وَالثَّالِثَهْ عَلَيْهَا نَتْعَارُكُو...

فجأة، صمّت المهدد، إذ لمح مولاة المرسديس مغتاظة، فيما عفاف تحاول تهدئة الوضع والكاتبان تتمايحان وتطلقان ضحكات خافتة؛ ثم أخذ الشاب بصوت رخيم ينشد:

قلبي بالهوا مَفْنِي
يَا أَهْيَلُ الْغَرَامِ

واصفّر يا صديق لوني
من شدّة الآلام
وذائب من الجفا جسمي
وصار بحال كخيال...

قاطعته عفاف مبشورة الوجه: وعلى من يسري كلامك يا
هذا المجنون؟ فأجاب وهو يخفض طرّفه ويقصد الباب: على
المرسدیس يا ولية إذا كان فهمك قصير، وعلى ذات الهمة
والزين إذا كنت فابقة وذكية... نهرت السائلة وهي تكد في
كتم ضحكة قاهرة وأمرته بالتنحي، فقال منشدا: هانا واقف
في الباب، حتى يطرّدني اللي فهمني، وما يعود يشوفني ولا
يسوّل عليّ...

نزعت الست الرئيسة من العون عصاه وهرولت نحو
الحارس مستنفرة مهددة، لكنها لم تلحقه، إذ اختفى كالجن
في طرفة عين، فعادت مفتعلة الجدية والصرامة، مذكرة
الجميع أن الوكالة مقام محترم وليس سيركا أو حلقة الفرجة،
آمرة باستئناف العمل والكف عن الضحك المكتوم؛ ثم ما
إن أقفلت عليها مكتبها حتى تسربت منه إلى آذان الموظفين
أصداء ضحكاتها المتقطعة، فتنافست نعيمة ونعمى في
التهامس والتغامز، وعفاف تنهاهما جاهدة في حبس ضحكها
والانكباب على حاسوبيهما، بينما بويا عمر يستعد لمرافقة

زبائن ضربت لهم عفاف موعدا لزيارة شقق للبيع في عمارة جديدة، ثم يخرج وهو يبرئ نفسه من مطاوعة سوق النساء... شعرت سيدة الوكالة أن حارس السيارات بكلامه العجيب وإنشاده قد أدخل عليها سرورا غريبا، جعلها تخف وتناى بفكرها وجوانحها، ولو إلى حين، عن هموم بيتها وكُربه. نظرت في مرآة إلى محياها فألفت أساريرها منفرجةً منشرحة، وعينيها وشفتيها تشعان بهذا البشر المفاجئ...

سمعت نقرا على بابها فإذا بها نجلاء، أعزّ صديقةً لديها. عاشرتها أيام عملت في شركة للتأمين كما في أسفار إلى عواصم أوروبية وعربية، وظلت على صلة بها، معجبة بقوة شخصيتها وملاحظتها وتفننها في المرح والتمتع بالحياة والتهامها ملء حواسها وما ملكت يداها. هلت الزائرة لأمارات الجبور وحسن المزاج على صديقتها واهتلتها فرصة، بعد أن جالستها، لدعوته إلى حفل راقص يوم السبت القادم، يحضره بعض الأزواج الأوفياء وثلة من العزاب الأصفياء والعازبات التقيات. أطلقت المدعوة ضحكاتٍ ضاحجةً تارة، خافنة طورا. استغربت نجلاء الأمر، هل بسبب الأوصاف التي أطلقتها على مدعوها أم ماذا؟ مصححةً أوضحت أسماء أن ذلك إنما مدعاه ما جرى في الوكالة هذا الصباح. قصت عليها حكاية حارس السيارات كاملة، فأخذتا تتباريان في الضحك الطليق أو المتقطع، وفي خضمه ذكّرت الزائرة صاحبته بالدعوة، فاعتذرت هاته عنها بسبب مرض زوجها وتربص

ابنها بحر كاتها، ثم دعتها وهي تمسح دمعها إلى مطعم من
اختيارها. وفي ممر الخروج سلمت الزائرة هاتفية: باي باي يا
البنات، ووجهت لهن الست المديرة إنذارا: الضحك ممنوع
والعمل الجدي مطلوب، قولي يا عفاف لبويا عمر يعلق هذا
الشعار قدام نعيمة ونعمى، وإذا حضر الحارس الأحمق هنا
علقه من رجليه... وفي السيارة قبل انطلاقها نبهت صاحبته:
شوفي الحارس كيف يلعب معي كاش-كاش... أحمق هو أو
عندو عقل؟ الله أعلم.

الزوج إدريس أضحى في غرفته يقضي معظم وقته مداريا مرضه بين أداء الصلوات بالتيمم وكيفما تيسر، بالإيماء أو بالقعود، وبين الإنصات إلى أقراص مقرئي القرآن النابغين، ينصحه بذلك جاره وصديقه الحميم علال المختار، ويتكفل بالإنفاق على تطييبه وحصص تجديد دمه. وحين يستكثر المريض ما يفعل الرجل من أجله، يجيبه مبتسما:

- إنما أقرضك بلا فوائد، وحين تشفى بعون الله، ترد لي الدين، لا أترك لك من الحساب ولو ركعة.

- جزاك الله خيرا يا محسن وأطال في عمرك... إنما الدياليز كان مرة في الأسبوع وصار مرتين، وألم في المعدة مرة مرة يفيق وزد عليه البواسير... وما أدري أي داء آخر يتربص بي... أش ذنبي تحت ملك الله؟ أش ذنبي؟!

- استغفر الله يا هذا ولا تقنط من رحمته. المؤمن مصاب وممتحن في صبره وإيمانه. أعراضك كلها قابلة للعلاج بقوته تعالى وحوله. وأنا دوما في إسعافك ومؤانستك، وبتي تخدم بيتك ومطبخك لوجه الله... إنما أطلبك في شيء واحد: تأمر حسان بالتفاني في دراستو والرفق بأمو ما استطاع.

انقبض وجه إدريس، قال متنهداً:

- اللهم قرّج ويسّر، يكون خير يا حاج... يكون خير...

- وبعض الخير، (عقب الحاج) في هذا الكيس... مال
يكفيك ثلاثة أشهر على الأقل، وإذا أردت أكثر فمر.

- كيف أشكرك وأعيد لك سلفك، يا أفضل الناس؟

- اشكرني حالا بأقصر الكلمات؛ أما السلف تسدده في
هذي الدار من بعد ما تتعافى وتصح. وإذا سبقتك أو سبقتني
إلى دار البقاء، فثمة ننظر في أمر الدين أو نمحوه كله إلى الأبد.

نظر إدريس في ساعته منبهاً أن ميعاد تصفية دمه يقترب.
فجأة برز الشاب حسان، قبل يد أبيه وكتف الشيخ، وجلس
مقطب الوجه، برماً بهذا الأخير، الذي رأى الفرصة سانحة
لمحاولة صرف الشاب عن غلوه وتشدده وفهمه المتهافت
لزاده من القرآن والأثر الديني فأنفق، أكثر مما فعل معه
من قبل، بلاغة مؤثرة في وضع محفوظاته طي مناطاتها
وسياقاتها، وكلها عنده تقي المؤمن العادل المعتدل شطط
ما نهى عنه الكتاب المبين في قوله تعالى: ﴿لا تغلوا في
دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾، وأعقبه بإحدى درر
الامام سفيان الثوري: «إنما الرخصة من فقيه ثقه، أما التشديد
فيحسنه كل واحد»، وكذلك بحكم ومأثورات أخرى، ثم نبّهه
قائلاً: الجماعة التي تخالطها، يا ولدي، أناس يهرفون في

الدين بما لا يعرفون، يركبونه عوجا ولا يعتبرون، يصح عليهم الحديث النبوي الشريف: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض»...

استقام الشاب واقفا كأنه يرغب عن سماع الشيخ، واكتفى بالقول، فيما أبوه يخصصه بنظرات شجب وامتناع: يظهر يا فقيه أنك تستخف بفساد الزمان وغلو الطغاة وقهر الناس والعيب بهم وبحقوقهم، وتقابل هذي الخروقات والمعاصي بالدعوة إلى الرفق واللين وترك الجبل على الغارب بالتسليم والإستكانة، نعوذ بالله من ذلك... انهض أبي أصحابك إلى المصححة...

رد إدريس بلهجة حادة: اذهب إلى دراستك. فضيلة الشيخ هو اللي يرافقني.

في الطريق إلى المشفى، بواسطة طاكسي، كرر إدريس اعتذاراته لمرافقه عما بدر من حسن من كلام حاد، شديد اللهجة، وذكره أن الشاب مضطرب المزاج، عنيف الطبع، شقي منذ صباه برزايا مضية: أبوه كان سكيما فاسدا ومات في حادث مفعجة، وأعز أصدقائه - وكان مناضلا نقابيا - أدرجته منظمات حقوقية في عداد المختفين قسرا، لا أثر له ولا قبر حتى اليوم، وغير ذلك؛ كما أنه يجافي أمه ويصدها بسبب امتنانها السمسرة؛ حركته لا تتعدى المنزل والمسجد والسير - كافي

وزاوية تجمعهم بمن يسميهم أهل الخرقة والتقوى.

ظل الشيخ صامتا ينصت لما سمعه من صديقه مرات من قبل. وقبل وصولهما إلى مصلحة مقصدهما، دعا للشاب بالهداية ثم قال: كونه برّاً بك يا أخي يبعدني عن اليأس منه. لكن إذا صعب حاله، لا سمح الله، اعرضه على طيب نفساني، علّه يهون من جموحه وغلوائه...

كانت أسماء في «الصححة أولا» تمارس الحركات الرياضية قبل أن تسلم بدنّها للدلك فالحمام سبى الراعي الفوار. في هذا النادي، الذي ترتاده صباحا ثلاث مرات في الأسبوع منذ أكثر من سنة، ثمضي الست وقتا يمتّعها ويسعفها على تصفية ذهنها وحواسها لأداء عملها كما تحب وترضى، ومواجهة متاعب منزلها ومأساته. كانت تقنع في النادي برفقة صديقتها نجلاء وأخرى تحمل خطأ اسم راضية، لكونها دوما ناثرة على الهاي سوسايتي، وسط نشأتها وزواجها وتصريف أيامها، وكثرا ما تستشيط غضبا ضد أقربائها المترفين الفاسدين، فتحمر عينها اللتان بهما حَوْل يضيفي على كلامها وحرركاتها سحرا وصدقا؛ أما مع صاحبتيها فإنها في الغالب تؤوب إلى نفسها راضية مرضية في هذا النادي أو في أي فضاء آخر ممتع مريح. ونجلاء باتت تتقبلها وتعرف كيف تنزع فتائل غضباتها وتغلب لدى أسماء جانب وفائها وخفة روحها.

انتهاءً من تلقي خدمات النادي، يهبّ الثلاثي المتقارب عمريا إلى حديقة فندق سوفيتل حيث يتناولن الفطور في هوائها الطلق، رشيقات مبشورات. الحديث بينهن ذو مناح، لكن كلما نطقت واحدة بأخبار أو حكاية أو نكتة وبدت

من المكررات إلا وهتفت الاثنان: «الجديد الجديد!» أو «الحاجة هي الطرية!». الست أسماء، غالبا ما كانت تُدعى إلى افتتاح فصل ما جدّ وبهر.

في هذه المرة باحت المدعوة لصديقتها بقصة لم تروها لأي أحد من قبل، مفادها أنها تعرفت منذ شهر على شاب في الثلاثين، دأب على الوقوف حذاءها صباح كل جمعة في مقبرة الشهداء للترحم معها على أختها الصغرى المتوفاة السنة الماضية في حادثة سير، مدعيا أنه كان عشيقها، وعاهد نفسه على الوفاء لها دوما، فلا يعيش غيرها ما بقي حيا. في الخطرة الأولى اعتبرت الشاب كذابا، اختلق القصة لإغرائها وربط علاقة ما معها. لكن القرائن والتفاصيل التي أضحي يطلعها عليها في كل زيارة أيقنتها أن العشيق صادق في زعمه. وفي آخر مرة رأته في المكان نفسه، شرع يقبل شاهدة المرحومة كثيرا ويذرف الدموع الغزار، على نحو لم تره لرجل من قبل، ثم دعا القراء فأتوا جماعات ملتفين حوله، رافعين أصواتهم بتلاوة آيات وآيات، يعلوهم صوت الشاب شجيا رخيما، ثم ختم في حق المتوفاة بأدعية مرسلة لم تسمع أبدا أبلغ منها ولا أنفذ ولا أجمل، والجمع من حوله مذهولين يكتفون بقول آمين، حتى إذا تلوا الفاتحة تصدق عليهم بسخاء، فحاصروه بأدعيتهم وشيعوه بها إلى أن غادر المقبرة على عجل واختفى عن نظر المشاهدة المتعجبة المتأثرة، من دون أن يزودها بأي معلومة عنه...

سألتها نجلاء:

- ومن بعد يا حبيبتى، من بعد؟

- لا بعد ولا تنمة ولا خبر (أجابت). بقيت مسمرة في
مكاني لعل وعسى يرجع فما رجع...

علقت راضية وهي تستحلي تدخينها:

- الشاب ذكّي ماكر. يعمل بالمثل: كل غيبة تزيد هيبة...
اعطيني كفك... أنا من كثر ما جربت أفاعيل الرجال أصبحت
شوية عرافة... هذا الخط يقول لي: الشاب ربما كان عشيق
أختك يرحمها الله، وربما يكذب على الميتة لاصطيادك أنتِ
الحية. لكن تيقني أنو تارك لك الوقت الكافي وأنتِ مشغولة
بالتفكير فيه، حتى يجيء يوم يظهر قدامك مثل جن، وبعدما
يطمئن لدهشتك وفرحتك يهمس في أذنك: شيبك لبيك أنا
عبد بين يديك...

سحبت أسماء يدها تعبيرا عن استخفافها بتكهنات
صديقتها، وقالت:

- أنتِ كلامك كلّه تخريف. الشاب أصغر مني بعشر سنين
على الأقل... ثم نسيت أني متزوجة وعندي شغل ياخذ مني
كل وقتي، وهمومي اللي ما تخفى عليك تكفيني؟!

ردت راضية بلهجة استياء، وهي تتأهب للنهوض:

- يا ستي المديرية، أنا ما قلت شيء. انسي كلامي كلو. أنتِ
بزنس وومن وأنا امرة بطالة. والله يلاقينا في الصواب.

تدخلت نجلاء لتهدئة راضية وتلطيف الجو، قالت:

- راضية يا أسماء مش مدام سولاي أولها كرة البلور، لكن عندها حدس قوي يصيب مرة ويطلع بالصفرة مرة... رجلي الأول كان تعمد تكسير مؤخرة سيارتي في الباركنج بصدمة قوية من سيارته، وترك لي على الباربريز بطاقة تعريفه كتب عليها اعتذاره والاتصال به لإصلاح كل الأضرار. حكيت لهذي العفريته قصتي، نظرت في كفي وتنبأت أن الرجل ما فعل فعلتو إلا ليتعرف عليّ ويطلب يدي، وصدق كلامها... مدي لها كفك تعرفي البقية...

استجابت أسماء توا وهي تستسمح راضية وترغبها في الجلوس لإتمام عملها. ردت المطلوبة بشيء من التردد:

- على شان نجلاء يا مدام، لكن مش بالمجان. الفطور على حسابك...

- اليوم وغدا وبعدهو على حسابي... متفقة. اعتقيني يا حبيبي...

أطالت راضية النظر في كف صديقتها، ثم قالت بصوت واثق رزين:

- خطوطك تتقاطع، بعضها أطول من بعض. القصيرة تقول: رجلك المريض ما بقى لو غير الفاس والقياس. بعد

موتو بيرز الشاب إليك في المقبرة أو ربما في مكان آخر. طلبه
الأوحد منك تسمعيه في شيء... وأنا ما أشوف الشيء... ما
أشوف... سوري...

لم تقل أسماء شيئاً عن قرب وفاة زوجها، لكنها طلبت
بإشارات وإيماءات معرفة المزيد عن الشاب وطبيعة العلاقة
الممكنة بينه وبينها. لكن نجلاء، العارفة بطبع راضية، ترجت
السائلة أن تكبح فضولها وتُعفي عرافتها من النطق في ما لا
تراه. قالت: كل شيء في وقتو، حبيبي، كل شيء في وقتو...
عندئذ نهضت راضية وخاطبت صاحبتيها: أما الغداء ففي يوم
نتفق عليه بالهاتف... غود باي...

كان الحارس زيد يذرع نطاق ميدانه جيئة وذهابا، وهو في حالة نرفزة واضطراب بينة، كأن شيئا ما ينقصه، والسيارات من حوله إما تركن أو تغادر، من دون أن يعبا بها، ما عدا حين يمدد سائقون بدراهم يعدونها صدقة مجزاة. فمنذ إقامة العدادات الآلية، أصبح أغلب هؤلاء يكتفون بالتعامل معها مكرهين، غير مكترئين بالحراس المتضررين بها في رزقهم وقوتهم. وبالرغم من شح الدخل وتناقصه ظل زيد متشبثا بعمله، قانعا به، بسبب شغفه بالمرسيدس التي يحرس مكانها حين تغيب، ويحتفي بها حين تحضر. وكم كان يسره ويفرّج عنه أن يرى أحيانا حارسا أحرق قبالة في وسط شارع مولاي يوسف ينظم حركة السير بصفارته، أو لما يشاهد بعض أصحاب السيارات الأشداء يخلصون بأيديهم عجلاتهم المعرّقة بأداة الصابو لشركة العدادات ويرمونه على قارعة الرصيف أو في قمامة!

أما في وكالة وين وين: الموظفات الثلاث صرن في غياب المديرية يعبرن عن رغبتهن في رؤية الحارس الشاب والاستمتاع بخفة روحه وطرافة كلامه، ويطلقن ضحكات ما إن يتناوبن في التذكير بأقواله المستملحة أو المغناة. فجأة ها هو يظهر على عتبة الباب حاملا باقة ورد أنيقة وافرة، سارع

إلى وضعها بين يديّ عفاف، طالبا منها تسليمها إلى الست
المديرة، هدية من رجل لم يقل من هو. اقتربت منه نعمي
ونعيمة فرحتين مرحبتين. سألته الأولى عن اسمه وحالته
المدنية، والثانية عن عمله من قبل، فيما عفاف، متمسكة
بالباقة، تلتزم الحياد، وبويا عمر على كرسيه في حاله سهو عما
يجري حوله.

أجاب المسؤول، مصطنعا الحزم والجدية، أن اسمه في
الحالة المدنية الزايد أمحزون، ويلقبه من يعرفونه زيد أفرحون
لما يصدر عنه من كلمات ونكت تعجبهم؛ أعزب في السادسة
والعشرين؛ يعيش مع أمه العجوز في بيت صفيحي وسبق
له أن عمل حارس غابة تمارة لمدة شهرين لا أكثر. قاطعته
نعيمة سائلة:

- وعلاش تركت الغابة اللي فيها الأشجار والهوا والهنا
والطيور اللي تزقزق؟ العمل فيها نزهة!

- اسمعي يا بنت الناس: الحاضي هو الله. واقفة أو مايلة،
عمر كسمعت بشجرة طارت أو هربت؟ هذي الخدمة ما توافق
طبعي. أنا عزيزة عليّ الحركة ومخالطة الناس، هذا جاي هذا
رايح أو قاعد؛ هذا عاقل داخل سوق راسو وآخر احمق أو
بهلول يحدث نفسو بصوت مسموع؛ هذي بنت الحجاب أو
بنت الميني-جيب؛ هذي امرا رزينة واخرى تتمايح وما بقى
لها غير ترقص على واحدة ونص... المدينة هي كل شيء

عندي. السيارات والمقاهي والشوارع والساحات والجوامع والأذان والمظاهرات... الإنسان مع ياجوج وماجوج ينسى همومو ويفرّج على نفسه... بركة أو نزيديك؟ أسماك الله؟

- أنا نعيمة وهذي نعي، والواقفة خلفنا هي عفاف،
الرايسة بالنيابة، مات رجلها من زمان؛ وأنا وصاحبتني ننتظر
فارس الأحلام... شوف أفرحون، ادعولي ولهذي المتعوسة
يجيب لنا الله هذا الفارس قبل ما نظفّر الشيب ويفوتنا الوقت
وندخل سن اليأس ونبقى لا ديدي ولا حبّ الملوك...

تردد زيد وقال:

- أبدا داود ما يعود... مرة طلبت مني عزبا بحالك ادعوا لها
بالزواج، وجاب لها الله التيسير. ومن بعد شهر العسل جات
عندي في هذ الزنقة بيت لحم تعيرني وتسبني من حيث فارس
الأحلام (قالت) طلع لها فارس الكوشمار... ألاله ما أدعو
لك ولا لصاحبتك ولا حتى لنفسني. الزواج صعب في هذا
الزمان، وما أبغي تبغني ذنوب احد.

سألته نعي:

- فكرتني... وهذي بيت لحم اللي حنا فيه، إيش معناه
يا القاري؟ نعيمه تسميه *La maison de la viande* الله
يبقي السترا!

- بيت لحم، ربّي ينجيك من الجهل، هو اسم مدينة في فلسطين، ولد فيها النبي عيسى بن مريم منذ ٢٠١٣ سنة، التاريخ اللي حتى هو اصبحتنا نؤرخ به؛ وهذا كل ما أعلم.

دعت نعمى الشاب وألحت عليه طالبة:

- قرّب للكونتوار... هذي المرة لا دُعا ولا زواج ولا سؤال. لكن احك لنا شي نكت تفرّج علينا بها...

أجاب همسا:

- واش قالوا لك أنا الفدّ أو عبد الرؤوف!... يا الله واحدة فقط، ومرة أخرى بالفلوس... لكن راها مالحة...

- ما تعجبنا غير المالحات. توكل على الله...

اقترب زيد من آذان الثلاثي وبث فيها نكته، فضج المكتب بقهقهات طليقة منتشية، ساهمت فيها عفاف بشكل محتشم بعد أن تخلصت من باقة الورد. ترجمته نعمى أن يمتعن بنكته، فاستجاب مؤكدا أنها نقية والأخيرة:

- هذا عروبي دخل عند صيدلي يشتري دواء الشقيقة. سأل على علبة عَجَبَتو أش تكون. قالوا له: هذا مركوروكروم، الدوا الحمر يوقّف الجرح إذا سال ويحفظو من المكروبات. اشري منو مطرب وخطو فوق ميدة في بيت النعاس. وشي مرة ما عرف كيف يدو ضربت المَطرب حتى تكسر على لَرَض. صاح على مرتو: يا فاطمة اجرحي الأطفال أرى الدواء يتدفق.

ضحكت النسوة ملء أفواههن وصدورهن، وغنى زيد قاصدا الباب: أيامه اغدرتني في لمان، أيامه... ثم سكت فجأة وأمرهن بالصمت رافعا رأسه يشتم كذئب ملء خيشوميه من جهة نافذة الباب المفتوحة، قال منبها:

- هذا نسيم الرايسة الفواح... ها هي طالعة الدرج ثابتة ورزينة... زينها يدوخي، وأنا إنسان مسكين، ما عندي له جهد ولا حيلة!

سلم للعون حفنة نقود مرفقة بوصية: خذها واسكت، ثم هروا مسرعا نحو الباب في اتجاه الطابق الأعلى، تلاحقه كلمات الأنستين: كلما غابت المديرية، مرحبا بك عندنا...

أقبلت الست أسماء، سلمت على الثلاثي، ملاحظة انهما كهن في عملهن وانشراحهن وأيضا باقة الورد، فهنأتهم متمنية أن يكنّ دائما، مثل اليوم، على أحسن حال، ثم دخلت مكتبها حيث اطلعت على برنامجها الأسبوعي وبعض الملفات المستعجلة، وأجرت مكالمات هاتفية، فيما عفاف تُقبل وتجلس مستأذنة. أخبرتها بإلغاء موعد سفير السينغال وإرجاء موعد المستثمر السوري بسبب وعكة صحية ألتمت به في جامع بدر؛ لكنها في المقابل أعلنت عن اعتصام الحاج الدوغمي منذ ساعات في قاعة الانتظار، يقتات فيها ويصلي إلى أن يحظى بشرف مقابلة الست المديرية في أمر جدّ هام. ضربت أسماء يدا بيد وأذنت بإدخاله حالا. أقبل العجوز بادي

التعب والاستياء. سلّم منحنيًا قبل أن يجلس. اشتكى لها من عفاف والبتين لما أطلقن من ضحكات هزء وسخرية في حقّه، وألح في طلبه البقاء معها رأساً لرأس، فكان له ذلك. عندئذ تلقى من جليسته كلمات هدأت روعه وأراحته، ثم قال:

- أنا يا بنت الأصل والمفصل، خيرك عمري ما أنساه. ساعدتني حتى رجعت لي شقق عمارتي؛ اللي عليه واجبات الكرا لعام أو أكثر هرب؛ واللي باعوا لي مفاتيحي افرغوا لي متاعِي. بيعت العمارة كلها، ودفنت مالي في دفاتر التوفير وسهوم البورصة. ارتحت عامين، لا محاكم ولا رشاوي ولا حلاوات ولا محامين... لكن يا مولاتي، من بعد حجي مرتين مع لالة مرتي، عاودتني تيك البلية، البيع والشراء، وريح الفلوس بالفلوس واليوم قبل غدا. يقول المثل: اللي شبّ على شيء شاب عليه... بقى لي جنان من نصف هكتار في مكناس قبالة ضريح سيدي عبد الله بن أحمد، تطل عليه مقبرة سيد الشريف الوافي. وجدت اللي يساعدني حتى جعلت الجنان مقبرة خصوصية، فيها، أنت مولاة الخير، الشجر والماء والخضرة... اللي مات على بغة يحصل على قبر وثمان غالي، واللي شرّاه وهو حيّ يؤدي عليه بالتخفيض وبباهي به الخافقين من الموت وترك هذي الدنيا...

بدأت الست تضجر من كلام زائرّها، قاطعته سائلة:

- واش حبّ خاطر، ألحاج؟

- وكالتك الناجحة تتكلف بالمقبرة. وكل صفقة عندك فيها عشرين في المئة يا قوت القلوب... المرابحة هي وكالتك اللي مكتوب عليها البيع والكراء وكل المعاملات العقارية. صحيح أو لا! أنت لك تسيير هذي الصفقة من هنا، وثم عيني لك اللي يشمشم وينوب عنك ويجيب لك ولي الغنايم والهموز اللي هي كلها رزق حلال...

قالت المديرية، وهي تخفي تدمرها:

- شوف الحاج، بدّل الساعة هذي بساعة اخرى. خليني افكر في هذا لا فير، وإذا بانّت لي فيها فائدة أنا انا دي عليك... قل لي: أنت اللي اهديت لي الورد؟

أجاب متلعثما:

- يمكن أكون أنا! وعلاش لا؟ لو قدرت جبت لك ورد من الجنة...

استقدمت الست نائبتها عفاف وأوصتها بمرافقة الحاج إلى الباب، فقام الرجل وانصرف متثاقلا يلهث بكلمات:

- أنا ما قلت يا بنت الناس غير الصواب... اللهم معك ولا مع وكالة اخرى. ما عدا إذا رفضت وما ندمت... الله يهنيك هذي الساعة... تفشت الأمراض والأموات كثروا... كلنا لها... واللي فكر في الموت وكان من العقلاء، فاز بقبرو وهو حي، وكلما زارو قال لمن معه: هذا قبري وحصتي من التراب... وإنا لله وإنا إليه راجعون...

ما إن قفلت النائبة راجعة حتى سمعت من رئيستها موضوع زيارة الحاج الدوغمي، فانفجرتا ضحكا، ولحقت بهما الكاتبتان مستسمحتين، وشاركتاهما ضحكهما، واحدة تنوه بروح الحارس أفرحون المرحلة، والأخرى تقرر أن نكته ومستملحاته وكل كلامه ممتع يجلب للقلب البهجة والسرور، ويقوي الإقبال على العمل بصدر منشرح ورأس بلا هموم. بلهجة حادة أوضحت عفاف أن الموضوع لا علاقة له بالحارس، وأمرت الأنستين بالعودة إلى عملهما، إلا أن الست المديرية ارتأت أن الأمر يحتاج إلى جلسة استثنائية فدعت الثلاثي إليها. وقتها استأذن بويا عمر في الدخول وتقديم شهادته، قال بعد أداء التحية العسكرية:

- ألاله المديرية، خيرك عليّ كثير! أنت اللي شغلتنني هنا بعدما طردوني من شركة التأمين اللي عملت فيها. لهذا السبب واجب عليّ أقول لك اللي يحصل في الوكالة... هذا العساس زيد بغى يرشيني بهذا العشرين درهم حتى اسكت عليه وعلى الحلقة اللي يديرها في الوكالة. هو اللي اعطى مشموم الورد وصار في غيبتيك يحكي لهذا النسوان النكت، وكل واحدة تضحك لو حتى تظهر اضراسها ويغيب عقلها... ولالة عفاف النايبة راها حتى هي تشارك في الحلقة... هذا كلامي والشهادة لله كلمتي حقا كلمة. راه جدي حارب في فيتنام، وبويا في الحرب الكبيرة، وأنا قاومت في بلادي الفرنسيين حتى اعطوني.

انسحب العون مؤديا تحيته العسكرية فيما المديرة تبدي
استغرابها واستياءها:

- هاي هاي هاي! هذا الشيء كله واقع وأنا في دار
الغفلة... أش تقولي يا نايتي المحترمة؟

بلهجة متلطفة متوددة، أجابت المسؤولة:

- الست أسماء... هذي أول مرة يحصل فيها اللي حصل...
الشاب أفرحون ما هجم علينا ولا جاء عندنا من دون سبب.
شخص سخرو وسلم باقة الورد لك هدية.

- أش يكون هذا الشخص؟ ترك في الهدية شي بطاقة؟

- لا، وحتى المرسول ما احب يقول شي على صاحبها...

- والضحك والقهقهة في محل العمل؟

- كلامه كله هو السبب، وطريقته وحركاته!

- مولاتي المديرة (قالت نعمى محتشمة) لونها نكتة
حكاها لنا لضحك...

- اسكتي الله يمسحك...

هبت نعيمة لنجدة صاحبها فقالت بصوت رزين:

- اسمحي لي ستي المديرة بكلمة واحدة... في مجلة جادة
قرأت مقالة تظهر فوائد الضحك الكثيرة، منها: يزيل التوتر
ويشجع على العمل ويزيد في الإنتاجية...

قاطعتها أسماء واقفة، معلنةً نهاية الجلسة:

- الإنتاجية! هاي هاي! بغيت الوكالة تصبح حلقة أو تياترو! يا الله، كل واحدة ترجع لشغلها... أنت نعيمة يا خفيفة الرجل، غدا تحايلي على الحارس هذا وأتي به عندي... وانت عفاف اعطيني الباقية الآن... ومن بعد شوية سيري لدارك، وحتى واحد ما يبقى هنا...

ما إن خلت الست إلى نفسها حتى أخذت تشم أريج الباقية وردة تلو أخرى وتفتش داخلها عن بطاقة أو ورقة عليها أثر مكتوب، لكن لا شيء من هذا. تناولت الباقية كلها وضمتها إلى صدرها تحنو عليها وتقبلها، مسترجعة شريط الشاب حول قبر أختها، مرسلّة دمعا قاهرا لم تقدر على حبسه أو حتى تهوينه... وقتئذ رنّ هاتفها. سمعت صوت الحاج مروان النصري، وليّ نعمتها، يحييها ويستسمحها في إرجاء موعد الليلة إلى أجل قريب. همهمت بالقبول ثم تكومت في أريكتها حزينة متأملة.

خلف سارية، والليل يرخي سدوله، ظل زيد يحرس المرسيدس بعينين يقظتين مستفرتين، حتى إذا رأى صاحبتهما تركبها وتنطلق، غادر مخبأه وقصد كعاداته كل مساء مسجد السنة المطل بصومعته على شارع محمد الخامس وما جاوره، فيتطهر في دورة الماء من أدران نهاره، يتوضأ من نافورة الصحن، يصلي الظهر والعصر والمغرب تباعا والعشاء

مع الجماعة؛ عذره في ذلك كدّه في تحصيل رزقه اليومي
الضروري واعتماده على رحمة الله وغفرانه. وبعدها يقضي
لحظات متحدثاً مع من يعرفهم، أو منزوياً في ركن ناظراً في
حاله، مفكراً بعينين مغمضتين في السيدة المديرة ذات الهمة
العالية والجمال الباهر.

أسماء في بيت عفاف، بُعيد حلول الليل، أخبرتها مضيفتها أن المهمة التي كلفتها بها لدى الحاج المختار باتت صعبة، بسبب ما يسميه الرجل تجسس ابن السيدة عليه في الحي والمسجد وكل تنقلاته؛ أبلغتها مخاوفه من انفصاح السر مخلفا عواقب قد لا يحمد عقباها.

رنّ هاتف عفاف، تناهت إلى سمعها كلمات مبعثرة بصوت المختار يعتذر عن المجيء إلى الموعد لسبب قاهر. أبلغت صديقتها الخبر ونصحتها بنسيان الموضوع إلى أن يتضح الأمر وينقشع الغيم. هيأت لها وجبة عشاء خفيفة ثم أسمعته قرصا من موسيقى الآلة المحببة لديها. حدثتها في مواضيع طريفة متنوعة لصرف فكرها عما يقلقها من الوقائع والطوارئ. حين انتهاء العشاء سلّمتها أسماء ظرفا مختوما لدسه غدا في قفة المختار ساعة وقوفه أمام بائع الخضر والفواكه أو الجزار بدور الجامع، وأوصتها أن تتلثم. أجابت صاحبة المساعي الحميدة بالسمع والطاعة وشيعتها بوّد وحرارة إلى باب الخروج واعدة إياها بالدعاء لها أثناء صلواتها.

* * *

عودا إلى دارها، سمعت الست صوت زوجها المنبعث من
غرفته أينما لاهثا مسترسلا. قصده على التو وجلست قبالة
محاولة التخفيف عنه ومواساته. عرضت عليه خدماتها، منها
استقدام طبيب عاجلا. قابلها كعادته بصدود جاف، وطالبها
بشيء واحد لا ثاني له: أن تتركه وشأنه وتغرب حالا عن
وجهه. ارتأت أن لا فائدة في اللج والإلحاح، فوقفت ودلفت
إلى ابنها في غرفته. ألفته منكبا على كتبه ودفاتره. أرادت
تقبيله والحديث معه فامتنع. ترجته أن يقبل منها مساعدة مالية
لقضاء حاجياته الدراسية والخاصة، فرفض قطعيا ما سماه
فلوس الحرام...

اليأس اليأس!

رأب الصدع بين الابن وأمه بات من رابع المستحيلات،
بل حتى رتق صلة التواصل بينهما وإعادة شيء من الدفء إلى
علاقتهما!

صعدت الست إلى بيتها، استلقت على فراشها باكية متألمة
من نفور ابن كأنها لم تحبل به وتلد، ومن وضعها المضطرب
الشاذ: لا متزوجة ولا مطلقة بل معلقة. وظلت على حالها
وقتا، ثم قامت تتلهى بالاستحمام وعمليات النظافة استعدادا
لنوم قد يأتي أو لا يأتي. وهذه المرة، استغرقها في سماع قطع
من موسيقى لينة ناعمة أسعفتها في نيل قسط من النوم، ولو في
الهزيع الثاني من الليل.

في الصباح، سعت إلى مغادرة الدار على رؤوس أصابعها،
وفيما هي تجوز السطوان، سمعت صوت الحاج المختار يتلو
آيات قرآنية في غرفة الزوج العليل.

حين ركبت سيارتها في مرأب محروس، انتبهت إلى أن
اليوم جمعة، فقصدت توا مقبرة الشهداء، كأنما قوة جاذبة
تقودها إليها. وهنا وقفت مدة على قبر أختها، صامته منتظرة،
مخفية انفعالها خلف نظارة شمسية سوداء. لم يُجدها كثر
التفاتها من حولها في العثور على ضالتها المنشودة؛ ثم
ها هم قراء يتهافتون عليها في مدار القبر ويطلقون العنان
لتلاوة الآيات ثم من بعد لعقائهم المرفوعة بالأدعية. خطر
لها أن تسكتهم وتسألهم عن شاب وسيم المحيا وضّاحه،
أنيق المظهر والملبس، مهيب الجانب، بليغ اللسان، حلّو
الكلام... لكنها عوض ذلك ناولت أحدهم ورقة نقدية
وأوصته بفكها وتوزيعها على صحبه. شكرها المتسلم وسألها
عن أخبار قريبها الذي رأوه معها منذ مدة، وأمتعهم بتجويده
الرائع الجميل وجوده الحاتمي، سألها وأعناق رفاقه تشرّيب
إليها وأذانهم صاغية تترقب منها الجواب. قابلتهم بابتسامة
عريضة لعلهم يستبشرون بها خيرا، ثم هرعت إلى الخارج
لتنفرد بنفسها باكية في سيارتها وتَهَب إلى ناديها لنيل حصتها
من الرياضة وإراحة البال. ولا أنفع لذلك من القفز والغطس
في الماء!

كان المسيح، كعادته غالبا في منتصف الصباح، خاليا إلا من عجوز متشبثة بعوامة، تمارس السباحة الثابتة وتحادث كائنا مجردا غير مرئي. فما أشبهها بطفلة تجرب الماء وتراوده! الغطس مع قطع التنفس ما استطاعت كان وسيلة أسماء لمحاكاة سمكة في بوقال، لا ذاكرة لها ولا في شيء حاضر أو مقبل تفكر. تلطم الماء وتخبط عليه بعنف دحضا للهواجس والوساوس وطردا، والماء يرد الصاعات ملامسات دافئة ناعمة لطيفة. وحين أخرجت رأسها للتنفس قليلا، سمعت العجوز تولول وتستغيث بمن ينقذ امرأة تغرق. صاح المدرب من مرقبه بكلمات تهدئة وطمأنة لم تفلح في إخراسها.

اقتربت الغاطسة من المستغيثة وبرزت لها كجنية البحر لتوقنها أنها حية تتنفس، شاكرة لها خوفها عليها، والعجوز تعاتبها وتنهاها: الله يا بنتي! أنا مريضة بالقلب، وكان قلبي شوية ويسكت... الما ما معه مزاح ولا فيه ثقة... عومي بالكياسة، بلا غطس ولا زعامة...

لكن مجنونة الماء لم تأبه لكلام الواعظة، فأجرت قفزات في المسيح متبوعة بغطسات أطول وأعمق، وتوجتها بعوم طولا وعرضا، حتى إذا استوفت حصتها خرجت، فلم تر للعجوز أثرا. قصدت الدوش وبعده المخدع حيث جففت جسمها وارتدت لباسها وأجرت مكالمات وردت على أخرى، ثم تهيؤا للحاق بعملها قضت وقتا في صالون الحلاقة

سمعت خلاله المجماليات يتحادثن عن عجوز نقلتها منذ قليل
سيارة إسعاف من النادي، مصابةً بسكة قلبية، وروت إحداهن
عن المدرب أن سباحة قد تكون بنحو لا إرادي قد تسببت في
وفاتها. استعجلت أسماء خروجها غير عابئة بما طرق أذنها،
فيما الرواية تعلق قائلة: تعددت الأسباب والموت واحد،
والأعمار بيد الله...

العمل في الوكالة على قدم وساق. وقفت الموظفات للسلام على الست المديرية التي سألتهن هل سبب نشاطهن هو وجود زيد معهن قبل مجيئها. أنكرن ذلك. وعن بويا عمر الغائب، أنبأت عفاف أنه ذهب لفتح بعض الشقق لطالبي الشراء أو الكراء. من مكتبها نادى الست على نائبتها، رتب معها أمورا إدارية وتسلمت منها سجل عقود للتوقيع وأخرى للإطلاع، وعلمت منها أنها ستنوب عنها في استقبال عدد من أصحاب العروض أو الطلبات العقارية، إلا من المستثمر السوري الذي يلح على مقابلة المديرية المحترمة على انفراد لعرض مربح جدا؛ ثم طمأنتها على تسلم الحاج المختار الأمانة في قفة تسوقه، وأبلغتها أن نعيمة لم تتوفق في إحضار الحارس إلى الوكالة.

بعد خروج النائبة، اهتمت الست بالسجلين وأجرت مكالمات هاتفية وتلقت أخرى، أطولها كانت مع محامي الوكالة الذي بشرها بنجاحه في تنفيذ حكم إفراغ شقتين، وصارحها أن الحكم نفسه في شأن فيلا بحي حسان وثانية بحي الليمون سيتطلب بعض الوقت ومصاريف إضافية...

استأذنت عفاف في إدخال السوري، فتقدمت وخلفها الرجل بزي عصري، تفوح من جسمه البدين رائحة عطر حجازي، ويده مسبحة شامية يستعملها بطريقة لافتة للنظر. حيّا الست وجلس صامتا مطأطئ الرأس، ثم نطق بكلمة: تمنيت المقابلة على انفراد. فما إن انسحبت عفاف حتى أخذ الرجل - من باب تقديم نفسه - يكور جملا متتالية مفادها أنه مستثمر عقاري، بنى أحياء سكنية شتى وعمارات خدمتية وفيلات من هاي ستاندينغ في السعودية والإمارات ومصر، حتى إذا استقر به المقام في المغرب الشقيق، أبى إلا أن يسهم قدر الامكان في نهضة هذا البلد العمرانية، الذي صار مضرب الأمثال في بلدان العرب والعجم على السواء، وقبله المستثمرين الآتين تباعا حتى من الصين البعيدة. وكان الزائر سيستمر في كلامه المرسل المتدفق لو لم تقاطعه الجليسة متلطفة بسؤال وجيز: أي خدمة يا حاج؟

- والله يا ستي المديرية أصبت شم سمات الحج عليّ! منذ عقد، كل سنة أحج صحبة إحدى زوجاتي. أما العمرة، لا تسألني كم مرة. أؤدي الفريضة، أشكر الله عز وجل على ما متعني به من نعم، ثم أمارس في تلك الديار المقدسة شوية بيزنس. حج وحاجة، كما يقال...

- أي خدمة، يا حاج؟

- نعم... نرجع إلى موضوع الزيارة... أنا كل يوم تقريبا في جامع بدر أؤدي الصلوات مع الجماعة وأتعرف على

أصحاب العروض والطلبات. وحين يحصل توافق مبدئي على صفقة مع واحد أو أكثر، نكمل الجلسة في مقهى مجاور على حسابي، فندقق التفاصيل ونحدد الموعد مع الموثق، ثم نعود إلى الجامع لقراءة الفاتحة...

هذه المرة أعادت أسماء طرح سؤالها بشيء من النرفزة ونفاد الصبر، فإذا بالرجل، بعد الاعتذار، يلقي عليها عرضه الذي توقعته واشتمت رائحته الكريهة من لف العارض ودورانه، وعرفت أمثاله في سالف الأيام.

- هناك عائلات محترمة يا ستي تفضل الشقق المفروشة على الفنادق ذات الإكراهات والأسعار المرتفعة. أملك في القاهرة عمارة من هذا الصنف بشارع الزمالك. الإقبال عليها كبير ومربح. بدا لي تكون على شاكلة هذي العمارة واحدة أملكها في طنجة وأخرى في الرباط بشارع فال ولد عمير...

قاطعت أسماء وهي تقف إشارة إلى إنهاء الجلسة:

- وترغب يا حاج أن تسير وكالتي شققك المفروشة؟

- هو بالذات، هداك الله، موضوع الزيارة...

- وكالتي لا اختصاص لها في هذا النوع من المعاملات، ولا تقبل بها أصلا... تفضل يا حاج...

قصد الرجل الباب متاقلا، وقد انقبض وجهه وترمد، قال متلعثما:

- إذا غيرتِ رأيك يا ستي، بطاقتي عند الست عفاف...
فكري جيدا، وإلا الوكالات كثيرة، ولا واحدة تضيع هذي
الهمزة، كما تقولون. تركتك بخير...

استأذنت عفاف في الدخول. جلست ونظراتها تستفسر.

- حتى هذا يا لالة طلبني نسيّر لو شقق مفروشة! من الآن
وبعدين ما تاخدي مواعيد الزيارات من غير مواضيعها...
غربلي وعينك ميزانك... سمعة الوكالة هي راس مالها...

- والله شملت في الرجل رائحة كروش الحرام... لكن
اطمئني من هذي الجهة... الحاج المختار كلمني في الموبايل
وقال لي: زوجك في حاجة إلى ممرض يعتني به بالليل.

- فيه أمور أخرى؟

- مرافقة السفير البوركيناابي حررتك منها... قلت لو
السيدة المديرة في مهمة بالخارج وأنا أقوم مقامها. زار معي
فيلا أولى ما اعجبته، والثانية طرب لها وما بقي لو غير شوية
ويرقص، لكن طلب الثمن ينقص بالنصف ثم، بعدما رفضت،
بالثلث باسم الأخوة المغربية-البوركيناابية. تشاورت مع
المالك في الهاتف. قدمت الطالب وسميت بلاده اللي يمثلها
كسفير في المغرب، فأنكر معرفتو ببلاد تحمل إسم بوركينا
فالصو، وزعق في أذني: يمشي هذا السفير يفتش على إقامة
في حيّ شعبي... وأقلل الخط.

ابتسمت أسماء، ضربت يدا بيد وعلقت: العنصرية وما
تدير! المالك أعرفه. حتى بسهم الكراء المطلوب ما كان يقول
لنا غير لا... فيه شيء آخر؟

- نعيمة تغير حالها. تغيت مرتين، ومرات تخرج قبل
الوقت. عذرها إما العادة الشهرية أو مشاكل عائلية... أما
المنظفة فعملها لا بأس...

- شوفي، نعيمة اصبري عليها. مش هذا وقت بدّل غير،
قولي الله يكون في عون الجميع... إيه، السفير الهنغاري
حددي لي الموعد معو في السفارة، غدا وسط النهار... وكيف
حال الجيران؟

- كل واحد ودأره، يسدها عليه. الاحترام والتوقير. في
الدرج ما نشارك غير صباح الخير ومساء الخير وشوية كلام عن
حارس العمارة الأعزب اللي بات وما اصبح وخلفو حارس
العمارة المجاورة، يقوم بتنظيف العمارتين... أما صراخ الزوجة
في الطابق الرابع اللي يضربها رجلها، الجميع تعود عليه...
- سيرى الآن قابلي شغلك، أراني عما قريب رايحه لموعد
مع صديقات...

- لكن إذا مرة اخرى جاء زيد بباقة ورد، أش أعمل؟

- اضربيه بها أو وكلّيه إله... يا الله سيرى.

أومأت عفاف بالامتنال للأمرين لكن، وهي على عتبة
الباب، سمعت أمرتها تقول: لا... خوذني منو الباقة وخطّتها
هنا على الطاولة.

في زنقة بيت لحم، بعد أن تأكد زيد من غياب المرسيدس وصاحبتها، استرعى نظره لأول مرة في زنقة مقابلة وقوف فتاة على مرقاة، تنظف بالماء الراغي واجهة زجاجية لمتجر البسة نسائية. رَقَّ قلبه لحالها وأشفق، فتقدم نحوها هرولةً، سيما وقد رأى شاباً يتحرش بها، فطرده بتهديدات جدية، ثم عرض عليها المساعدة، وهو يغالب تعلق عينيه بأطرافها الحميمة. ترددت لحظة ثم نزلت وسلمت له أدوات التنظيف. وبينما هو يكد في الغسل والتنشيف برزت له ربة المتجر، زحزحت المرقاة حتى كاد يسقط أرضاً، سبَّته وهددته باستقدام البوليس إن هو عاود التحرش بالبنات ولم يغبر. وقبل أن يهرول فاراً تلفظ بكلمات مرتبكة وجيزة: أنا نيتي صافية. ما بغيت غير فعل الخير...

سرياً أمحزون وادخل سوق راسك، وإلا تجيها في عظامك: بهذا خاطب صاحب النية الصافية نفسه ووعداها بالتعقل والحيلة والحذر.

حين عاد إلى قطاعه وجد في انتظاره عروب صديقه القديم. تعانقا بحرارة، تبادلوا بعض أخبارهما وكرر الوافد عتابه لصاحبه على لزوقة بزنقة وصرف يومه في جمع

دريهمات يسلمها من أراد كصدقة لا مقابل خدمة. نصحه أن يحذو حذوه ويطلب البركة من الحركة. كل شهر أو أكثر هو في شغل، سواء تيسر في الرباط أو الدار البيضاء وأي مدينة أخرى. الأشغال الصغرى المدرة للرزق عنده كثيرة، متنوعة: مساعد بائع الغروس والورد، حارس غابة، زبال، بائع متجول للخضر والفواكه، متاجر في البضائع المهربة والأقراص المقرصنة، مساعد الكوريلات على أبواب الملاهي الليلية... لو أن زيد أطلع صديقه على سر تعلقه بعمله في زنقة بيت لحم، أي المرسيدس وفوقها وبعدها بمولاتها ومولاته، لضحك عليه جهارا واتهمه بالصيانية والسخف وقلة العقل.

لم يبق لخروج الموظفين سوى ساعة. دعا عروب زيد إلى التجول في الشوارع والجلوس في مقهى للتفريح عن النفس. استمهل المدعو قليلا حتى يأخذ من أصحاب السيارات التي غسلها تعويضات عن عمله، وقدرها في أربعين درهم أو أقل. ناوله عروب مئة درهم عوضا عنها وقال آمرا: يا الله بنا. تحرك وافتح عينيك على الدنيا وناسها.

أمام حديقة حسان العمومية، استوقفت شابة الصديقين، مدّت إلى فيهما آلة تسجيل سائلة: ممكن آخذ من وقتكم شوية؟

أجاب عروب: [مصطنعا اللهجة المصرية]: شوية! لا خذيه كلو يا ممزِيل.

الشابة: متشكرة أوي... هي بس أسئلة صغيرة عايزة
أطرحها على حضرتكم واسجل الإجابات... أنا صحافية
أعمل مراسلة لمجلة أم الدنيا القاهرية. المجلة ذي كلفتني
بإجراء استطلاع ميداني عن شباب المغرب الحبيب.

عروب: يا أهلا بحضرتك في وطنك الثاني.

الصحافية: تسلم لشبابك.

عروب: وانتِ كمان.

الصحافية: مرسى... طب في البداية: الاسم والسن
والعمل والحالة المدنية؟ تسمح أسجل؟

عروب: الساحلي عروب، ثلاثين سنة، أعزب، حر.
العمل؟ [مغنيا فريد الأطرش] خليها على الله.

زيد: [متابعا] على الله.

عروب: ومشيا ويا الله..

زيد: أُو يا الله...

الصحافية: السؤال الأولاني... حضرتك بتطول لحيتك ليه؟

عروب: (مترددا ومداعبا لحيته بيده) أقول لك إيه؟ اللي
أشوفو هو التقشف وشدّ الحزام...

الصحافية: لو حضرتك توضح كلامك!

عروب: اللحية توفر عليّ كُلفة الحلاقة من معجون
وجيليت وأفثير شيف. لكن والله راها نقية على طول بفضل

الماء والصابون البلدي أو الرومي، وصاحبي هذا عندو بس مشروع لحية (يمرر يده عليها)، لكن حتكبر وتفيض والأسباب هي هي...

الصحافية: السؤال الثاني... الزواج عندكم وكمآن عندنا يمر بأزمة؟ يا ترى أسبابها في تقديركم هي إيه؟

عروب: الأسباب هي هي: ضعف الدخل، أزمة السكن، بطالة... وأيضاً الحب صار حتى هو بطل [مخاطباً صاحبه وناعتاً إياه] ما عدا هذا المزغوب اللي باغي يقفّر ها. [تبدي الفتاة سوء فهمها للجملة الأخيرة]. ما عlish... فيه سؤال آخر؟

الصحافية: إي طبعاً. صحيح فيه عزوف عن الأحزاب؟
عروب: الأحزاب! قصتهم طويلة. إنما وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون، صدق الله العظيم، وانا الشباب مش فرحين...

الصحافية: يعني عندكم فيه عزوف عن السياسة؟
عروب: [سائلاً صاحبه] واش انا عازفين على السياسة أو زاعفين؟ [يدير وجهه نحو الفتاة] سوري... جازي فيه العزوف اللي حضرتك تسألني عنو، لكن فيه عزوف أخطر من ذا...
الصحافية: ويكون إيه؟

عروب: عزوف السياسة عن الشباب.

الصحافية: ياريت لو تشرح مقولتك ذي... وصاحبك ذا ساكت ليه؟

عروب: زيد وأنا في الهم سوا... إنما كلامي لحضرتك لحد الوقت كلو مجرد رؤوس أقلام. ما نخش كلنا على الحديقة وأقول لك فيها كل الحقيقة.

الصحافية: متأسفة... مش ممكن.

عروب: مش ممكن ليه؟

الصحافية [بلهجة مغربية]: إيوا بعد ولا نعيّط للبوليس ياخذوك للبنيقة... الحديقة، الحقيقة! سر الله يعطيك اللقوة... وقبل ما يجي البوليس، الشاب القوي على الرصيف قدامنا هو زوجي بالشرع والكاغد. تحب اناديه يريّيك هو واصحابو؟

عروب: [دافعا أمامه صاحبه]: مروكيا بنت البلاد! سر سر قبل ما تنتفنا... ما عدا إذا بغيت أخلي دار بوها هي وجماعتها؟ [يتعدان قليلا] كل هذا الوقت وأنا اطبخ حليبي على الخوا الخاوي! على والو!... أعزب، حر، حتى هذ الكذبة ما نفعت! لو سمعتني المسكينة مرتي، محال تسامحني!

زيد: [وقد انتابته نوبة ضحك حادة]: انريخ اوسكبيخ... الحقيقة في الحديقة أو في البنيقة. [تنتقل عدوى الضحك إلى صديقه].

عروب: ما لك مع الصحافية صرطت لسانك؟

زيد: أخويا زينها سكّتني، وأنتَ تعرف قلبي رهيف ودغيا
ارّبي الكبده...

عروب: ابق هكذا حتى تمرض بالقلب أو بالكبد... إيه!
إذا كنت باغي تبرد جنونك، راه صاحب الكريسّه المعلومه
ترّفه واشرى سيارة نقل هوندا. في النهار ينقل السلعة، وفي
الليل تلقاه في نفس الغاره، ياخذك ويروح بك على جنب
البحر في غاره أخرى تسمى اليبزودروم... هانا بلّغت. لكن
خذ لك العازل الواقى وإلا تخرج على راسك... ودابا سربنا
من عند المصرية المزورة إلى المطعم اللبناني. الشوارمة على
حسابي هذي الليلة، ومن بعد أنا طالع لطنجة...

صَحَّ خبر عروب!

قَبِيلٌ مُتَتَصِفُ اللَّيْلِ، أَدَّى زَيْدٌ لَصَاحِبِ سَيَّارَةِ النُّقْلِ
ضِعْفَ ثَمَنِ أَيَّامِ «الْكْرِيسَةِ» يَشْمَلُ وَاقِيَا وَاحِدًا. كَمَا الْعَادَةُ،
وَجْهُ الْمَوْسِ مَغْطًى بِمَنْدِيلٍ وَظِلْمَةُ اللَّيْلِ. تَخَيَّلِ الْمَضَاجِعُ
وَجْهَ فَاتِنَتِ السَّتِّ الْمَدِيرَةِ ثُمَّ غَيَّبَهُ بِالْإِعْتِذَارِ وَالِاسْتِغْفَارِ، ثُمَّ
نَزَلَ بِتَصَوُّرِهِ إِلَى وَجْهِ مَنْظِفَةٍ وَاجْهَةِ الْمَتَجَرِّ، ثُمَّ عَرَجَ عَلَى
جِسْمِ الصَّحَافِيَّةِ، فَأَمْنَى تَوَاءً، مَقْصُرًا رَغْمًا عَنْهُ مَدَّةَ مَتَعَتِهِ؛ أَرَادَ
الِاسْتِثْنَاءَ، تَحْفَظُهُ رَائِحَةُ الْبَحْرِ وَرَقَةُ الْجَوْ وَأَنْسَامُهُ، لَكِنْ
الْمَرْأَةُ أَزَاحَتْ عَنْهَا مَشْتَكِيَةً لِقَوَادِمِهَا، فَأَمَرَهَا بِالِاسْتِجَابَةِ هَذِهِ
الْمَرَّةَ لَزَبُونٍ قَدِيمٍ وَفِيٍّ، يُؤَدِّي السَّلَفَ فِي وَقْتِهِ وَالْمَتَأَخِّرَاتِ.
انْصَاعَتِ الْمَأْمُورَةُ عَلَى مَضْضٍ، وَتَلَهَتْ بِقَضْمِ فَاكْهَةٍ أَوْ مَا
شَابَهُ وَثَقُلَ فَضْلَاتُهَا وَسَبَّ حَرْفَتُهَا وَالرِّجَالُ أَجْمَعِينَ.

حِينَ عَادَ زَيْدٌ إِلَى بَيْتِهِ، يَخَامِرُهُ شَيْءٌ مِنَ الْإِنْتِشَاءِ وَكَثِيرٌ
مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالْخِزْيِ، وَجَدَ أُمَّهُ فِي إِنْتِظَارِهِ، قَلْقَةً لَمْ يَغْمُضْ
لَهَا جَفْنَ. بِشَقِّ الْأَنْفَسِ هَذَا رَوَعَهَا وَأَمْنَهَا مِنْ خَوْفِهَا عَلَيْهِ مِنْ
أَوْلَادِ الْحَرَامِ وَالزَّنَى؛ ثُمَّ بَعْدَ أَنْ قَاسَمَهَا بَعْضَ الطَّعَامِ قَامَ
لِإِزَالَةِ الْجَنَابَةِ وَالتَّوَضُّؤِ وَأَدَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنْ صَلَوَاتٍ.

احتمال زواجه لم يعد يفكر فيه، وأمه يئست من حثها عليه. الزواج، كما كان يجيبها بصيغ متنوعة، مفادها أنه كلمة خفيفة النطق، ثقيلة الوزن، خصوصا في هذا الزمان الفاسد الصعب. الزوجة الحلال أمانة في العنق لا يقوم بها إلا من له القدرة والاستطاعة. أما أن يتعسف عليها ويرهقها بالولادة وقصر اليد وضعف الدخل فلا وألف لا. وريثما تنجلي بواذر الشرط وتتأكد، فلا بديل عن تكوير الأيام كما شاء لها الوقت، وذردرة ملح التوهّمات وأحلام اليقظة عليها، اتقاءً لغلبة اليأس أو الخبل وزهق العقل.



لما أصبح زيد في زنقة عمله، ناداه هاتف ذو رقم مقنع أن يحضر في بهو محطة القطار القريبة منه. استجاب فوراً فإذا به أمام الشاب مُهدي باقة الورد. تسلّم منه أخرى مع مئة درهم وبطاقات تعبئة هاتفه. جدد وعد الكتمان الذي قطعه على نفسه في المرة السابقة، ثم عاد إلى زنقته وصعد إلى الوكالة حيث وضع الباقة على المبسط وولّى مدبراً وهو يلهج بكلمة: ما على رسول الورد إلا الإيصال...

كلمة أعادتها عفاف على مسمع الست المديرة ما إن حلت بمكتبها منبسطة القسمات، طليقة الوجه. أخذت تشم أريج الباقة وتنقب بنظرها داخلها. مرة أخرى لا أثر مطلقاً لهوية باعثها. أطلعت نائبتها على وسيلة قد تكون ناجعة

لفك هذا اللغز، تكمن في إحضار زيد وإغرائه بمكافأة مالية إن هو كشف عن أوصاف من تريد معرفته، وإذا رفض تطبق عليه الخطة بآء التي فضلت التكتّم عليها. أنبأتها عفاف عن المستجد في الأمر وهو، كما نقلته نعيمة، أن الحارس يقبل بالامثال أمام طالبيه شريطة أن يكون مُعَصَّب العينين وعليهما نظارة سوداء كالأعمى، حتى لا يرى جمال جليسته فلا يدوخ بنوره أو يغمي عليه. أطلقت أسماء ضحكة ملتبسة، وأمرت مستسلمة: كلني نعيمة تجيء معه والشرط مقبول... أش تواتيك يا مولاة الهموم، قالت الجلوس مع واحد مجنون...

في انتظار تنفيذ أمرها قضت الست لحظات بين انكباب على الباقية وآخر على سجل عقود ورسائل إلكترونية يتخللها تصفحها لأعداد جديدة لمجلات نسائية؛ ثم نُقِر على بابها ودخلت عفاف مستأذنة وزيد خلفها على النحو الذي اشترطه، واضعا يده على كتفها ورأسه مشرب إلى السقف، لا وجهة له سواه. أجلس على كرسي، وظل على حاله لا يبدي جزعا ولا ينطق ببنت شفة.

قالت أسماء وهي تغمز غمزات وتلوح بيديها:

- خذي يا عفاف هذي الموبيلات. جاوبي على واحد فقط واقعدي قرب الباب المغلق... مرحبا بالسي زيد... ما نطوّل في الكلام... هذا الورد من يكون صاحبه. ابغي كل المعلومات تخصّه...

- سيدتي المديرية، تحياتي واحترامي. أنا ما عندي معرفة باللي بيعثنى بالورد. حلقني على مصحف مصغر ما اعطي وصفو. وأنا مومن أخاف الله، والمومن إذا عاهد وفي...

- وسخرتك يعطيك عليها شي حلاوة؟

- سوا اعطى أو لا، الله يوسع عليه...

- وإذا اعطيتك أكثر منه، تقل لي أوصافو؟

- يستحيل عليّ انقض القسم اللي أدت...

- اعطيك باش تدير الكفارة وتطعم ستين مسكين...

- مرة اخرى ألالة غير اعذرني حتى أريح ضميري. هذي كلمتي اللي ما أخونها ولو بمال قارون.

أومأت أسماء لنائبها فرنّ الموبايل وتناولته منها: أهلا حضرة الكوميسر... مرحبا وألف مرحبا... طلبك أمر... ما يكون غير اللي يعجبك. من بعد اناديك في طلب بسيط... فهمتني... العصا لمن عصى... تشكراتي سعادة الكوميسر...

حتى هذه المكالمة الوهمية وما توحى به من تهديد لم ترعب زيد وتزحزحه عن موقفه. فظل أمام وعد المديرية ووعيدها يقول: لا أخاف إلا الله وحده، ولا تعاد غير الصلاة على النبي... إذّاك أشارت إلى عفاف بالاقتراب وبشت في أذنها الخطة باء. شمרת المأمورة على ساعديها، أوقفت

المعاند المتجاسر وقادته خارج المكتب وهو يردد: يا
حفيظ يا ستار! اللهم لطفك يارب! أوفدت العون في سخرة
وحررت المنظفة. أحضرت نعيمة ونعمى إلى قاعة الانتظار
حيث أقعدت المقبوض عليه. وبعد أن غلّقت الباب والنوافذ،
خيرته بين الكشف عن هوية مرسل الورد والتي هي أحسن
وبين أن يقول الحقيقة تحت التعنيف والضرب. فرد المحاط
بالثلاثي المعبأ المستنفر: التعذيب أهون عليّ من الحنث
ونقض قَسَم قطعته على نفسي... عندئذ صاحت عفاف: نبدأ
بالفلقة! فتعاونت النسوة على تمديده ظهرها وربط رجليه
بأحزمة ورفعهما، متناوباتٍ على جَلْدٍ أخصص قدميه بعضا
جلدا يشتد أو يخف، وهو لا يتألم ولا يصرخ، وإنما يشدو
أو يدعو ملامسا لحيته: جرحُ الأُحبةِ عندي غيرُ ذي ألم...
ربّ سامحهنّ لأنهنّ مأمورات طائعات، وسامح الأمور
الأمّرة، وأنزل عليها شأبيب عفوك ورحمتك، فلولها لكنت
رفعت شكاية إلى القضاء بتهمة الحبس التعسفي والاعتداء
الجسدي...

ما إن سمعت أسماء كلام زيد من خلف الباب حتى
اقتحمت القاعة وأمرت بفك عقاب الشاب وإطلاق سراحه
مع الاعتذار له. وكذلك كان. انتعل المسرح حذاءه، وقصد
باب الخروج مترنحا، مغنيا توشيحاً عشقياً يُسمع لحنه
وحتى كلماته:

وَقَفْتُ بِبَابِكَ يَا ذَا الْغِنَى فَقِيرًا وَأَنْتَ بِحَالِي عَلِيمٌ
فَحَاشَا وَكَلَّا يَخِيبُ الَّذِي أَتَى بَانْكَسَارٍ لِبَابِ كَرِيمٍ

صاحبة المديرية قبل أن تغلق عليها مكتبها: ملف زيد طويناه.
ما أسمع واحدة تتكلم عنو. وإذا مرة أخرى جاب الورد يرجع به.
مفهوم كلامي؟

منذ أكثر من شهر، ظل أمر المديرية ساري المفعول، لا حديث عن زيد بين الثلاثي إلا همسا، يتذكرن كلامه وهنَّ يعنَّفه، وكذلك نكته ومقاطعه الغنائية، فتبعهنَّ الذكرى على العمل الجديّ المنتج.

و ذات صباح، أتى بويا عمر يخبر أنه سمع باعتقال زيد من طرف الشرطة، وكلام بعض الناس أنه متهم بكسر عدّاد موقف السيارات وتعطيله.

هلعات، مولولات، باكيات، أبلغت عفاف والآنستان رئيستهن النبا المشووم، وترجينها أن تفعل شيئا لتحرير شاب مسكين لا يهز دجاجة على بيضها، فكيف يحطم آلة من فولاذ وحديد! ونبهت نعمى إلى أن حبسه، لا قدر الله، سيضعف نشاطهن ويضر بإنتاجية الوكالة. تقوى حماسهن الدفاعي بقدم أم المعتقل العجوز قلقة لاهثة، تسأل عن ابنها المخفي وتقسم أن ليس لها إلا هو بعد الله لرعايتها والتكفل بها.

تعاون الثلاثي على تهدئة روعها وإجلاسها في قاعة الانتظار حيث أتينها بقنينة ماء ووعدها بقرب رؤيتها له سالما معافى، لكنها ألحت على معرفة سبب تغيبه عن البيت ليلة

أمس، وهذا ما لم يفعله من قبل إلا بإخبارها، وأعلنت أنها لن تغادر مكانها حتى يأتي ولدها وتعود معه جنباً لجنب.

أقبلت أسماء، انحنت على العجوز تطمئننها وتعددها أن ابنها سيلحق بها بعيد صلاة العشاء. هتفت الأم وقد استردت أنفاسها:

- الله يشرك بالخير يا بنتي. ليلة كاملة ما كحلت بالنعاس. جيت لهذي الحومة، قالوا لي ما ينفعك غير تشوفي مع صاحبة الوكالة. وباين لي هي انت. الزين والهمة وكلامك حلو ينزل علي بحال الما الدافي... أنا ذاهبة الآن ووعدك يساوي عندي أكثر من الذهب الصافي.

همست المديرية في أذن نائبتها: حتى أمو تتكلم بالقوافي، وقالت:

- كوني هانية ألحاجة...

- حاجة! من فمك للسما. فايلي علي حتى يجيب الله التنيسير وحجة لكعبة سيدنا محمد الأمين. وشنو سميتك؟

رافقت أسماء العجوز، وهي تكشف عن اسمها وتأمر بوبيا عمر باصطحاب الحاجة في طاكسي إلى منزلها، فخرجت وهي تغدق على المحسنة إليها أدعية حارة تلو أخرى...

أمرت الرئيسة الموظفات باستئناف عملهن، ووعدتهن ببذل ما في وسعها لتحرير المعتقل. وفعلاً سارعت إلى مهاتفة ولي نعمتها الحاج النصري وأخبرته بالواقعة، طالبة منه

التدخل لصالح الحارس المسمى الزايد أمحزون البريء في اعتقادها من الجنة المنسوبة إليه. وما هي إلا ساعات حتى برز الشاب كعفريت أمام مبسط الوكالة ويده باقة ورد، فأثار دهشة النسوة وزغاريدهن وحمدن له السلامة؛ لكن عفاف نصحته بالتخلص من الباقة، فقال إنها هديته المتواضعة إلى السيدة المديرية، منقذته من تهمة ظالمة وسجن كان سيطول لولا شفاعتها الكريمة...

فجأة أقبلت أسماء، وكانت سمعت كلام الشاب، فهنأته على إطلاق سراحه. سلمها الباقة وقال، خافض الطرف: نجيتني مولاتي من وحلة، الله يحفظك وينجيك من كل شر. خيرك عمري ما انساه... ثم انحنى يقبل يدها بحرارة قبل أن يهرع إلى الباب ويذهب تاركا الجماعة في حالة تأثر ووجوم؛ الأنستان تبكيان والست الرئيسة تعود إلى مكتبها وهي تمسح دمع زيد على يدها.

صباح عودة الحارس زيد إلى عمله، كانت الست المديرية في زيارة لبعض الضيعات المعروضة للبيع في عمالة الصخيرات-تمارة. عفاف تعلم أن رئيستها ستتغيب اليوم كله، لذا أذنت للآنستين بإعداد كوكتيل احتفاءً بإطلاق سراح زيد بعد ثبوت براءته. تطوعت نعمى للتسوّق وإخبار المعنيّ بالأمر، مطمئنة إياه أن المعلّمة مسافرة. بين غيبتها ورجوعها قضى الشاب وقتاً يصوّب نظره إلى فتاة متجر الألبسة النسائية، وهي تقوم بعملها المعتاد وتلفتت خلسة إلى راقعها ومحبيها ومرسل بوسات إليها عبر الهواء مباشرة. لم يجرؤ على الاقتراب منها مخافةً أن يسقط في ورطة أخرى قد تكون هذه المرة مع مشغلتها الوعرة غير مأمونة العواقب والمجرى؛ لكنه ظل يهتمهم مع نفسه: هذه المسكينة القصيرة على قدّ يدي ودخلي، والزواج بها، والله أعلم، لعله موافق لي وأنسب... ولم يعد إلى رشده إلا بعد أن لمح نعمى تشير له بالصعود حالاً. وفعلًا دخل وأغلق بوياء عمر الباب دونه موجهًا له تحية عسكرية، مقسماً ألا يشي به هذي المرة للست المديرية، ثم أقبل عليه الثلاثي بتقبيله على الرأس والجبهة، وبسبيل من التهاني مصحوبة بزغاريد خفيفة لاجتناب فضول الجيران؛

وبعدها اقتدنه إلى طاولة عُدَّت في قاعة الانتظار وُزِنَتْ بشتى أنواع الحلويات والمشروبات. سأل مذهولاً:

- حاي حاي حاي! أش واقع؟ إياك ما واحدة تزوجت،
أو واحدة ناوية تخطبني وأنا ما عندي لها بيت ولا نفقة
ولا صداق؟

أمام إمعان النسوة في المماطلة والتغامز، نظر زيد إلى بوبا
عمر مستفسراً، لم يتلق منه سوى تحية عسكرية جادة، فإذا بهن
يتناوبن ضاحكات في الإعلان أنهن نظمن له هذا الكوكيتل
الحلال للإحتفال به وتهنئته بمناسبة سلامته من أيدي البوليس
واسترجاع حريته كاملة غير منقوصة. ودعونه لافتتاح الإقبال
على ما يحلو ويطيب وما يروي العطشان. لبَّى الدعوة طائعا
وقد تبدد شيئاً ما دهشه، وتبعه الجميع في الازدراء والشرب.
وبين الفينة والأخرى تسألُه واحدة عن اعتقاله وظروفه أو عن
معاملة البوليس له، فيجيب: الفم المليان ما يقدر على الكلام.
عقبت عفاف: قالوها اسيادنا من قبل... بلع زيد ما في فمه
وصحح ناعثاً صدره: لا، اللي قالها هو عبد ربه، إيوا خليني
أكل على خاطري الشي اللي بيني وبينه أيام وليالي. وما دام
فمي فرغ، حتى أنا عندي سؤال... لا مش دابا... بعدين...
خلوني اتمتع بهذي الزردة العصرية، سيما وأنا ما داير ريجيم.
استمر زيد في ما كان فيه، حتى إذا رفع يديه عن الطاولة
وختم بعبّ كأس عصير عن آخره، حمد الله وشكر للنسوة

دعوتهن، استعدادا للانصراف. ذكرته نعمى: وسؤالك؟ بغينا سؤالك ولقنه، الله يجيب لك شي بنت الحلال، في أشبش، خطبة ذيا لك. وهتفت مع زميلتها: أشبش! أشبش!...

عبر المدعو عن قبول طلبهن شريطة أن تكون بعربية وسطى مفهومة. احتجت عفاف على الشرط لكون مستواهن في معرفة لغة البلاد أكبر مما يتصور. فقال بعد الاعتذار ونهي العون عن أداء تحاياه العسكرية: أَيْتَمًا دَ اسْتَمَا، أزل سلام ربّي فلاون...

لاحظ الخطيب على وجوه المنصات علامات الاستغراب، فقال:

السيدة عفاف المحترمة،

الآنستان الطيبان نعمى ونعيمة،

بويا عمر الموقّر،

تحية المسك والعنبر،

وبعد، جاء في الصحيحين: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، الحديث. فإن كانت نيتكنّ من تنظيم هذا الكوكتيل الحلال الاحتفاء بي حرا طليقا بعد يومين قضيتهما في ضيافة مخفر الشرطة، فإني أجزل لَكُنَّ الشكر الصادق الحار، وأجزركنّ، بحول الله وقوته، ثابت في هذه الدار وفي الأخرى؛ أما إن كانت نيتكنّ الاستهزاء بي والضحك على ذقني...

قاطعته عفاف: لا لا، معاذ الله! وصاحت الآنستان:
حاشا حاشا!

ثم استمر: فإني إذن أؤكل أؤمركنّ إليه تعالى، يحاسبكنّ إن شاء ويعفو عنكنّ إن شاء. وهو سبحانه يعلم ما تضرمة الأنفس والصدور، ولا تخفى عليه خافية...

حلوياتكنّ أحلى من الفلقة ومن ضرباتكنّ اللينة الخفيفة، وشرابكنّ بين فمي وبطني نزل عليّ سائلا عذبا زلالا.

عن التهمة التي ألصقت بي ظلما وعدوانا، أعيد على مسامعكنّ ما رويته في مخفر الشرطة: فعلا، بداية كل صباح كنت أنطح العداد الآلي في زنقة عملي، وأركله ركلات توجع قدمي، وأدعو على ناصبيه المتسبين في إفقار حراس السيارات والسعي إلى شطبهم من الوجود. لكنّ ما بين التهديد وتنفيذه عقبة صعبة لا قدرة لي عليها ولا طاقة، والله شاهد على ما أقول ومن يعرفني في الزنقة وما جاورها...

هذا هذا ولا كلام لي أزيده... عليّ الآن بالذهاب أدبر رزقي. والسلام...

صفقت الجماعة واسعا لخطبة زيد، تفانى بويّا عمر في تحياته العسكرية، صاحت عفاف: أعباد الله، هذا الولد راه قاري؛ سألته نعيمة عن مستواه الدراسي، فأجاب: باكالوريا ناقص اثنين؛ وفجأة طالب بالصمت، بعد أن رنّ جرس الباب وتبعته رنات هواتف، فرفع أنفه مشتما الهواء ثم أعلن: لا،

مش السيدة المديرية... وعلى ذكر سيدة المقام وبهجة الأيام،
واش بقى لها نصيبها من هذا الكوكيتل الحلال، أو قولي يا
لالة عفاف راها ما تعرف خبر من أهل هذي الدار...

انقطع جرس الباب. أنهت النائبة ردودها على الهواتف.
أراد زيد الإنصراف، سلمته نعمى كيسا مليئا بما تبقى من
الحلويات والمرطبات وقالت: هذا نصيب أمك... وطمأنت
العون على نيل نصيبه؛ وفيما المنصرف على عتبة الخروج،
سألته نعيمة: شاب مثلك متعلم وقاري وتعرف معنى بيت
لحم، علاش ما وجدت لك خدمة أحسن من خدمتك؟
فأجاب منصرفا: وما حبُّ الديارِ شغلنَ قلبي / ولكن حبُّ
من سكنَ الديارا... تبعته السائلة طالبة التفسير والإيضاح، فردَّ
عليها وهو ينزل الدرج: أُرَ الحُبُّ لمكان أي يشغل لقلبنو/
أَتِ حُبِّ ولي يُسَكِنُ لمكان... قالت له: أش هذ الشرايبا؟
أجاب: نو كومت، والزيادة من راس الأحمق... أما الست
النائبة فأخذت تعلن نهاية الحفل وتأمّر بمحو آثاره والأنستين
بالانكباب على عملهن والعون بسخرتين، ثم نادى من
مكتبها على رئيستها تنبّتها بحسن الأحوال وإنهاء كشوفات
مالية وأخرى تمخضت عن إبرام عقود أو فسخها، علاوة على
ارتفاع نسبيّ في رقم أعمال الوكالة.

مددت أسماء غيبتها عن الوكالة يوما آخر. في صبيحته اصطحبت معها في سيارتها الثانوية صديقتها، مجلبتين مثلها إلى بادية الصخيرات جنوب الرباط، والغاية أن تتفاوض مع مالك خمسة هكتارات نصحتها هاتفيا الحاج النصري بشرائها لكون التوسع السكني سيطلها في مستقبل منظور. وبعد مساومة عسيرة مع المالك، وبفضل مساعدة الصديقتين وكلماتهما العسلية الإغرائية، تم الاتفاق على الثمن فالتوقيع على العقد في مكتب عدل محلف، كما يجري به الشرع في المدن الصغرى والبوادي.

أما الغاية الأخرى، فهي قضاء أوقات استراحة واستجمام - والصيف يلامس نهايته - في ضيعة صغيرة يخدمها زوجان، لهما ست بنات، تزوجت منهن الكبيرتان، وظلت الأخريات بعد فراغهن من المدرسة تساعدن الأم في البيت والمطبخ.

عند الوصول، هبت الأسرة بقضها وقضيضها لاستقبال الضيفات بالتهليل والترحاب والزغاريد. أحاطت الأم، إسمها خدوج ولقبها أم خالد، وكذلك بناتها بأسماء، يعانقنها ويقبلنها بكثير من العطف والتحنان، والأب (أبو خالد) يشملها

ورفيقتها بنظرات وديشوبها حزنٌ واكتئاب شديدان. فتحت
الضيقة صندوق سيارتها، فتعاونت الفتيات على إخراج ما فيه
من هدايا كثيرة متنوعة، وتفحصنها فرحاتٍ شاكرات، والأم لا
تفتر عن الدعاء للسيدة السخية الكريمة.

دعت أسماء راضية ونجلاء إلى بيك-نيك تحت ظل
شجرة وارفة غناء نعتتها، فسارعت المضيفة إلى فرش الظل
بالحصائر والزرابي، والبنات يتسابقن في الإتيان بالصحون
والأباريق والكؤوس والجرار المليئة بشتى أنواع المأكـل
والمشرب. تفتحت شهية الصديقات للوجبات المعروضة
من ملوي وبغريـر وقديد وسمـن وعسل وأجبان وألبان طرية
طبيعية، تشجعهنّ خدوج وإشاراتُ الزوج عن بعد، وكذلك
هبّأتُ الهواء النقيّة المنعشة؛ كما تفتحت شهيتهنّ للكلام
الصادق في مدح البوادي وعاداتها المطبخية وفنونها العريقة
في الرقص والغناء والأهازيج. صاحت راضية وهي تتنفس
الهواء ملء صدرها وتقتات وتشرب: كل شيء هنا طبيعي
وصحيّ!... وبعد الشبع والارتواء سألت الرفيقات أمّ خالد
عن وصفات إعداد هذي الأكلة وتلك، فشفت غليلهن
ثم دعتهن إلى الاسترخاء والغفوة، وكذلك كان؛ وحتى
قطيع الغنم والأبقار والحيوانات الأليفة سكن وأخذ قسطه
من القيلولة.

حين فتحت أسماء عينيها رأت صديقتها تنامان نوما هادئا لا لبس فيه. أمهلتها وقتا إضافيا أمضته في ملاعبة البنت الصغرى ودغدغتها، ثم أخذت تنحج وتغني: أفيقوا يا النعاسة، راه الليل قريب؛ ولم تحقق استيقاظهما إلا بعد أن ناوشت بالحجارة كليين فنبحا كثيرا؛ استوت راضية وهي تسأل: أين أنا؟ وتبعتها نجلاء مؤكدة أنها لم تعرف منذ مدة نوما أصفى من نومها هنا وأحلى...

أتت أم خالد وبناتها بالشاي والقهوة وحلاوي من صنعهن، فشربن واقتتن مسرعات، استعدادا للعودة إلى الرباط في ضوء بقية النهار. بادرت الأم وبناتها إلى شحن صندوق السيارة بسلل البيض والخضر والفواكه والأجبان، إلا الدجاج اعتذرت الستات عن أخذه. اختلت الضيفة بمضيفتها بعض الوقت ثم توجهت إلى الزوج بكلام، وأخيرا كان الوداع بالعناق والتقبيل، وأسماء توصي البنات بالدراسة، وهنّ والأم يترجئنها أن لا تطيل الغيبة هي واللتان معها، فيما الرجل، وقد بدا أحزن من غراب، يسلم بإشارات بطيئة من يده ويخطو متثاقلا هاشا على قطيعه. وكانت آخر كلمة هي من راضية إلى الأم: أشوف عجلين وبقرتين، فين الثور؟ أجابت المستفسرة: الثور ما فيه فايذة، إلا واحدة، من حيث نحتاجه يولّد البقرة ناخذّه من عند الجيران بالفلوس أو بلاش... فأطلقت السائلة قهقهة صاحبة، ما فتئت أن انتقلت عدواها إلى صديقتها...

أثناء العودة، كانت راضية ونجلاء في حالة حبور وافتتان، يكرران ضاحكتين جواب أم خالد « الثور ما فيه فايده، إلا واحدة! » ثم ينشدان مع اسمهان المنبعث صوتهما من قرص محبب لدى أسماء:

دَخَلتِ مَرَّةً فِي جَنِينَةٍ أَشْمَ رِيحَةِ الزَّهْوَرِ
وَمَنِّي نَفْسِي الْعَلِيلَةَ وَاسْمَعُ نَشِيدَ الطَّيُورِ...

شكرتا للقباضة على المَقْوَد هذا البيك-نيك الرائع الممتع. اقترحت راضية أن تكون حوله جلسة خاصة للكلام في بعض مظاهره وصفاته، أيدتها نجلاء واقترحت لها مطعم لا مارينا على ضفة أبي رقرق وقت العشاء، ومن دون أن يغيرن لباسهن التقليدي. وافقت أسماء قائلة: وعلاش لا؟ صوتي ما يعاكس صوتين، وفرحة اليوم لا نؤخرها لبعدين...

حول طاولة منزوية في فضاء للمدخنين ذي أضواء خفيفة وجورومانسي رقيق، جلست الصديقات، فرحات متشبات. أجرت كل واحدة مكالمات هاتفية قصد التفرغ لما يردن الحديث فيه؛ وبعد أن اخترن وجباتهن، سارعت نجلاء للتعبير عن ابتهاجها بهذا البيك-نيك العروبي المعتبر، الذي لم تعش مثيله من قبل. لكنَّ أسئلة محيرة راودتها خلاله ما زالت عالقة بذهنها وتطلب أجوبة، منها: تتلقب المرأة المضيفة أم خالد وزوجها له أيضا نفس اللقب، فمن يكون خالد هذا؟ ومنها هذا الزوج الذي لم تر رجلا أحزن منه إلا في بعض المآثم

والأتراح الصادمة المفجعة. وختمت بأنها تكتفي بهذا القدر،
وهو الهام الأهم.

مدت أسماء كفها لراضية وقالت:

- الأجوبة الشافية عند هذي العرافة الماهرة. خليها في
الأول تكمل نشوة تدخينها وشربها، وبعدها تقول لك...

تجردت المسؤولة للكلام، منبهة أنها حدثت أشياء ولا
حاجة الآن لأن تنظر في كف أو فنجان قهوة، وأوضحت:

- في بلدان مشرقية أقمت فيها مدّة زي نجلاء، يتلقب
الأزواج بأسماء ذريتهم، ومن ثم أبو كذا وأم كيت. وهذا دليل
على أنّ الأسرة اللي كنا عندها عربية الأرومة والأصل...

هتفت أسماء مصادقة:

- صح! اسم الأسرة رياح من قبائل بني هلال، هذا ما
أخبروني به من قبل.

استأنفت راضية استطلاعها:

- وخالد قد يكون الابن الأصغر، وُلد بعد سيل من الإناث
ثمرة مرجوة وقرّة عين الأب وحتى الأم.

سألت نجلاء متشوقة وقد فرغت من الأكل:

- ومن بعد يا راضية، من بعد؟

- اتركييني يا حبيبتني أقفات شوية، مثل ما فعلتِ أنت
والست أسماء اللي تعلم في القصة كل شيء...

ساد صمت بين الثلاثي، لا يمازجه سوى طنين أدوات الأكل وأصداء زبائن المطعم وموسيقى ناعمة خافتة. وبعد أن أفرغت راضية كأس نبيذها السابع، مبررة شهيتها الخمرية بكونها تشرب أيضا نصيب صديقتها المكتفيتين بالماء المعدني وعصير الفواكه. عاودت نجلاء إصرارها على سؤالها، فأشعلت المطلوبة سيجارة وطفقت تتأمل دخانها الرقيق الحلزوني الصعود. قالت:

- الصبي خالد، اللي يرجع عندي أنو مات، هو سبب حزن أبيه المفجوع. أش رأيك يا ستي أسماء؟ شوفي: أحسن لك تجاويني بنعم أو لا... الضيعة ضيعتك والزوجان في خدمتك؟

- نعم...

- هداياك لأسرة رياح شيء مقبول، لكن انفرادك بأم خالد كان لدفع مال لها؟

قاطعت نجلاء السائلة غاضبة:

- هذا استنطاق بوليسي يا راضية! باسطا، كفاية!

- لا (ردت أسماء)، خليها تكمل تاويلها...

- اسمعيني إذن وافهمي مرادي... كل واحدة منا تعرف بعض أسرار الأخرى مش كلها. وأنا حرة وأنت حرة ونجلاء مثلنا، وعلى رأي المثل: صدور الأحرار قبور الأسرار... كرمك مع أسرة رياح، جزاك الله، يشبه دفع دية. احكي الآن

عن موت الولد خالد والمتسبب فيه من دون عمد أو نية في القتل. اُحكى اللي ما يظهر في خطوط كفك... اُحكى...

كفّت أسماء عن الأكل. احمرت عيناها من حر التأثر بل دمعها، فنهت نجلاء الأمرة الملحاحة عن استفزازها وتعتتها، قالت بقصد أن تلقم فمها الحجر:

- لو خدمتِ يا راضية في مصالح البوليس السري أو المخابرات، لنجحتِ في الخدمة وسطع نجمك داخل الحدود وخارجها...

- حرام عليك يا حبييتي! على شان أسماء أسامحك وأنسى كلامك السخيف... وإذا فضلتِ الرئاسة، نقف عند هذا الحد ونغلق الملف بالمرة...

مدت أسماء كفها إلى راضية، كناية عن رغبتها في متابعة القصة إلى نهايتها، لكنها فوجئت بصاحبيتها تقول:

- لا كف ولا فنجان. العيون نوافذ النفوس. بصي في عينيّ أخبرك باللي أراه... مش أنت صاحبة الفعللة. الرجل اللي كان معك في السيارة، ويجوز يكون زوجك الأول، هو اللي دهس الطفل خالد بقوة على جانب طريق ما كان فيه وقتها ناس ولا سيارات، وتابع انطلقوا حتى لا يقع بين أيدي قبيلة الطفل أو الشرطة، فتثبت إدانتُه بالسياقة في حالة من السكر والسرعة مفرطة... ويوم قررتِ تبليغ البوليس عنو جاءك خبر

موتو في حادثة سير مروعة، فطويت الصفحة وما فيها، وحسنا فعلت... هذا كل ما في جعبتي، والله أعلم... والآن نغير الموضوع ونستحلي هذا الجو الرومانسي وهذي الموسيقى المناسبة في وجداننا بالدفء والرقّة...

في لحظات إصاخة السمع للمقاطع الموسيقية، خالج أسماء إحساس أن لراضية موهبة العرافة أو على الأقل حاسة سادسة تساعد على قوة الرؤية في الوقائع ونسج ماضيها بحاضرها والتنبؤ - ربما - بالآتي كُلاً أو بعضاً... أما راضية فكانت تتردد في الجهر بسر من شأنه لو فعلت أن يجهز على تلك الموهبة المنسوبة إليها ويقوضها تماماً، لكنها آثرت تأجيل ذلك إلى فرصة أوضح وأنسب...

رَنّ هاتف أسماء، تذرعت بسوء التقاط الصوت، هرعت إلى الخارج، كان المنادي الحاج النصري. رحبت به أيما ترحيب وأجابته متحمسة بكلمات تفيد أنها ستنتظر على أحرّ من الجمر موعد لقائهما منتصف هذي الليلة. في التو تلفنت لعفاف، أخبرتها بالأمر وترجتها أن تقوم بما عليها، ثم رجعت إلى صديقتها بوجه منشرح يشوش تخبرهما أن حالة زوجها الصحية تسوء. علقت نجلاء أن في وفاة المريض خلاصاً له ولها، وأنبأتها راضية أنها ستستقدم السائق، واستعجلتها بلهجة ملتبسة في اللحاق ببيتها حالاً لتعاین زوجها ربما يُحضر، وقد يسلم الروح قبل أن تبادله كلمات أخيرة...

كان أمام أسماء ساعتان قبل الموعد. أمضت وقتاً في
سيارتها تعيد مشاهدة الرباط ليلاً، بمآثرها البارزة المضاءة
وشوارعها وساحاتها التي يظل بعضها يحفل بدبيب الحياة
وشتى أنواع التجارات حتى الهزيع المتوسط من الليل... ولما
لم يبق للموعد سوى ساعة، قصدت الوكالة حيث سلمت
لعفاف مفتاح سيارتها وودعتها شاكرة، ثم حسنت هندامها
وجددت أمام المرأة ماكياجها وتعطرها...

ليلةً استقبال أسماء لحاميتها وولي نعمتها وعابدها بعد الله، الحاج مروان النصري، كانت كسابقاتها في ما يسميانه «عشنا العشقي»، وهو في مكتب الست عبارة عن سُقيفة محجوبة بخزانة متحركة خلف ستائر زرقاء كثيفة، لا يعلم بوجودها أحد سوى عفاف القيمة عليها حصريا. وهذا العش السري مجهز بكل الضروريات الرفيعة المرموقة، وأبرز ما فيه سرير فاخر تعلو مقدمته مرآة حائطية كبيرة، تعكس الأضواء الخفيفة وبعض الأثاث ولوحات زيتية يُصور بعضها إنانا حسناوات مستترات.

كان الحاج من قبل يرتاد العش العشقيّ الآن مرة كل شهر أو مرتين، يأتيه متخفيا بسلهام قاتم يغطي قُبهُ جبهته ورأسه كاملين، مثله مثل خارج من حمام بلديّ عمومي. وحين كثرت أعماله وأسفاره وغلب عليه التعب منذ الشهور الأواخر، قلّت زياراته وتباعدت، لكن الست ظلت، كما من قبل، تستقبله في الأحضان بوجه بشوش بسم وجسم فاتن ريان، لا تماحكه في شيء ولا تعاتبه، بل تدنو منه على الأريكة وتسقيه من المرطبات ما يلذ وينعش؛ لا مقبلات ولا مأكّل، بل قبلات حارة ومداعبات وملامسات شهوانية ممتعة، حتى إذا هاج

بهما الشوق تمددا على السرير الفاخر؛ فمرة جماع ومرات
اكتفاءً بذلك متبوعا بعمليات ذلك يتلقاها الحاج من معشوقته
وهو في أوج الهناء والاسترخاء.

في لقاء هذي الليلة، بدا الرجل مهموما على غير عادته أو
أكثر من اللازم، ومترددا في البوح لأسماء بسر أو مفاتحتها في
شيء ينوء به صدره ويعكر صفو خاطره. اغتمت الست استواءه
على كرسي عالٍ متحرك وقعودها بين رجليه الممدودتين،
تقلّم أظافره وتبردها، فاستفسرته في الأمر على نحوٍ غير
مباشر. لم يبطئ - وهو يداعب شعرها - في مناجاتها بصوت
متهدج، معربا عن اطمئنانه وهدوئه حيال الشيخوخة التي
يتورط فيها ويغوص سنةً بعد أخرى بل شهرا بعد شهر، كما
حيال الموت الذي كل نفس ذائقته، ولو أنه يتمناه خفيفا لطيفا
أو على حين غرة، بلا مرض عضال يطول أمده ويُعيي الفراش
أو آلام تسكنها مؤقتا جرعات المورفين...

رفعت أسماء عينيها الدامعتين إليه وسألته عما يقلقه إذن.

ليس تآكل أملاكه ورأس ماله (أجاب)، بل خيبة أمله
في بنته التي فشلت في دراستها وتزوجت بعاطل كسول في
مراكش تنفق عليه من مال أبيها؛ وأفدح من ذلك هجرة ابنة
البكر إلى كندا حيث تزوج وتجنّس، وكان تعويله عليه كبيرا
في تنمية ثروته وتجديد طرق استثمارها. وباح بلهجة مريرة:
ما فيش أقسى على قلب أب ولا أضعط من ذرية يصدر عنها
العقوق أو العجب العجاب!

بدا لأسماء أن تواسيه بدعوته إلى عقد الأمل على ابنه الأصغر، لكنها امتنعت لكونه لم يذكره بعد.

استرسل الرجل في التعبير عن همومه، فتحدث عن زوجته العجوز التي لم يعد لها جهد ولا قوة إلا للذهاب مرتين في السنة إلى العمرة طلباً للطمأنينة والراحة أو عساها تتوفى وتدفن في الديار المقدسة. أما أخواته الثلاث فكلهن يطلبن رعايته ومساعدته، فلا يمتنع ولا ييخل. وذكر بعض الشركاء الذين غشّوه أو سطوا على نُصبه في عمليات تجارية وعقارية، واغتنوا بنهب مقالع الرمال والصيد في أعالي البحار، فأوكل أمرهم إلى الله ﴿وهو المولى ونعم الوكيل﴾، ومنهم من أفلسوا وكسدت تجارتهم، وبئس المصير!

خطر للست استفساره عن زوجته وأخواته إن كنّ تعلمن بعلاقتهما، لكنها أحجمت. وكأنه قرأ سؤالها في عينيها الرطبتين اللامعتين، فذكر أن لا أحد عدا عفاف يعرف شيئاً عما بينهما، لكن الله أعلم. وكان هذا مدخلاً لإبلاغها بقرار اتخذه حمايةً لها من غوائل الزمان ومطامع الصقور من الورثة، قال:

- حبيبتى أسماء، ذكرت لك بعض همومي، وغرضي إشعارك بهرمي وتعبني. ذقت من هذي الدنيا مرها وحلوها، والآن خلاص، صرت أنفص يديّ منها وأحسب كل يوم جديد أتنفس فيه زيادة من فضل الله... زوجتي أيام شبابها كانت سندي وعين متعتي، وبعدما شاخت ظهرت أنتِ في

حياتي هبة ربانية وجدت فيها جمال الصورة وحسن الخلق. لو كنتِ أرملة لعرضت عليك الزواج حتى تكوني من بين الورثة الشرعيين، لكن ما دام زوجك في عنقك، الأحسن أبيعك الوكالة وفيلا مؤثثة في حي السويس، ونتخلص من احتمال القيل والقال وشر ما خلق من الورثة. ابني الأكبر ينتظر خبر موتي ليحضر جنازتي ويرسم حصته من الإرث ثم يعود إلى كندا على جناح السرعة؛ وكذلك الأمر عند أخيه وأخته.

كانت الست أثناء اعترافات الحاج تشهق بالبكاء وتدعو له بالصحة وطول العمر، وحين سمعت عرضه الأخير ساءلته فزعة:

- ومنين مولاي آتي بثمان شراء!

- من لطفك يا أسماء، من حنانك عليّ. محاسنك ما لها ثمن! يكفي توقّعي العقود والبقية بيني وبين الموثق، وكيفية الأداء أطلعك عليها في حينها.

استقامت الست وصاحبت وليّ نعمتها إلى الأريكة. جلسا جنباً لجنب. وضع الحاج حقيته على المائدة، أخرج منها نسخ عقود مبسّلاً، قرأ بعض بنود العقدین الأصليين ثم نعت لجليسته خانات التوقيع، فاستجابت وهي تبكي من شدة الانفعال والفرح وتردد: هذا كثير عليّ، يا حبيبي! وتغدق على المحسن إليها أدعية تلو أخرى، وهو يقول متحنناً:

- آمين! من فمك إلى السماء... آمين... ما في الحقية من مال وزعيه بين حسابين أو أكثر، واتركي تسجيل هكتارات

الصخيرات وتحفيظها في اسمك... المثل يقول: رَبِّ أَخْ لَمْ
تلدّه أمك، وأنا أقول: رَبِّ وريث مستحق لم يخرج من صلبك،
وانت يا قرة عيني هذا الوريث... خير الناس من نفع الناس،
وانت خير من عرفت، لك ما أعطيت، ويحق لك أكثر...

عجرت أسماء عن الكلام، فضمت جليسا إليها وأخذت
تقبل رأسه وجبهته وحنكيه وشفتيه ويديه، وهو يتملاها
مبتسما، مبتهجا لفرحها العارم. أسرّ في أذنها أن الفيلا
يحرصها رجل أمين وكلبان بوليسيان. سلم لها مفاتيحها لكي
تزورها وأوصاها أن تتأني في الإيواء إليها ريثما تتم إجراءات
التملك وتحدث مستجدات. أبدت من جهتها علامات السمع
والرضى ثم استأذنته في سؤال فأذن، ترددت قليلا وقالت:

- ابنك الأصغر، ما كلمتني عنّو؟

- الكلام فيه (أجاب) يلزمه جلسة خاصة، لكن ما دام
خلقت الفرصة وفيه شوية وقت أذكرك بما قلت من قبل: ما
فيش أقسى على قلب أب ولا أضغط من ذرية يصدر عنها
العقوق أو العجب العجائب... وهذا الابن يجمع ما بين
السيئتين. والثانية، والعياذ بالله، أفدح من الأولى. بسببها
اصابتني من قبل أزمة قلبية عاينت فيها الموت:

- وهذي السيئة، إيش هي، يبعد الشر؟

- وأريدك أنت في إزالتها عنّو...

- طلبك أمر، يا سيد الرجال...

تردد قليلا وقال وقد احمرت عيناه وترمد وجهه:

- أريدك ترّجّليه... ترّديه رجل.

- وهو غير هذا؟

- أنت فطنة وليبية، وفهمتني مزيان... جمال سنّه يقرب من خمس وثلاثين سنة، لا خطيبة ولا حتى صاحبة. ولما يسمع مني أو من أمّه بعض الكلام عن الزواج يجفل ويتقرّز. ملكته فيلا صغيرة ووفرت لو حاجياتو وراتبو وزيادة. يكره الشغل ويدعي أنو يكمل الدراسة بالمراسلة وأشيا أخرى ما فيش حاجة لذكرها... هذي بطاقة فيها عنوانه وهاتفه... أنت ما يرضيك يشاع عني العجب العجاب خرج من صليبي! أرجوك تفعلي ما في جهدك. توفقتِ أجرك عند الله؛ فشلتِ أكون أنا حاولت ومنو يثست...

نظر الحاج في ساعته. انتفض واقفا. ضم أسماء إليه، وبين قبة وأخرى ترجاها همسا: رجّليه رجّليه! ثم طمأنها على انصرافه سالما إلى سيارته في مرأب محروس، وودعها بشوق وحرارة.

كانت الساعةُ الثانيةُ ليلا. خبأت أسماء الحقيقة في مكان آمن. قضت وقتا في الاغتسال والتنظيف، ولما ارتدت منامتها وتمددت على السرير، حال شريط جلستها مع الحاج النصري دون أن تذوق للنوم طعما، وظلت كذلك حتى مطلع الصبح.

عندئذ أخذت تتأهب لمغادرة العشّ العشقي واللاحاق بمكتبها قبل قدوم الموظفين.

أول المقبلين عليها هي عفاف بصحن فطور وفنجان قهوة اكسبريسو وعصير ليمون خالص. لم تسألها عن شيء، والست اكتفت بإطلاعها على حكاية جمال واستشارتها في الأمر، فاندھشت لكون نائبتها هونته واستسهلته، قالت:

- لو كنت مثلك جميلة وجذابة لأرضيت الحاج وحاولت إرجاع الشاب إلى الطريق المستقيم، ولو أن المحاولة مصيرها معروف...

قوست أسماء حاجيها استغرابا، فاستأنفت جليستها كلامها:

- نعم، مصيرها الفشل. حتى أمهر الأطباء ما يقدر فعل شيء. إنما المحاولة ضرورية بشأن خاطر الحاج... هاتي بطاقة الشاب المنحرف، وأنا آتيك بكل المعلومات المفيدة عنو، وبعدها قومي بما عليك، والله يستر ويسر.

في الخارج، أخذ ضجيج السيارات والمارة يغشى الشارع والأزقة المتفرعة عنه، يعلوه في أوقات معلومة هدير القطارات الواصلة إلى المحطة وسط المدينة أو المنطلقة منها. زيد في هذه المعمعة اليومية المتصاعدة يذرع كعاداته قطاعه جيئة وذهابا، لكن خطواته لا تخلو من نرفزة واستنفار، وإذا توقف لحظات فلكي يلحظ قلقا غياب سيارة الست المديرة، أو ليبعث إشارات تحية وتودد لفتاة الواجهة الزجاجية في الزنقة المقابلة. وهو في هذه الحالة لم يقو على تهدئة غليانه الداخلي، فنفخ صدره واستجمع همته وجراءته وقصد ربة المخزن النسائي وخاطبها على عتبه: نيتي أموالاتي صافية وسعيي شريف، طلبي أن أخطب هذي البنت وأتزوجها على سنة الله ورسوله... فما كان من المرأة إلا أن تناولت مكنسة ولاحقته مهددة وهي ترغد وتزبد قائلة: واش قالوا لك أنا قوادة يا ولد الكلبة!... لم يجد زيد بدا من الهرب مجريا بعض المراوغات والتمويهات، أفضت به إلى العمارة حيث وكالة المراقبة، فصعد إلى طابقها الأخير للاختفاء واسترداد أنفاسه. وحين اطمأن إلى وضعه بدا له أن ينزل ويعرج على الوكالة، مغتتما غياب مديرتها ومتعللا بشيء يريد قوله للنسوة.

بعد تردد قرع الباب. استقبله بويبا عمر بتحية عسكرية
وصاح باسمه مرتين. أقبلت عليه نعمى ونعيمة مرحبتين.
لحقت بهما عفاف وسألته عن سبب الزيارة، أجاب بعد أن مدَّ
يديه على المبسط:

- السبب، يا حبايبي، خبر وطلب...

قاطعته عفاف:

- حبايبي! ... إلزم حدّك يا الزايد...

لكن الفتاتين ظلّتا على حالهما من الفرح بوجوده. علقت
نعمى مبتسمة:

- الست عفاف تمزح معك، ثم تذكّر يوم ضربناك ما غنيت
أنت على لسان المرحومة أم كلثوم: جرحُ الأُحبةِ عندي غيرُ
ذي ألم...

أبدت نعيمة إشارات تأييد وتشجيع، فتابع الزائر كلامه:

- الخبر أن الوالدة فرحت فرحة كبيرة بحلويات الكوكبيل
اللي حملتها ليبتنا، ودعت لكل واحدة بالنجاح والفلاح.
اكلت منها شوية والبقية اهدتها لبنت مسكينة في يوم عرسها.
وتأوهت الستات مشفقات:

- مسكينة! وفي يوم عرسها! ... إذن كلنا لنا أجر...

- أما الطلب يا لالياتي، باغي لالة عفاف، ومعها نعيمة
ونعمى، تخطب لي للزواج مسكينة اخرى، وجدتها على قد
يدي وجيبي، تعمل في مخزن نسواني قريب من هنا.

أجابت عفاف لختم اللقاء:

- شوف يا الناطق بالميزان والمعنى، إذا احيانا الله وبقينا
غدا، نعاود الكلام في هذي الخطبة...

- ما قلت عيب يا زينة الهدرة... يصبح ويفتح، واللي نيته
حسنة لا بدّ يفلح.

صاح بويا عمر مؤديا التحية العسكرية: هذي كاينة! ثم عاد
إلى قعوده وغفوته.

ترجت نعيمة ونعمى زيد أن يحكي نكتة ويغني زجلا أو
ما شايه.

استجاب المطلوب مطاوعا:

- هذي فاسية في حمام، سوّلت عروبية جالسة جنبها:
نسيت يا خيتي المخلي ذ الصابون. سلفني صابونك الله
يجازيك. جاوبتها العروبية: يا لالة يلعن دين مّي ما عندي.

انفجر الثلاثي ضحكا وسألت نعمى عن تعليق الفاسية،
أجاب الحاكي: قالت لها: نوضي دركي علي وجهك يا اللي
ما عندك ملّة ولا صابون...

وأردف زيد:

- أما الغنا غير شوية من كلام ناس الغيوان^(١)... إذا غنيتُ
يُوصل للجيران ويفيق النعسان.

اضطربت عفاف للكلمة الأخيرة، وقالت أمة:

- قل بعضو بلا تلحين ولا غنا، راحنا هنا عندنا الشغل
والخدمة.

- ما قلت عيب يا زينة الهدرة! ها مقطع صغير يناسب
المقام، ومن بعدو السلام السلام:

أنا كيف نُسير... في ليلى نغني
نتفكّر الخير واللي كُرمني
يبانو آحابي بين عينا
من نعمة ل نعمة... نعيش ونغني
ونجمع هبالي بين عينا
نرمي لحزان...
نطفي لهيب الجرحه...
نهيّم ف واذ الفرحة ونغني...

توقف المنشد فجأة، رفع أنفه عاليا يشتم ملء خيشوميه،
ثم جاز الباب مسرعا. حاولت عفاف إعادة الوضع إلى
نصابه والهيئة إلى الوكالة، لكنها عجزت بفعل انتقال عدوى

(١) فرقة غنائية مغربية.

ضحكات زميلتيها إليها، فواحدة عدت أصنافا من الأثاث لاختيار هدية للعريس، والثانية أطلقت زغاريد استعدادا لدورها في العرس كنگافة، وكلتاها أوصت عفاف بإجراء المساعي الحميدة لدي مشغلة البنت المسكينة؛ وفي هذا الجو المرح الضّاج كانت الأستان ترقنان وتستسخان عقودا ووثائق، والنائبة ترد على مكالمات وتجري أخرى. وبعدها أعلنت نعيمة أنها أنهت عملها لهذا اليوم (والساعة الواحدة زولا)، واستأذنت في الانصراف لقضاء أغراض مستعجلة، فاستجابت لها عفاف فورا وأفادت صاحبها من ذلك، فخرجتا شاكرتين هاتفيتين: مسكين تزوج مسكينة وارتاحت المدينة... عقبى لنا...

بعيد وقت وجيز تلقى بويا عمر من رئيسة إشارة المغادرة، وبعدها أقفلت باب الوكالة دونه وسارعت إلى مكتب الست أسماء حيث أزاحت الستائر وحركت الحائط المكتبي وفتحت باب الغرفة السرية، فألفت رئيستها تغط في نوم عميق. انصرفت إلى المطبخ لتهيئ لها وجبة غداء خفيفة. ولما عادت بها إليها رأتها تتشاءب وتنسل من فراشها قائلة صباح الخير، فردت المخاطبة: بل مساء الخير. الساعة الواحدة والنصف، وهذي وجبة الغداء يا مولاتي!

بعد رجوع الست من مخدع النظافة طاهرة نضرة، جالست أنيستها الوفية وحدثتها، وهي تقنات، عما رآته في منامها: فيلا ذات صالون فسيح وغرف ومسبح وقاعة رياضة وصونا

وحمام بلدي، تستقبل فيها ضيوفا مرموقين وصديقات
عزيزات على رأسهن عفاف، وهذه الفيلا أمت ملكها إضافة
إلى ضيعة شاسعة نصفها مزرعة ونصفها حدائق ذات أشجار
تين وزيتون وفواكة كثيرة وورود متنوعة شتى، وكلها مفتوحة
لحصاد الأحبة وقطوفهم...

هنأتها جليستها بهذا الحلم العظيم الجميل، وتمنت أن
يتحقق لها بفضل الله واستحقاقها له، ثم استسمحتها في
العودة بها إلى الأرض، فأنبأتها بتنفيذ طلبها في بيع سهوم
مناجم ولاسامير وشراء أخرى في حدود الأقصى من أليانس
والضحى. أرادت الاسترسال في إبلاغها بما جد في ملفات
عقارية ظلت عالقة، لكنها أحجمت عن ذلك إذ رأتها ساهية،
لا هية عما سوى رؤياها المنامية والانصراف إلى مدارج حلم
اليقظة؛ وكم دهشت لما سمعتها بصوت حازم صافٍ تخبرها
بقرارها الاستمرار في مبيتها بغرفتها هاته، لا تغادرها إلا
إلى مكتبها وأمكنتها المفضلة في المدينة! وعللت قرارها
بكونها ترغب في متابعة حلمها الشيق إلى آخر حلقاته. وحين
أخطرتها عفاف فزعة متلعثمة أن الحاج المختار شدد في
مكالمة الهاتفية الأخيرة على أن حالة زوجها الصحية من سيئ
إلى أسوأ، رأتها محمرة العينين والوجنتين تصرخ في وجهها:

- أنا تعبت من بيت الزوجية، بيت الهم والغم، تعبت من
ابن عاق وزوج مريض يهرب منو عزرائيل وربما يقبض روعي
قبلو... أكيد فهمت: مصاريف الدياليز والأدوية وحاجيات

الابن والشغالة والممرض وحتى الفقيه المختار، كلها على نفقتي. فهمت هذا؟

- طبعا فهمت يا خيرة: فهمت من أول يوم.

ضمت عفاف إليها صديقتها المتألّمة الجاهشة بالبكاء، وحاولت مواساتها والتخفيف عنها، فسمعتها تئن وتشكو:

- تعبت يا حبيبتى تعبت! والله حال الشاب زيد أحسن من حالي، فقير لكن دائما نشط ومبشور وفرحان!

- فرج الله قريب يا أجمل وأكرم مخلوقة عرفتها، وربنا ما يمكن يهلك أو ينساك... مزيد من الصبر وحلمك يتحقق والخلاص يأتي، لا بد يأتي...

هدأت أسماء ومسحت دمعها وقالت:

- شكرا حبيبتى، كلامك يحسن مزاجي ويقويني... كل شيء متوفر في هذا العش، حتى الموسيقى والأفلام. عندي أشياء يلزمني أفكر فيها وقرارات أتخذها... كوفر السيارة فيه عولة من البادية. خذي اللي حبيتي واعطي البقية لزيد... الآن عودي لدارك. رقم هاتفك هو وحدو أجاب عليه أو أكلّمك فيه... سيري وما تخافي عليّ...

يومي السبت والأحد تلقت أسماء بالموبايل نداءات كثيرة
لم تجب عنها، حتى من راضية ونجلاء. أما عفاف فردت عليها
تطمئننها على حالها، وترجتها أن تمسك عن الاتصال بها إلا
إذا طرأ ما يلزم الإخبار به، كوفاة أحد من الأقارب والصحاب،
أو حادثة مروعة خلفت قتلى وجرحى ممن تعرفهم...

مذهذي الليلة فصاعدا، ترغب الست بكل حواسها
وجوانحها في استحلاء عزلتها المختارة وإيقاف عقارب
الزمن وسيله وهياجه.

الوقت معها باتت تريده وقتها الجواني وملكها الخصوصي،
تفعل به وفيه ما تشاء وترضى، بعيدا عن أي ضغط أو جري
وأى ملفات أو مواعيد، وهلم جرا.

الوقت تريده وقتا للتطهر من رواسب الأكدار والأحزان،
ومن عواقب الأخطاء والخطايا الفادحة (كزواجها مثلا)، ومن
ذكرى مضاجعات رديئة أو توهمية...

الوقت تريده للالتقاء بالذات ومجالستها مفردة مجردة،
حرّة طليقة، تأكل ما قل متى جاعت؛ تضرب عن الهواجس

والوساوس؛ تفكر كثيرا في من تهوى وتناديه: يا عشيق أختي
الميتة... يا الغائب الحاضر (كم تناديه!)، وتنام ملء جفניה
وتستيقظ لاهجة بأحلامها، وتتخيل أخرى صاحبةً على وقع
موسيقاها ونبضات قلبها...

الوقتُ تريده وقتا للسعي المتشوق الحثيث إلى الوعي
المتقيد العارم، والترقيات الرائقة الشائقة. ولن يردعها عن
ذلك رادع، ولن يصرفها عنه صارف...



رن الموبايل. إنها عفاف تصبّح وتستأذن في تقديم الفطور.
مكثتها أسماء من الدخول، بادلتها العناق وجلست حذاءها
تقتات وتحكي لها كيف أمضت الوبك-أند بين أوقات
التأمل والاسترخاء والنوم واليقظة، أوقات وصفت الخلوة
فيها بالخصبة والناعمة، أقرت أنها لم تعش مثيلا لها من
قبل، وستبقى مستظلة بها كل آخر أسبوع حتى تصفو حياتها
ويتخلص نابلها من حابلها.

أثنت عفاف على اختيار رئيستها، وطمأنتها على سير
الوكالة من حسن إلى أحسن، لكنها نبهتها أنها مطلوبة من
صديقتها نجلاء وراضية ومن الحاج المختار المعلن عن
نفاد الذخيرة. وهنا أعلنت أسماء أن من بين قراراتها خلال
خلوتها إيقاف الإنفاق على زوج ينبذها ويستعدي ابنها عليها.
صاحت: أنا بالتمرة لعمو وهو بالعود لعيني! خلاص، انتهى
زمن الغفلة والغباوة. رجل براتب التقاعد يلزمو ينفق على

راسو... أما الصديقات، بعدين أكلم نجلاء... وجمال ابن
الحاج النصري، أش فعلت في شانو؟

- أش فعلت يا مولاتي! الشاب، ويلزمني أقول الشابة،
عرفت أشياء عنو. ساكن في فيلا بحي حسان مع صاحبو.
ينام الصباح كلو ويسهر الليل. تعرضت له ملثمة بالأمس وهو
غادي يركب سيارتو، طلبت منو صدقة لوجه الله. عيرني بكلام
نسواني وإشارات من قاع الخابية. وختم التعبير وقال: درقي
عليّ وجهك. يخ! التسول كثر في هذ الزمان وصار حرفة يا
لطيف! إيوا سيري بحالك وإلا أنادي على البوليس... هربت
يا حبيتي، قبل ما يصير الكسكس محمّصة... أنا في رأيي ما
يمكن لك تغيري الشعرة في هذ الشابة، فبالا حري ترجليها...
انسي الموضوع وادخلي مكتبك قبل ما تجي البنات. هذا
يوم الاثنين...

في مكتبها، بعد الاغتسال وتحسين هندامها، احتست
أسماء قهوتها متأملة شهادة عفاف عن جمال وموقفها منه.
للتلهي عن ذلك، انكبت على سجلات ومراسلات ظلت
عالقة، وسطتها بمكالمات هاتفية، بعضها ذو طابع مهني،
وبعضها لطلب مواعيد في نادي «الصحة أولا» ثم لطمانة
صديقتها على حالها والتعبير عن شوقها إلى لقاءهما.

نقرّ على الباب واستئذان النائبة في الدخول متبوعة بنعمي
ونعيمة محييتين بكلمات تقدير وامتنان بالغة. ظنت الرايسة
أن الأنستين جاءتا تلتمسان زيادة في الأجر أو حظوة ما،

فإذا بهما تتناوبان على مطالبة السيدة المديرية بقبول تقوية طاقم الوكالة وتعزيزه كما وكيفا بالشباب المتعلم الخدم زيد أفرحون، وذلك بتعيينه مرشدا عقاريا ومكلفا ببعض العلاقات الخارجية. وهذا المنصب في تبريرهن من شأنه أن ينقذه من التسول المقنع ويصون كرامته. وطلبُ التوظيف هذا الذي قرأت نصّه عفاف، وأكدت أن الجميع بما فيهم بويا عمر وقعوا عليه، إنما غايته ومرماه إضفاء طابع المرح والتفاؤل على عمل الوكالة، ومن ثم ترقية نشاطها وإنتاجيتها.

استلمت أسماء نص الطلب، ألقت عليه نظرة أعقبتها بأخرى مستفسرة صوب عفاف، فتلقت منها إشارة تأييد وموافقة. سألت عن رأي المرشح في الأمر، أجابت نعمى أنه لم يُعلم به حتى تقبل به حضرة المديرية، فتكون له مفاجأة سارة. أطرقت الست مفكرة ثم أعطت موافقتها واشترطت أن تُخضع بنفسها زيد لاختبار شفوي، وإذا نجح أطلعته على شروط أخرى. وحين طلبت إحضاره أبلغت أنه تغيب عن الزنقة الخميس والجمعة الماضيين، ولم يُكشف لها عن السبب (الذي هو غياب سيارتها عن موقفها المعتاد واختفاء البنت المسكينة التي نوى الزواج بها)؛ لكنها أعلمت أن بويا عمر يعرف أين يجده وكيف يحضره أمامها. ردت أمّرة: إذن يصبح ويفتح. كل واحدة ترجع إلى عملها... وفعلا خرجن في الحال، فرحات مبشورات.

صباح الغد شاهد بويا عمر، وهو يعود من سخرة، زيد في زنقة موازية يسعف متشردا ساقطا على الأرض يتخبطه الصرع، مرتطم الوجه بزجاجة كحول مكسرة بين يديه، وبيادر المسعف إلى وضع قطعة حديدية بين فكّي فمه، فيتحكم في حركاته الجنونية ويرشه بالماء لتهدئته. هبّ العون لمساعدة زيد على إنهاء الضرب والرجل وتضميد جراحه. وبعد أن تركاه يذهب إلى حال سبيله، عاد الرجلان إلى زنقة بيت لحم حيث أنبأ بويا عمر زيد بترشيحه للعمل في الوكالة، وطلب منه مرافقته إليها حالا. ظل الشاب واجما لا يبدي حراكا ولا فرحا، ثم اكتفى بكلمات تفيد أنه يحتاج إلى مهلة للتفكير. ردد العون هذي الكلمات على الثلاثي النسوي، فكان ذهولهن عظيما، ما لبثت عفاف أن سعت إلى تبديده أمرة بطي صفحة زيد تماما وصاحت: إيوا زدني! حضرته يطلب مهلة للتفكير. الفقر والتفرعين! كل واحدة تكمل شغلها قبل ما ترجع المديرية...

في هذه الأثناء كان زيد في مشادة كلامية عنيفة مع فتاة قوية البنية، تكبره طولا وعرضا وعمقا، هو يخبرها أنه حارس السيارات الرسمي في هذه الزنقة، وهي تستدل ببذلها الجديدة الفلورية وبحقها في تعويض حارس ذي بدلة زرقاء قديمة ما يحرس حاجة، له سوابق مع الشرطة وأرباب سيارات وصاحبة متجر. أراد طردها فدعته إلى فض نزاعهما لا على مرآى الناس وربما البوليس بل في سطح عمارة خال، وبعده تعود الحراسة إلى الغالب، وتحذته مهددة: إذا انت رجل

اتبعني، وبينك عشرة مترو... رفعا للتحدي ودفاعا عن رجولته، مثل زيد في السطح أمام منافسته بعد أن تسلل مثلها إليه عبر طابقين وبين أبواب مغلقة. أعلنت أن الوقت ضيق لا يسمح سوى بجولة واحدة سريعة، الغلبة فيها لمن يخبط الخصم أرضا ويمنعه من الحراك؛ ثم بسملت وعددت: اثري، تو، وان، گوو، مشينا...

مستهينا بأنوثة الغريمة وبدانتها، بادر زيد إلى توجيه لكمات إلى بطنها وجهة قلبها، وبالغ في ذلك وهو يقفز ويرقص حولها متجنباً أي احتكاك جسدي بها، لكن سرعان ما فشلت خطته ووهن عزمه لما انقضت عليه كلبؤة على فريستها، فأسقطته أرضا على ظهره وثبتته من تحتها لتثيسه بثقلها من أي حركة أو فلت. وما إن أحست أنها شددت عليه الخناق حتى أمسى يتنفس بصعوبة، أمرته مقابل تسريحه أن يقول لها: الزنقة زنقتك مش زنقتي، ولا حارسة إلا أنت... بصوت ضعيف متهدج نفذ أمرها، فرفعت رأسه إليها وعاجلته بضربة رأسية قوية على أنفه أرعفته، ثم نهضت وقالت قبل الانصراف: هذي هديتي حتى ما تنساني... وظل هو منظرها يسترد أنفاسه ويداري أوجاعه ويمسح نزيفه بمنديله وكُمّيه.

لما غادر السطح والعمارة دائخا متعثرا، لم يربدا من الاستعانة بمن يسميهم في الوكالة حبايبي لتلقي إسعافاتهن. وبعد أن تمكن من تعمية المارة على حاله وقف مرتبكا على

مدخل الوكالة، فهرعت إليه الأنستان هلعيتين مذعورتين وتبعتهما النائبة وسؤالهن: من اللي فعل بك هذا الشر؟ أجاب وهو يستغفر الله في نفسه: جماعة من الصعاليك هجموا عليّ، سرقوا فلوسي وهاتفي وهربوا... رفعت عفاف عقيرتها بالدعاء على المعتدين فيما الأنستان ترددان آمين: اللهم ذمرهم وشتت شملهم، اللهم كما أسألوا دم هذا المؤمن اليتيم فافرغ عروقهم من دمها حتى تجف، اللهم سلط عليهم الجذام والسل والسيدا والسرطان، وحسبنا الله ونعم الوكيل...

وبعدها مدّدت الجريح على زربية قاعة الانتظار، وتنافس في إيقاف رعفه بقطع قطن مبللة بعطوره ثم ضمّدت أنفه ونظّفت وجهه ولحيته ورأسه، فيما هو يجزل لهن آيات الشكر والامتنان. وحين فرغن تركنه يستريح وعدن إلى شغلهن. وما هي إلا دقائق حتى استأذن في الذهاب، فأقبلت عليه عفاف بثلاثة أكياس أخرجتها من الثلاجة وقالت له إنها مليئة بزاد من البادية تهديه إليه السيدة المديرية. نطق بالشكر متلعثما، وعبر عن رغبته في العمل بالوكالة منذ غد إن كان حقا مطلوبا لذلك. أكدت النائبة العرض وقبلت الموعد ثم شيّعته إلى الباب حيث برز بويا عمر، وقد عاد من سخرة، فنظر إلى وجه زيد سائلا عما أصابه. ردّت عفاف أنه تعثر في الدرج لا غير، فشرع يحكي قصة إغاثة هذا المسكين المصاب لسكير قبضته «لرياح» في أول الصباح، وفصّل القول فيها بعد أن أغلق دون المنصرف الباب...

حين تتغيب الست المديرية عن الوكالة، تخبر عفاف طالبيها أنها في مهمة أو سفر بيزنس، لعلمها أن الثلاثاء وأحياناً الخميس تمضيها عادةً مع صديقيتها المفضلتين بين نادي الرياضة والاستجمام ومطاعم داخل المدينة أو على الكورنيش. في هذه المرة تلقت أسماء باكراً دعوة من راضية لقضاء اليوم مع نجلاء على شاطئ الصخيرات في إقامتها الصيفية. لبّت الدعوة شاكراً وقصدت في سيارتها الخاصة الإقامة التي زارتها من قبل. استقبلتها الصديقتان بالعناق والتقبيل وأبلغتاها أنهما كانتا على وشك إجراء حملة بحث عن متغيبه. تسلمت المضيفة من أسماء باقة ورد ولوحة شوكلاتا وشكرتها على هديتها العطرة الحلوة. أخبرت أن زوجها سافر إلى باريس للمشاركة في مؤتمر مهندسين معماريين، وأنها عدلت عن دعوة صديقاتها الأخريات حفاظاً على تناغم الطباع وصفاء الجو؛ ومثلت بواحدة ثرثرة، تتكلم ولا تنصت، إذا انقطع سيل لغوها، أبدت علامات الربو وانحباس الأنفاس؛ ثم بأخرى متشاعرة، تتبرج باللمع لباسها وأغلى حليها، متعطرة، مبرقة الوجه بما كياج دسم ثقيل، فتفرض على الجمع سماع كلماتها المقطعة بالفرنسية، وسرعان ما ينفض عنها من حولها،

تاركينها وحدها، مغمضة العينين، تغوص في هذيانها بإشارات يدوية وحركات ردفية. وحين تفتح عينيها تقصد المنسحبات تسألهن رأيهن في شعرها، فتجيب بعضهن ساخرات: فريد من نوعوا! ما فيش مثلو! وترد عليهن متهادية مختالة: مرسى... مرسى...

الجلسة الأولى في صالون فسيح كان حول مائدة مليئة بالحلاوي والمشروبات وشتى أنواع المقبلات، هيأتها خادمتان قالت راضية إنهما من الفيليين، ولا تتواصلان معهما إلا بالإنجليزية، وعللت تفضيلهما في الخدمة بمشيئة בעلها الذي لا يقبل النقض في هذا الشأن بالذات. واستطردت أنها تعرف أزواجاً ذوي زوجات ضعيفات أو زائغات يعتمدون هذا التفضيل لأن لهم فيه مآرب أخرى. ابتسمت الضيفتان واعتذرت المضيئة عن هذا الاستطراد، ثم دعتهما إلى حمام بحري قبل تكاثر المصطافين.

في مكان منعزل اختاره حارس الفيلا ورتب فيه كل المستلزمات، جلست الصديقات مسرورات، طلبن أجسامهن بالدهون الواقية، تمددن تارة تحت أشعة الشمس الدافئة وتارة تحت المظلة، تشربن قنينات ماء أو مرطبات، وتتبادلن أخباراً متنوعة وحكايات. كان قصب السبق لراضية التي بدأت بسرد نكت وطرائف عن أعضاء في الحكومة المغربية نصف الملتحية، المكتفية في تشكيلتها بامرأة واحدة، مصداقاً - كما علّق بعض الظرفاء - للآية الكريمة ﴿وإن خفتن أن لا تعدلوا

فواحدة❁، واعتبرت الأمر ليس مجرد خطأ بل خطيئة؛ كما أوردت ما جاء على لسان رئيس تلك الحكومة أن في محاربتة للفساد يجد ضده العفاريت والتماسيح، فنصحه معارضوه: كن إذن معهم تمساح الاصلاح وعفريتة. تضاحكت الصديقات بعض الوقت وعدّلتن هيئتهن حسب مدار الشمس في فلك السماء.

ثم عرجت راضية على حالة امرأة ممن ألغت دعوتهن اليوم، سكرت حتى الثمالة ذات ليلة حافلة، فصاحت في الجمع: سيداتي سادتي، حلوا إذا قدرتم مشكلتي: الحياة الدنيا دميمة بائسة، والآخرة لا أو من بها، فماذا أفعل؟ إذا قلت لي الله عند راس الغريب، فأنا غريبة والله مش عند راسي!... بالله عليكم أجيبوني: ماذا أفعل؟ فما كان من زوجها إلا أن جذبها خلفه نحو الخارج مرددا بين الضيوف: اعذروها... سامحوها... لا حرج على الصبي والأحمق والسكران... في الغد وقتَ صحوتها، ذكرها الزوج وهو كاتب ونحات بفضيحة إعلان كفرها بالآخرة أمام الملاء، مهددا إياها بالطلاق الثلاث، فأنكرت تماما تهمة؛ ولما ردد كلامها بنصه وفصه، اعترفت أنها إنما كررت جملا واردة في روايته ليلي والذئب، فأقرب به محكيا عن شخصية مفترضة، وحاكي الكفر ليس بكافر. عقبته عليه وهي ترشف كأسها الأول: وأنا حكيئ ما حكيئ أنت، إذن نحن معا لسنا من الكفار... تأسى الزوج

بكون من سمعوها في الحفل قد لا يبالون بمثل هذه السياقات والتسويغات، وترجى أن تغشى جهالتهم الرعناء فضولهم وتنسفه نسفاً. ومن يومها حرّم عليها قراءة كتاباته، وتوافقا على الاستمرار في التساكن تحت سقف واحد، لكن كل في فضائه الخاص وعلى شاكلته، تجنباً للمشاحنات والمشادات والقييل والقال ولأبغض الحلال إلى الله.

وختمت راضية قصة المرأة العريضة أن رجلها أمسى عند انفجار أي أزمة زوجية واشتدادها يهدد بالطلاق ثم يرجئه تجنباً لأي اضطراب نفسي يعوقه عن إنجاز كتاب أو نحت وما شابه، ثم يتراجع عنه لكي يبقى عند حسن ابنتهما المراهقة ونظراً لارتباطه المصلحي مع امرأته مالياً وعقارياً. وكان يحلو للزوجة سواء في حالة صحوها أو في عز سكراتها أن تجهر لصديقاتها المقربات بانتهاء الماتش الزوجي إلى التعادل الصفري أي، كما تبث في أذن كل واحدة، إلى التراضي الذي قوامه التغاضي عن علاقتها مع السائق وعلاقة البعل مع الخادمة.

ولوّلت المنصتان استياءً ونفورا، وتنادتا إلى تطهير آذانهما مما سمعتا، فتسابقتا إلى ماء البحر المالح متبوعتين بالراوية. وهنا أكدت أسماء لصديقتها ما يعرفانه عن مهارتها الخارقة في السباحة: فهي تمخر الأمواج مخراً، تركبها وجهاً وظهراً، تغيب فيها طويلاً، مثيرة رعبهما وخوفهما

عليها؛ وكالجنية تبرز بينهما ضاحكة مؤمنة، فيتلاعبن بالماء ويتلاطمن به كثيرا. ولما تعبن خرجن للإستراحة وأخذ قسط من سخونة الشمس الساعية إلى كبد السماء. همست راضية وهي تشعل سيجارة: رمزك الفلكي أسماء لا بد يكون سكمة؟ أجابت نجلاء: حتى أنا سكمة، لكنني أخاف من البحر وحتى المسيح. لا، أسماء سيرينا، بطلة في العوم، تروض المياه حتى تصبح منها وإليها، كما أنك يا راضية بطلة في الفروسية، إذا ركبت فرسا وركض صرت سيّدتو وأمرتو وهو لك عبد محب ومطيع...

وبينا هن يتناجين، انتصب أمامهن مصطفى وسيم، قوي الصدر والعضلات، حيّا بأدب، طلب شعالة لسيجارته وسأل عن الساعة؛ استجابت له أسماء، لكنه أخذ يرّكب جملا بالفرنسية في مغازلتهم وتشوقه إلى محادثتهم. تجردت له نجلاء بالنهر الصارخ قائلة: إذا حلّ الثقل بأرض قوم/ فما على أهلها إلا الرحيل. قوّس الرجل حاجبيه تعبيرا عن عدم الفهم. سألته راضية إن كان مغربيا قال نعم، وهل يتكلم لغة البلاد فأجاب: شوية... كومسي-كومسا، فصاحت ساخطة: الست تقول لك إذهب... ديكاج! فما كان منه إلا أن هرول فزعا من حيث أتى، مفتعلا متابعة عدوه، سيما وقد رأى الحارس وكلبه البوليسي يقصدان مكان السّتات. عندئذ دعت المضيفة صديقتها إلى حمام الدار فتناول وجبة غداء في السطح المطل على البحر.

الطاولة المعدة تزخر بشتى أنواع المأكّل والمشرب.
الخدمتان تتناوبان على سحب كؤوس وصحون فارغة
وتعويضها بأخرى، وربة الإقامة تأمرهما بكذا وكيت؛ وفجأة
خاطبت إحداهما:

Kate, remind me of your last anecdote –

I want to marry your daughter... –

أوقفتها بإشارة وقالت:

– نكتهّا: هذا شاب تقدم لخطبة فتاة من أبيها. سألو هذا
هل رأيت أمها. جاوبو الخاطب: نعم، لكني أفضل عليها
ابتك...

ندت عن الضيفتين ابتسامة خفيفة، وبعدذاك حاولت
راضية إقناع أسماء بشرب كأس نبيذ على غرار ما فعلت نجلاء
فلم تفلح، وعادت الكرة بدعوى أن من لم يذق خمر الدنيا،
كما يقول بعض العارفين، قد لا يدرك أن خمر أنهار الجنة هي
الأرفع والأرقى. وبدا لنجلاء – التي لها نصيب من الثقافة قلما
تُظهره – أن تسرد بعض رباعيات الخيام أو أبيات أبي نواس
المناسبة، لكنها أحجمت حينما رأت أسماء تتجرع كأس نبيذ
بتأن وتؤدة. وما إن أكملتها حتى قالت راضية ضاحكة: الأولى
لإرضائي، والثانية عشان خاطر نجلاء، والثالثة في صحتنا،
والرابعة أنا اللي أمنعك منها، لكن في المقابل أشنف سمعك

وسمعنا كلنا بأغنية كليوباتره، ينشدها محمد عبد الوهاب.
هذي تليكو مند، أمرها فتطيع...

وفعلا، غمرت الأغنية المكان، وأخذت راضية بآلتها تعيد
مقطعها الأخير وتصاحبه بصوتها الرخيم، مستبدلة فيه كلمة
«أسمَرَ الجبهة» بـ«أبيضَ الجبهة»، وهو: يا ضفاف النيل، بالله
ويا خُضَرَ الروابي/ هل رأيتنَّ على النهرِ فتىَ غُضَّ الإهابِ/
أسمَرَ الجبهة كالخمرة في النور المذابِ/ سابحا في زورق
من صنع أحلام الشبابِ/ إن يكنَّ مرَّ وحيًا من بعيدٍ أو قريبٍ/
فصفيه وأعيدي وصفه فهو حبيبي...

هتفت نجلاء وهي تقبل أسماء: الكلام لك يا جارة!...

حينئذ انطلق لسان الشاربة وانذلق، فأخبرت أن حكايتها مع
عشيق أختها المتوفاة ما زالت تراوح مكانها، ولم يعد يهمها
لون جبهته ولا صفاته الأخرى، ثم روت تنفا عن زيد أفرحون،
وبعدها أطلعت جليستيتها، بشيء من الإسهاب وكثير من التأثير
على رؤياها المنامية التي حكته من قبل لعفاف، فسارعت
نجلاء، التي تعرف لمعا من سر قصة صديقتها مع الحاج
النصري، إلى تأويل الرؤيا تأويلا حسنا كبشرى خير لا شك
سيتحقق، وسأيرتها راضية في ذلك بكلمات طيبة ومتمنيات
حارة، أتبعته بسؤال عن أم خالد فأجابت أسماء بوجه منقبض
أن المرأة حبلى وزوجها يحرم عليها تناول أقراص منع الحمل
إلى أن تلد له ابنا باسم خالد، ولم تنفع معه تهديداتها له بفسخ
عقد استغلال أرضها. وحتى لا تستحوذ على الكلام تجنبت

الست الإعلان عن القرار الذي اتخذته في شأن زوجها واستفتاء الصديقتين فيه، كما تكتمت على مكان مبيتها الجديد.

في نهاية الغداء، دعت راضية ضيفتيها إلى الصالون لشرب الشاي أو القهوة ولمفاتحتهما، كما أعلنت، في أمر جدّ هامّ. علقتا: «الله يسمعنا الخير»... «الخير كل الخير» أجابت الداعية. ولما استوى مجلسهن شرعت تعرض الموضوع وتفسره، بادئة بمسلّمة مفادها أن حياة كل إنسان تخلف وراءها حكاية من نسج أيامه وأفعاله، حكاية غالباً ما تكون عادية ومكرورة، فتطوى ولا تُروى، أو قد تكون استثنائية أو ذات لحظات قوية مميزة، منها الخفي السري، الممتنع عن أي فضوليّ أو نقاب؛ ومنها ما قد يرغب صاحبها أن يعرفها الغير لكونها جدّ ممتعة أو محمّلة بدلالات شيقة عميقة.

شعرت راضية أنّ عليها أن تُفصح وتوضّح، فأدلت بمثالها هي، شاهدته نجلاء عياناً ولم تعرف عنه أسماء إلا النزر اليسير، والمتعلق بزوجها الأول الذي كان، قبل موته، يذهب كل يوم أحد - إلا استثناء - إلى الصيد البحري بصنارة مهنية ولوازمها، مرتدياً لباساً مواتياً من رأسه إلى قدميه، ويرجع إلى المنزل مساءً بسلة ضخمة زاخرة بشتى أنواع السمك، ثم يستحم مغنيا تارة وأخرى حامداً الله على نعمه ووفرة الصيد من أحد بحاره. وأقسمت الحاكية أنها لم تعلم بسر شغف زوجها الجنوني بالصيد إلا بمناسبة جنازته، إذ هالها أن سبع

نساء لا تعرفهن مطلقا أتين خلال المراسيم يعزينها، وأخذت من الأخيرات أرقام هواتفهن بدعوى رغبتها في البقاء معهن على صلة. وبعد ذكرى اليوم الثالث أجرت معهن مكالمات لاستفسارهن عن طبيعة علاقتهن بالمرحوم؛ فواحدة تقول إنها مجرد زمالة، وأخرى تدعي أنها علاقة بيزنس، إلا من ثالثة اعترفت بكل عفوية وطلاقة أنها كانت صاحبه، يزورها ساعات يوم كّل أحد ويكرمها مقابل تمتيعه، كما كان يفعل مع أخريات بالتناوب أيام الأحاد.

أشارت راضية أن الراحل إلى جهنم، الذي استغباها وخانها طوال ستين وزيادة، معاشر العاهرات وعائدا إليها متسوقا السمك، قد أمهله الله ولم يهمله، إذ لقي حتفه وحيدا في حادثة مروعة، سقط جرّاءها بسيارته في هاوية سحيقة، فتمزق جسمه وتناثر أشلاء وقطعا، جُمعت بقيائها في كيس بالمجرفة والملقاط.

وأخيرا وقفت الحاكية عند حجر الزاوية، أي الغاية من سردها ذاك، وهي أنها، فضلا عما ورثته عن الهالك مع ابنها منه (العامل في القطاع البنكي بنيويورك)، فقد تعرفت بواسطة هذا الابن على وكيل سينمائي يشتغل مع هوليوود، حدث أن روت له قصة زوجها الصياد مبنية للمجهول، فاهتم بها أيما اهتمام، وعرض عليها ثلاثين ألف دولار، مقابل تلخيصها في بضع صفحات، وتنازلها له بعقد عن استغلالها حصريا كفكرة محورية أو نواة خصة لفيلم يختار له كاتب سيناريو ومخرج

ثم يعرضه على منتجين. رفض طلبها برفع تعويضها إلى الضعف، فمكّنته في اليوم التالي السيّنبسيس ووقّعت على العقد متسلمة شيك المبلغ، وترجته أن لا يخبر ابنها بأي شيء فقبل.

مسك الختام كما صاغته راضية لجليستها الذاهلتين: الحياة حكايات، أروعها قابلٌ للإخراج والإنتاج، منها حكايتها المذكورة؛ وأيضاً حكاية نجلاء مع زوجها الأول الذي دهس سيارتها قصد التعرف عليها، ثم تزوّجها ثم طلقها؛ وأيضاً حكاية أسماء مع زوجها المريض الذي طال احتضاره، وأهم منها حكاية عشقها لعشيق أختها الميتة؛ هذا علاوة على حكاية امرأة السكر والتراخي السالفة الذكر، وحكاية أم خالد وزوجها، وغيرها يوجد... أضافت المخاطبة ملحوظتين: الأولى أن دورها وساطة خير بلا جزاء ولا اقتطاع، تكتبُ الملخصات بالإنجليزية وترسلها إلى الوكيل الهوليودي الذي يقرر مبلغ التعويضات عن المختارة منها؛ والثانية اقتراح تعديلات وحتى زيادات مشوقة، قصد تقوية الفكرة الأساس وإمدادها بحظوظ القبول، على أن تكون السرية في كل شيء قاعدة مصانة وشعار التعامل.

طلبت صاحبة العرض رأي صديقتها فيه، مكرةً أنه يتطلب مهلة للتفكير والتأمل، لكن أسماء بادرت إلى التنويه به ونسبته إلى داهية لها أيضاً موهبة العرافة، وأضافت مازحة أن المشروع إذا ما كُتب له النجاح والانتعاش قد يلزمه فتح

وكالة للحكايات الشيقة العجيبة ومقرا ورسما تجاريا وخلق
مناصب شغل وأداء ضريبة على الأرباح وغير ذلك، كما حال
وكالتها وين وين. أدركت راضية مُزحة صاحبها المتضمنة
إشارة إلى صعوبة تلقي التعويضات بالعمل الصعبة، فذكرت
بسرية المشروع وطابعه التجريبي ورمزت إلى معرفتها
بقنوات التحويلات الآمنة...

وقفت أسماء معلنة اتفاقها المبدئي، شريطة أن تحصل
من راضية بملخص حكايتها بالعربية أو الفرنسية، مضافةً
إلى الإتفاق الشفوي الحقّ في إبداء رأيها حول ما قد يلحق
بالحكايات من تعديلات أو زيادات، فأيدتها نجلاء وتبنت
شرطها ومطلبها، ثم كان الفراق والوعد على التلاقي في
أجل منظور.

ليلة اقتراب دخول زيد في خدمة الوكالة، أبلغ أمه الخبر، فادعت أنها حلمت بذلك، وكادت تطلق زغاريد لو لم يترجّها أن تكتم الأمر حتى يطمئن إلى تحقيقه ومجراه، ثم التمس منها أن تُخرج من الثلاجة بعض عولة الرايسة الكريمة وتعدّها في صحن على غُريفة سطح المنزل مع الشاي والقهوة.

الغُريفة من ركائز خشبية وسعف النخيل وألواح صفيح، وهي قائمة على حيطان البيت السفلي المبني من الآجر والتراب المعجون. إنها لا تتحمل ثقل أكثر ممن دعاهم صاحبها لوجبة عشاء خفيفة، وانتقاهم في دوار الكورة لكونهم من العاملين القلائل من أجل مصالح الناس، وكان يجتمع معهم سابقا في أعلى صخرة قبالة البحر للتشاور والصيد، وكلهم مقربون إليه: بشر ورشيد وحمّاد موظف بالبريد وعتتر رئيس «جمعية محاربة الهشاشة والتهميش». سأله بعضهم، وقد جلسوا حول الوليمة، عن مناسبة هذي العزومة، فأجابهم: هذا القمر اللي ينورنا مناسبة! هذا البحر المسالم الطايح المنور مناسبة! والكلام في أحوال حوماتنا وناسها مناسبة! ردد الجميع: صح...

لكن القمر عندهم لا يؤكل، وماء البحر لا يُشرب، فلا مناص إذن، كما في اجتماعات سالفه، من حصر الكلام في ما قد يفيد الساكنة ويعود عليها ببعض النفع. وعليه، ذهب النقاش بهم، أثناء هذه الجلسة، إلى مسائل باتت ملحة، منها تكثيف الضغوط على المجلس البلدي حتى يستأنف أشغال مدقنوات صرف الماء المستعمل والجار إلى البحر؛ ومنها ترغيب الأسر في مساعدتهم على مقاومة انحرافات بعض الشباب والهدر المدرسي؛ ومنها تنظيم دوريات محاربة مروجي المخدرات والعنف؛ هذا مع متابعة المطالبة بالشغل الكريم وبحق الناس في السكن اللائق والتظاهر من أجل ذلك أمام مؤسسات الجهات المسؤولة وشركات العقار والبناء، رافعين شعارات مناسبة، في مقدمتها شعار زيد الذي رددته مرارا من قبل جموع المعطلين أمام البرلمان: بالوعود اتخمتونا وعلى الغصّ ازميتونا... واتفق الجمع قبل الافتراق على إيلاء الأولوية للعمل المحلي الملموس عوضا عن المطالب العامة الفضفاضة أو المغالية اللامدروسة، وهي حتى اليوم من أسباب وهن حركة ٢٠ فبراير بعد أن كانت حدثا وضاءً ومدّا واعدة. لكنهم أجمعوا على أنها كالنار في الهشيم قد تعود إلى الاندلاع إذا تبدى أن حكومة الأصوليين، وقد وُضع إيمانها على المحك، تعد ولا تفي، والأحوال معها تستفحل وتسوء... وختم عتتر بخبر سيئ، مفاده أن صديقهم المنحرف عروب قد تحوّل إلى متاجر في المخدرات ومجرم

يوجد في حالة فرار، ونهى بقوة عن إخفائه أو إعاقته، إذا ما أتى يوما يلتمس ذلك؛ إلا إن زيد طالب المخبر بالتقصي في مصير أسرة عروب لمديد المساعدة إليها عند الحاجة، فأيد الجميع مطلبه، ثم هبوا بعصيتهم، وقد كانت نوبتهم، إلى مجمعهم السكني لإجراء دورات تفقدية في أحيائه، نيابةً عن رجال الأمن المتخلين عنها، بدعوى أن لا شيء يتطلب تدخلهم إلا سيلان الدم. وقد نودي عليهم يوما لهذا السبب فقدموا؛ ولما تبينوا أن سكيراً إنما أرعف آخر، ضربوا عن الدوار كله صفحا وأعرضوا.



في الصباح كان زيد في قاعة الانتظار، مرتدياً بدلة أيام الأعياد، يترقب مجيء مديرة الوكالة ويرتب في ذهنه جملاً، محتسباً فنجان قهوة أهدته إياه عفاف. بعد لحظات رافقته النائبة (تشجعه الآنستان) إلى مكتب رئيسها. وهنا بعد أدائه التحية وخلعه الكاسكيت تلقى منها الإذن بالجلوس. لاح لأسماء أن تستوضحه عن سبب حلول فتاة محله في حراسة السيارات قبل أن يتأكد من التحاقه رسمياً بالعمل في الوكالة، لكنها أحجمت حتى لا تضايقه، سيما وأنه ظل يتجنب النظر إليها حياءً وانفعالا، وينقله بين قدميه وعفاف. فحَصَّتْ ملفه المحتوي على رسالة طلبه الشغل وبطاقة تعريفه الوطنية وشهادته الدراسية. قالت مبتسمة: مستواك لا بأس به، باكالوريا

ناقص إثنين، كما كتبت... وناجت نفسها: وأنا باكالوريا زايد
اثنين، ثم سألته عن سبب ورود اسم الزايد في دفتره المدني
بدل زيد، أجاب وهو على الهيئة نفسها: الوالد يرحمه الله لما
استفسرته رد عليّ: الفقراء في هذا البلد زايدين، وأنا وأنت
منهم. وجودهم بحال عدم وجودهم، لا من يشوف فيهم
إلا وقت الانتخابات، ولا من يقلل من محنهم... زايدين يا
ولدي، احنا زايدين... وهكذا فصلني عن الثانوية حتى ياخذ
مني دخل عملي في حرف متنوعة. وبقي على هذى الحال
حتى مات من شدة العوز والغم وفقدان الصحة.

أدلت عفاف بدلوها فقالت:

- الوالد الله يرحمه، وأمك فيها الخير والبركة.

شكرها زيد وسأل إن كان لائقا للخدمة، فردت عليه
المديرة فوراً:

- هنيئاً، أنت لائق. عفاف تفسر لك مهامك الجديدة.
من الآن لا طاقة ولا كاسكيت. غدا تبدأ، لكن من قبل تقصّ
شعرك ولحيّتك وتحسّن هندامك على حساب الوكالة. راتبك
الشهري ثلاثة آلاف درهم يُدفع لك نصفه الآن، وفي الأعياد
تحصل على إكراميات... قومي يا ستي وافعلي ما عليك...

نهض زيد وقال مرتبكاً، خفيض الطرف:

- هذا أجر كثير عليّ! أنا وأمي ندعو الله يا مولاتي يحفظك
ويكون معك دائماً ويزيدك نور على نور ويقوي خيرك...

خرج زيد متعثرا، وقد استطار قلبه فرحا. هنأته الأنستان وحياه بويا عمر. وقّع العقد وتسلم ظرفين. استفسر عفاف عن مهامه الجديدة، أجابته: بعدين. يصبح ويفتح. سر دابا بشر أملك... يا الله سر.

على باب العمارة لمح عن بعد الحارسة خليفته. بداله أن يقصدها ويبادرها ببوسة لكونها، من حيث لا تدري، من المتسبات في ترقيته وتحسين وضعه، لكنه أثر أن يؤمّ الجامع ليصلي ويشكر الله على فضله وإحسانه؛ وبعد ذلك قصد مقهى النقابة الشعبي بباب الأحد في المدينة القديمة حيث أكل وارتوى ودعا جماعة من الزبائن ممن يعرفهم أو لا يعرفهم أن يفعلوا مثله على نفقته، ثم توجه إلى مخزن اشترى فيه ألبسة جديدة فإلى صالون الحلاقة، وأخيرا حل بمنزله حيث أكد لأمه خبر عمله الجديد، فأطلقت زغاريد مبحوحة وأمطرته هو ولاّلة الرايسة بأدعية صادقة حارة.

في صباح الغد، الذي وافق بالمصادفة ٢٠ فبراير ٢٠١٢، مثل زيد أمام الثلاثي، الثلاثي اضطروا إلى التحديق فيه بنظرات فاحصة للتيقن من أنه الشاب زيد أمحزون، حارس السيارات سابقا. فتناوبن على التعبير عن دهشتهم، نعمى تهتف: هذا زيد نيو لوك، ونعيمة تتعجب: الأناقة واللياقة! سبحان مبدل الأحوال! وعفاف: الآن ظهرت على حقيقتك! اتبعني حضرة المرشد...

هنا في مكتبها، أطلعته على مهمته الجديدة: مرافقة طالبي زيارة شقق وفيلات للكرء أو البيع، تقديمها لهم على نحو يُحَبِّب ويُغري، وأيضا إجراء مساع لدى أبنائك ووكالات عقارية أخرى وربما بعض المؤسسات العمومية أو الخاصة؛ ثم نصّبه على كرسيه أمام منضدته المحاذية لنافذة مكتبها والقريبة إلى منضدتي الأنستين؛ وقبل أن تذهب إلى مكتب المديرية متأبطة ملفات قالت: لكل داخل دهشة. افتح هذا السجل واطلع على العناوين النافعة والبطاقات التقنية.

ما إن غابت النائبة حتى همست نعيمة ونعمى إلى جارهما بكلمات التهئة والترحيب، ثم سأله الأولى عن مشروع خطوبته للبت المسكينة، منظمة واجهة المتجر النسائي، أجاب: باتت ما اصبحت، بحال قلت الأرض بلعتها. الله يجيب ما هي أحسن... واستفسرته الثانية إن كان يعرف الفتاة الغولة التي خلفته في الزنقة فأنكر، ثم ناشدته أن يحكي لهما نكتة وعاهدته بكتم الضحك، فرفض طلبهما وقال: زمن النكت انتهى والظروف تغيرت، من هذا اليوم علاقتنا كلها جد ومعقول... وقوس حاجبيه استغرابا وهو يسمعهما ترددان همسا: يا ويلي! والاتاجية؟

في هذه الأثناء استفاق بويا عمر من غفوته وأخذ يهذي بكلام متقطع سُمعت نفث منه: جدي حارب في فيتنام، وبويا في الكيرة الكبيرة وعلقت له فرنسا الميداليات، وأنا قاومت الفرنسييس في بلادي حتى اعطوني، وبقيت وحدي لا حنين

ولا رحيم. وها ليّام دارت عليّ ووليت خُصرة فوق طعام...
لا بد أكلّم الرايسة أو النايّة...

علقت نعيمة: خصرة فوق طعام! بويا عمر سهّلت
الخصرة، راهّا حتى هي ثمنها غلى في الاشواق!... نهاها
زيد وقال: الرجل مقاوم أباً عن جدّ، يلزمنّا احترامه. وأنا هنا
بويا عمر مساعدك. ما أقوم إلا باللي صعب عليك، وما يكون
إلا خاطرك... ردّ العجوز: الله يرضي عليك يا ولدي، وينقي
طريقك من الشوك، ويزوجك بنت الحلال.

بعيد خروج الأنستان للغداء وذهاب العون في سخرة،
استدعت عفاف زيد إلى مكتبها، سلمته هاتف موبایل معبأ
يحوي قائمة أسماء وأرقام أولى، وأطلّعتها على برنامج زيارات
ليوم غد، تشمل شقتين للكرّاء وفيلّا للبيع؛ أمدته بجذاذاتها
وأوصته بحفظ معلوماتها عن ظهر قلب، وتقديّمها للزوار
بأدب وكياسة. علمت منه أنه يرقن على الحاسوب ويتكلم
الفرنسية عند الضرورة وحاصل على رخصة سياقة. هنأته
على كل ذلك، ثم دعتّه إلى تمرين في فضاء الوكالة، وكأنّها
هي الزبونة، فسمّعتّه يقدر مساحة المكتبين وقاعة الانتظار
والمطبخ والحمام، وينطق بالكلمات المناسبة مبتسماً مبشوراً.

وبينا هو كذلك رنّ جرس الباب. استقبلت عفاف زائراً
اعتذر عن المجيء من دون موعد، أخبر أنه يبحث لأمه
العجوز عن شقة واطئة يكتريها لها، لا يساوم في ثمنها، ويدفع
نصف عام مقدماً، لأنّ الجنة، كما هتف، تحت أقدام الأمهات؛

وأضاف أن الأم تنتظره في السيارة لعجزها عن صعود الدرج
ولا تشترط أي حيّ بعينه...

دخلت النائبة مكتبها مفكرة ثم عادت بمفتاح وبطاقة
لمنزل يستجيب للطلب بحيّ المحيط، فسلمتهما لزيد
وقالت للرجل: يصاحبك المرشد على أن تعيده إلى الوكالة
وتخبره بما قررت. أجب: على راسي وعيني. اسمي بوعلام
الزبيدي. بطاقة تعريفي في السيارة: هل آتيك بها؟ أشارت أن
لا، فانصرف شاكرًا صحبة زيد. حرك الرجل سيارته، وأمه
البدينة، مجلبة ملثمة، تنن وتزفر، والمرافق خلفهما يحجب
وجهه عن الحارسة الجديدة التي اعترضت طريق السائق مادةً
يدها، فوافاه مرتبكا بحفنة نقود ثم انطلق نحو الزنقة ورقم
العمارة حسب نعت المرشد.

على طول الطريق ظلت العجوز تلعن بصوت منهك الهرم
ومتاعبه وتغدق على ابنها أدعية تلو أخرى. عند الوصول
توسل الرجل إلى مرافقه أن يعينه على إخراج أمه من السيارة
وسبقهما إلى فتح باب الدار، وكذلك كان. لكن ما إن أقبلت
الأم متكئة على ابنها حتى تعرّمت في بيت النوم وأخذت
تطالب بتدخين سيجارتها المفضلة لكي تسترجع أنفاسها.
سلم الرجل نقودا لزيد وترجاه أن يحضر لها علبة سجائر أنفا،
فإن لم يجد فكاذا سبور عند دكان دخان يوجد في آخر الشارع
قبالة سينما الشعب، وإلا اسودّ مزاج أمه وأصابتها الشقيقة؛
فما كان من المرشد إلا أن هرول إلى العنوان المذكور. عندئذ

أقفل الرجل الباب وسحبت المرأة ملاء من تحت جلبابها وفرشتها، فكان ما كان مما يجوز تصوُّره، فيما المسخَّر يسمع من صاحب الدكان المقصود ومن اثنين آخرين: سر الله يجيبك على خير! هذي ماركات ماتت من زمان...

شعر زيد بالخدعة، فجرى نحو الشقة على جناح غضبه وامتناعه، وإذ تخطى الباب لم يجد أي أثر للخادع وأمه المزيفة ولا، حين خرج، للسيارة في الزنقة المجاورة، فأمر راجلا الوكالة حيث أخبر النائية، مستغفرا الله في نفسه، أن أم الرجل المصابة بالربو لم تعجبها الدار الكثيرة الرطوبة. سلمها المفتاح والجزاذة واستأذنها في الذهاب إلى أقرب مطعم وأخذ جذا ذات الأملاك المبرمجة ليوم غد.

في المطعم، بين الاقتيات والاطلاع على بعض الجرائد، أخذ يوبخ نفسه على سذاجتها وغفولها في أول خرجة له، وحذرها من أي ورطة أخرى قد تعصف بمنصبه الجديد وتعيده إلى نقطة الصفر؛ وتخيل حارس العمارة شاهدا على خروج الرجل والمرأة منها، يجيبه عن سؤاله عنهما قائلا: الذكر كذا وكذا، أما الأنثى المتأبطة ملاء فشابة شقراء فتحاء، الزين منها يفوح ويشم...

لطيّ صفحة ما حدث انكب زيد على الجذاذات يحفظها عن ظهر قلب؛ ثم تلقى مكالمة من عفاف تحثه على الذهاب فورا إلى مقاطعة حيّة لإعداد وثائق أملت عليها، كيما تصرح به كموظف في الوكالة، وتسجله في صندوق الضمان

الاجتماعي. لبى الأمر شاكرا واجتاز زنقة عمله المتهى،
ملاحظا غياب سيارة السيدة المديرية ومارا أمام الحارسة
خليفته، التي لا تأبه به أو ربما لا تتعرف عليه، نظرا لوجهه
المتغير وهندامه الجديد.

في هذا الوقت كانت الآنستان في مطعم على وشك
إتمام وجبتها وكلامهما الدافق المتنوع، أغلبه حول تغير
حال المديرية ونظام عملها، إذ لاحظنا أنها صارت كثيرا ما
تأتي الوكالة مبكرا وتظل فيها مع نائبها بعد انصرافهما. هل
بسبب وفرة الشغل أم لسبب خفي تصعب معرفته؟ أظهرت
نعيمه عدم اهتمامها الآن بالموضوع لكونها تعد العدة، كما
تعلم صديقتها، للرحيل إلى الدوحة لعقد قرانها بطيار قطري،
ووعدها أن تجد لها زوجا في تلك الديار أو قريبا منها،
حيث سهوم المغاريبات صاعدة، والحمد لله. تظاهرت
نعمى باطمئنانها للوعد، لكنها نصحتها بإعلام المديرية بالأمر
شهرًا قبل حدوثه على الأقل، فتلقت منها إشارة غامضة تعني
الموافقة أو عدم الاكتراث.

بعد قضاء حاجياته في مجلس مقاطعة يعقوب المنصور،
رجع زيد إلى حي سكناه، غير في بيته بدلتة بزيه العادي ثم
ذهب، كدأبه مرتين في الأسبوع، إلى مساعدة بعض الأطفال
في فهم دروسهم، وتفقد مرضى معوزين يسعفهم بما استطاع،
وتوَجَّ مساعيه بالصلاة في المسجد ومحادثة الإمام ومصلين.

سيلحظ الأصدقاء في الحي والدوار علامات تحسن حال
زيد المادي، لكن عليه، كما عاهد نفسه، أن لا يغتر أو يغير
جلده ويتنكر لمبادئه وأحبته وأناسه. بهذا وتوابعه أخبر أمه،
فوافقته الرأي ودعت دعاء الخير له ولوليّة نعمته وحمدت الله
وشكرته كثيرا.

على فراش نومه، ليلة أول يوم من عمله الجديد، سبّح زيد
بفكره في استذكار يوم ذي تاريخ مماثل من السنة الماضية:
يوم ٢٠ فبراير، فظل يهمس بما علق بذاكرته من شعاراته، حتى
إذا انتصف الليل أخذه النوم بعيدا بين رفرقاته وطياته.

في اجتماع عفاف برئيستها على انفراد يومه الاثنين مساءً، سلمتها مراسلات وعقوداً ثم أنبأتها مباشرة بخبر اعتبرته ساراً، وهو توفيق زيد في مأموريته الأولى كمرشد عقاري، إذ كُلت بتهيئ عقدي كراء لشقتين وكتابة وعد بيع فيلا على أن تتم الصفقة صباح غد. انشروحت أسارير أسماء واستفسرت عن سر نجاح زيد في أول خروج له، فأبلغتها النائبة أنه امتنع عن الكلام في الموضوع حتى يرى بأم عينيه كل العقود ممضاة من الأطراف المعنية ومدرجة ضمن الأعمال المقضية.

أما الخبر غير السار، كما وصفته عفاف، فهو قدوم الابن حسان إلى الوكالة صباح اليوم نفسه سائلاً عن المديرية، وكان سيقترح مكتبها المقفل لو لم يمنعه بوياء عمر بعصاه وراء درع شكلته هي والآستان، فاضطر الدخيل إلى الانسحاب بعد أن توعدهم بالعودة في يوم غد. انقبض وجه المنصنة وشحب، أوصت نائبتها بتمكين الابن الضال من مقابلتها بعد استئذانها ورخصت لها بالانصراف، وبعدها تلهت عن قلقها وهو اجسها بالاطلاع على السجل أمامها وإجراء مكالمات متتالية وتصفح جرائد ومجلات.

ليلة أخرى ستقضيها أسماء في عشها السري حيث وصلها بالموبايل صوت الحاج النصري سائلا عن أحوالها، مطمئنا إياها على صحته، ما عدا معاناته مع البروستات وما تستلزم من متابعة طبية. وفي هذه المرة استفسرها عما أجرته مع ابنه جمال فترجته أن يمهلها أياما حتى تتفرغ للأمر... وفي هذا الأمر فكرت طويلا على ضوء معلومات عفاف عنه وقطعها بصعوبة بل استحالة قضائه، لكنها قررت أن تسعى وتحاول ترضية لولي نعمتها وإكراما؛ ثم عرجت بفكرها على حالة ابنها هل إذا أقبل غدا تلقاه بالملاطفة واللين أو بالإعراض والنفور؛ وارتأت أن سلوكه هو ما سيملي عليها موقفها. أخرجت من إحدى جواريرها ألبوم صوره رضيعا وطفلا، ألقت عليه نظرة عجلى كثيبة ثم أعادته إلى مكانه.

ليلة أخرى أمضت الست هزيعها الأول في الانصات المتمعن لأقراص موسيقية تصدرها «رباعيات الخيام» بصوت أم كلثوم و«من ليالي كيلوبترا» لمحمد عبد الوهاب، أقراص أهدتها إياها راضية مع متمنيات الخالصة أن ترى الفتى «غضّ الإرهابِ أبيضّ الجبهة» عائدا من غيبته المديدة.

لما أصبح، غادرت الوكالة مبكرا قبل مجيئ الموظفين، محاولة منها لتبديد ما قد يخامر بعضهم من تساؤلات حول مكان مبيتها. قصدت موقف سيارتها لتفقدوها وأداء ما عليها من مستحقات، ثم أمت راجلةً مطعما هادئا تناولت فيه فطورها، وبعده تجولت في بعض الأرجاء القريبة، فيما الحياة

تعود رويدا رويدا إلى الشوارع والساحات والمتاجر والمباني.
وقبل رجوعها إلى مقر عملها علمت هاتفيا من عفاف أن
الطاقم، باستثناء نعيمة، إلّتحق بالوكالة. عندئذ مشّت الهوينى،
تسترق النظر إلى وجوه أفراد متسكعين خارج المكان والزمان
وداخل أمراضهم وأوهامهم، وإلى أخرى لأناس يدبون وراء
أجورهم وقوتهم اليومي...

عند رجوعها، حيّت الست مستخدميهّا، فقام زيد يردّ التحية
بأحسن منها مصوباً نظره إلى السقف، ووقف مثله الجميع
محيين. دخلت عفاف على رئيسّتها، قبلتها وهنأتها بابتسامة
عريضة على براعة تمويهها في هذا الصباح، والتمست منها
إعماله مستقبلا من حين لآخر. أنبأتها أن المصري الراغب
في شراء الفيلا التي زارها مع عقيلته صحبة المرشد الأستاذ
زيد، كما يقول، يحبّ التشرف بمقابلة الست المديرّة للتعرف
عليها والتكرم بخفض ثمن البيع بنسبة مواتية، وهذا ما ينهى
عنه زيد بكلّ إصرار. فجأة استأذن بويا عمر في إدخال الزوج
العربي، فهبت عفاف للترحيب بهما وقامت الست للسلام
عليهما ودعوتهما لمجالستها على الأرائك. خيرّتهما
النّائبة بين الشاي والقهوة، أجاب الرجل الذي يبدو سبعينيا
هو وزوجته: شاي مغربي من يدك يا هانم لا يُردّ، واستأنف
مخاطبا جليستهما:

- والله يا ستي المديرّة، احنا متشرفين بلقائك، ونشكرك
على لطفك وحسن استقبالك. أقدم نفسي: حسني حسن

رياض، مصري ورجل أعمال متقاعد، هذي زوجتي حسناء الحسيني، سليلة الدوحة الحسينية الشريفة ووليدة المدينة المنورة حيث لنا إقامة، كما لنا أخرى، لا فخر، في دبي، ونريد تكون لنا ثلاثة هنا في رباط الفتح، عاصمة المغرب الحبيب...
- الشرف (أجابت أسماء) حصل لنا... البلد ذا بلدكم زيّ ما بلدكم بلدنا. واحنا كلنا أمة واحدة...

أقبلت عفاف بصينية شاي وجلست تعد للزوج كأسيهما وتحثهما على تناول حلويات مغربية. استجابت المرأة بعد أن خفضت نقابها، واسترسل في الكلام الرجل ذو الهندام الأنيق والشعر والشارب المصبوغين:

- عقيلتي هاته، يحفظها الله، تفضل يكون لنا، وأنا معها، مو طئ قدم في هذا القطر الشقيق، لأنها تريد أن تخف قليلا من زيتها التقليدي وتنعم، وأنا معها، باعتدال الجو ونقاوة الهواء وحلاوة العيش في هذا البلد الأمين، وكلها أوصاف نطق بها الأستاذ المرشد وصدق. وعلى ذكر هذا الشاب... إيه زيد! والله لولاه لكنت اشتريت فيلا أخرى وبشمن أقل، لكن حسن أدبه معنا راقنا، كما أنه سلّى حرمي التي ضحكت مثلما لم تضحك من قبل، حتى كادت تغيب عن وعيها وهي تسمعه يطلق على مكونات الفيلا من النعوت والأوصاف ما لا يصدر إلا عن خيال شاعر أو خطيب بليغ. وبين تزيين وآخر يحكي لنا

نكتة مصرية أو فكاهة مغربية، فهتفت حرمي: إما هذي الفيلا
أو بلاش! فأجبتها في الحال: فيلا يا حبييتي غير هذي بلاش!
غلب على المرأة الضحك، فاعتذرت وقالت:
- الشاب ذا مرحه وخفة روحو، ما شاء الله عليه، ما شاء
الله!

استدرك الرجل متوسلا:

- إنما قلت مع نفسي ربما في حضرة الست المديرية نحظى
بتخفيض عشرة في المئة أو شوية أكثر...
قاطعت عفاف بلهجة جادة حازمة:

- لا يا أفندي! الثمن مدروس بدقة، وزيد عنده زبون آخر
عرض عليه أكثر، لكنو رفض عشانكم...
رن موبايل النائية، فردت على ما سمعته:

- لا يا سيدي مش ممكن... ولو تزد عشرين في المئة...
احنا مومنين، والمومن إذا عاهد وفي... من فضلك ابق على
الخط أسأل السيدة المديرية...

مالت على الزبون المصري وهمست:

- قلنا إيه يا أفندي؟

أجاب الرجل مرتبكا:

- يا هانم خلاص! وأنا قلت حاجة؟ هات العقد أوقع عليه...

استأنفت عفاف مكالمتها الهاتفية:

- يا سيدي يصبح ويفتح. إما هذي الفيلا أو أخرى غيرها. الكلّ قسمة ونصيب. نجدد الاتصال إن شاء الله... وعليكم السلام.

استعجلت المرأة زوجها لتوقيع العقد ففعل، ودفع للمديرة شيك كفالة وتلقى منها وصلا على أن يتم ترسيم العقد غدا في مكتب الموثق. وقف الرجل وعقيلته معدلة نقابها واستأذنا في الانصراف، فشيعتهما أسماء ونائبتهما إلى الباب، لكن قبل الخروج مدّ لزيد ظرفا مرفقا بالشكر والامتنان. امتنع المرشد عن أخذه، فألح الواهب قائلاً: إنما هي حلاوة مستحقة، حلاوة حلال... آه فهمت، أنت محرج أمام الست المديرة... هي ذي أمانة عند الست عفاف تسلمها لك بعدين... استودعكم الله.

ما إن انسحب الزوجان حتى بادرت أسماء إلى تهنئة زيد على حسن أدائه، فقال وهو كعاداته يخفض عينيه: لا شكر سيدتي على واجب؛ ثم عادت إلى مكتبها يستطير قلبها فرحاً واستبشاراً. عندئذ اقتربت منه عفاف ومدت إليه الأمانة: خذ هذي الحلاوة الحلال... فاشترط أن تسلمه بعضها وتوزع الباقي بالعدل على الحبايب. فتحت الظرف فإذا به خمسة آلاف درهم. أعلن زيد: احنا خمسة، إذن لكل واحد ألف

درهم. صححت عفاف: بل احنا أربعة. نعيمة متغيبه، واللي غاب غاب حقّه. لك حضرة المرشد خمسان ولكل واحد من الثلاثة خمس... حين أخذت نعي نصيبها اندفعت نحو زيد وعاجلته بقبله على خدّه شاكرة ممتنة؛ أما بويا عمر فرفع يديه هاتفا: يا ما انت كريم يا ربّ! عشرين ألف ريال هدية من هذا العبد السخي!... وأمطره بالأدعية وهو يحشو حصته في جيبه. ردت عفاف على مكالمات وأجرت أخرى، وبعدها مثلت أمام زيد متوددة مستعطفة:

- الآن يا مرشد اللي ما لُو مثيل، الآن الآن مش غدا، بجاه المصطفى الأمين ورضى أمك عليك، خبرنا باللي حصل بينك وبين المصري وزوجتو...

قاطعها زيد قائلا:

- حصل خير والحمد لله، كلّ الخير، وأنت شفتِ نتائجو.

- اقصد كيف زينت الفيلا بكلامك حتى عشقتها الزوجة وقبل الزوج كل شروطنا.

- قمت بعملتي لا غير. جوّلت الرجل وحرمو في الدار. عرضت المعلومات اللي في البطاقة، والبقية زدتها من راسي...

- هذي البقية من راسك، يا زيد، هي اللي نحبّ نعرفها.

اقتربت نعمى من المتردد وهمست في أذنه: تكلم، المديرية
ما تسمعك، بابها مسدود... حينئذ لبى الطلب بصوت
خفيض، قال:

- الأمر بسيط... بعد تزويد الزبون بالمعلومات الضرورية،
الانسان عينه ميزانه. لكل زبون كلام على قَدْو ورغبته. مع
طالب شقة للكراء أو البيع، أمدح نصيبها من الهواء والشمس
كيفما كان حجمه، وأزين موقعها في العمارة وطابقها، مع
التأكيد على آتو الجيران من الناس المتحضرين، المتشبعين
بالحديث الشريف: «الجار للجار رحمة»، فما يصدر عنهم
إزعاج ولا ضجيج، حتى أنو الشقة تتمتع بمتهى الهدوء
والسكينة، كما لو هي في جنان أو جزيرة...

قاطعت نعمى المرشد واستعجلته في الحكي عن الفيلا
وغرام المصري وحرمة بها، وأيدتها عفاف، فاستأنف قائلاً:

- بعدما كشفت للأفندي والست عن مساحة الإقامة
وقبتها ومقصوراتها وملاحقها، قلت: فيلا من هذا الطراز
العالي متهى لي أنها مبنية بالحجر الصخري المصقول، كأنو
حجر الأهرام، يقوّي الأساس والسواري والسقوف، ولا
يتزحزح أو يتشقق ولو زلزلت الأرض زلزالها؛ وكل حائط
يثنيه آخر وبينهما ألواح القُرق أو اللياج. والحاصل من هذا أن
الصيف في الفيلا مبرد والشتاء دافي؛ وفي الحالتين يتم اقتصاد
الطاقة وتخفّ الفواتير... قلت أشياء عن الحديقة الفسيحة

وغروسها وأزهارها وأشجارها، لمحت بعضها وتصورت أخرى، كالسعتر والسوسن والخزامى والرجس والأقحوان والصفصاف والصنوبر... أما المسيح فشبهته ببخيرة أو قطعة من النيل، مع فارق كبير: العوم فيه أنقى وأسلم، والعائم يشعر في مياه المتجددة ليل نهار بانتعاش جسمه وتقوية عضلاته بحركات لينة ناعمة...

كانت نعمى وحتى عفاف خلال سرد زيد تطلقان ضحكات صاخبة حيناً وخافتة أحياناً، أما بوياء عمر الخارج عن السياق والاطر، فكان يكتفي بأداء قدر من تحايا العسكرية. طالبت المرأتان المرشد بالنكت التي حكاها للزوجين فزعم أنه نسيها إلا واحدة عن صعيدين اقترح أن يُمغربها حتى تُفهم، فشجعتاه: إحكِ ومغرب... قال: اثنين من سوس ناعسين بالليل في دكانهم. دخل عليهم لص وهددهم: اعطوني فلوسكم وإلا اذبحكم. صاح مُحند: أحماذ تذكّر سلفتني البارح مايه درهم؟ جاوبو: أنعم، قالو محند: هاك خذ مني سلفك دابا...

كممت النائبة فمها وفم صاحبها كتما للضحك... رفع زيد أنفه مشتماً، واستأذن في الذهاب إلى المطعم.

لم يكمل المتملص وجبته حتى نودي عليه هاتفياً أن يسرع عائداً إلى مقر عمله. استقبلته عفاف بوجه منقبض كالح، ولم يكن في المكاتب سواها، ترجته أن يستعد للتدخل إذا ما بلغت مداها المشادة الكلامية بين السيدة المديرية وابنها في مكتبها.

وفعلا كان صوت حسان يعلو على صوت أمه وتُسمع منه ننف
نايبة مستعرة: هجرت بيت الزوجية وخرجت عن شرع الله...
فين مبيتك كل هذي الليالي، ومع من؟... رجلك مريض
وانت خايضة في اللهو والفساد وهتك الدين والأخلاق...
فقدت عرضك وشرفك ومرّغت سمعتنا في الوحل والعار...
وهذي المرة ضجّ صوت الست غاضبا مهددا: اخرج
من هنا ألمسخوط، درق عليّ وجهك. ما أنت ولدي ولا أنا
أمك... أخرج قلت لك ولا نظردك بالقوة...

حيثذ اقتحمت عفاف المكتب وخلفها زيد، فأمرته بلهجة
حاددة أن يزهد حالاً من دون خصام ولا كلام. وقف حسان
مستنقرا وصاح: أنا ما أخاف منك يا شريكة السوء ولا من
الكلب اللي معك... فما كان من زيد إلا أن دنا من العاق الوقح
مفشلا محاولاته اللكمية، وبمهارة عالية جذبه إليه وطوّق
عنقه من الخلف بيد وبالأخرى لوى على يده، بحيث سلبه من
أي مقاومة، ثم دفعه هكذا قرب الدرج، وبثّ في أذنه كلمات
قبل أن يفك وثاقه الموجه ويطلق سراحه. وبعدها رجع إلى
كرسيه وشغل وقته بين الاطلاع على بطاقات عقارية والنظر
في بعض الجرائد، فيما ظلت عفاف رفقة الست المديرة،
تواسيها وتكفكف دمعها، ولم تجد من وسيلة لصرفها عن
نازلة ابنها الملعون والتفريج عنها سوى سرد حكاية زيد مع
الزبون المصري وحرمه، وما أنفق من بلاغة الوصف وبراعة
التسويق لتحبيب الفيلا لهما، فتضاكتا كثيرا حتى حلت

الفرحة محل الترحة، وغمر الحبور وجه أسماء وحرركاتها،
فاهتبلتها النائبة فرصة للتنويه بزيد والثناء عليه، قالت:

- يا حبيبتي، اللي عيّنته في منصب مرشد عقاري، والشهادة
لله، نعمة نزلت علينا من السما. فاضل وكريم، وفي العمل
فطن وشاطر. بالأمس بواسطتو تم كراء شقتين والاتفاق على
بيع فيلا طال عرضها، كما في علمك. وبخصوص هذي
الصفقة، بعدما اخبرته بكون مالك الفيلا المقيم خارج الوطن
يوجد في ضائقة مالية ويطلب أقل من الثمن اللي حددناه،
نصح باشتراط رفع مستحقات الوكالة على المالك بنسبة
مهمة، وإلا لا بيع ولا شراء. ولهذا يلزم إمهال المصري حتى
تم موافقة المالك المكتوبة على المبلغ المذكور. وزيد كلما
نصح قال: وللسيدة المديرية المحترمة واسع النظر وحسن
التدبير... يا حبيبتي، أش قلت؟

أجابت المسؤولة وعلامات التعجب تغزو محياها:

- سبحان الله! زيد هذا كان حارس سيارات، وصار بقدرة
قادر يفهم في المانجمنت والأعمال... وعلاش ما يكلمني
وجهو لوجهي؟

- يا لالة، أنت عارفة السبب، وزيدي عليه لسانو معك،
حسب ما يقول، يعكل ويتمتم. خلّي لو الوقت حتى يتغير،
ومن قبل نحسن راتبو وظروف عملو اللي منها وسيلة نقل:
دراجة نارية ومن بعد سيارة ما دام عندو رخصة السياقة...

- رخصة سياقة عندو!

- شفتها بعيني... إذن زيد صار صاحب مواهب واختصاصات: مرشد عقاري، مسوّق، سائق وحارسك الشخصي. ونعيمة اللي تتغيب بدون عذر خبرتني نعمى أنها ناوية الزواج بطيار قطري، ندعو لها بالخير والسعادة. واحنا ما فيش حاجة لتعويضها ما دام عندنا زيد أفرحون...

- إذن نادي على المصري وصبريه شوية لكوني أنا عندي مانع قاهر، لكن أكدي لو أنو كل شيء يتم قبل نهاية الأسبوع بحول الله. وأنا من جهتي أدبر أمر الزيادة مع المالك اليوم أو غدا... قولي: مكالمتك، والمصري قاعد هنا، كانت مع زيد؟
- إيه طبعاً، والفكرة هي فكرته! حتى هو، تبارك الله، يقول اللي تقولييه: بيزنس إيز بيزنيس... أنا رايحه أدبر معو بعض الملفات واخبره يختار دراجة نارية، وأنت، يا مولاتي، الملفات اللي عندك تكفيك: مالك الفيلا وابنك حسان وما تنسي جمال أعني الشابة جمال...

فجأة سُمع خبط على باب الوكالة. هبت عفاف لفتحته وهي تقول: نعمى حررتها قبل قدوم حسان، وحتى بويا عمر!... تجهم وجه أسماء وانقبض ظنا منها أن الخابط قد يكون ابنها، لكن تناهى إلى أذنها صوت امرأة تبكي وتشكو، فظلت معتصمة بمكتبها تسترق السمع، ومن كلامها فهمت أنها امرأة الطابق الأخير، هربت من زوجها المعتدي عليها،

وتطلب قضاء ليلتها في الوكالة، وبعدها تعود غدا باكرا إلى أهلها في تطوان. نهتها عفاف، مؤيدة من زيد، عن ذلك ونصحتها بالذهاب حالا إلى مخفر الشرطة المركزي لتسجل شكاية ضد زوجها وتلتمس من القيمين حمايتها وقدومهم بالليل حتى يعاينوا جنائته عليها؛ أما إيواؤها في محل تجاري أو فرارها إلى أهلها، كما أكد زيد، فسيؤدي بالزوج إلى رفع دعوى ضدها بتهمة مغادرة بيت الزوجية، فيصعب وضعها ويتعقد. ولإقناعها برجاحة هذا الرأي وطمأنتها، بادلتها عفاف رقم الموبايل ووعدها، وهي تشيعها إلى الباب، بالبقاء معها على صلة.

برزت أسماء أمام المبسط، شكرت عفاف على عنايتها بالزوجة المقهورة متعهدة بمحاولة مساعدتها، كما ثمنت نصيحة زيد إليها وأشرت له بشراء دراجة سكوتر على نفقة الوكالة، اعترافا له باستقامته وحسن خدماته. وبينما هو يهتمهم بتشكراته، ودّعتهما على عجل بعد أن تلقت مكالمة من صديقتها نجلاء.

اللقاء بين الصديقتين في نادي موفينج لم يكن من أجل الاستمتاع بسباحة ليلية فحسب، وإنما أيضا للتناجي بالكلام الحريّ بالتخفيف مما ينوء به صدرهما من أكدار ومتاعب، وتعود حصتها الأوفر إلى الست المديرية، التي ما إن أرجعت أعصابها إلى نصابها بالقفزات والغطسات في الماء حتى أسرت إليها بما حدث لها مع ابنها العاق، من دون ذكر ما فعله

زيد لفض النزاع؛ وشكت لها أيضا طول أمد وضعها الزوجي المزري. فكرت في إطلاعها على لقائها الأخير بالحاج النصري حتى يكون مدخلا لمشاورتها في أمر ابنه جمال وما يطلبه منها ولي نعمتها في شأنه، لكنها أمسكت عن ذلك أو قل أحالته إلى أجل غير مسمى.

لم تجد نجلاء فائدة من إسماعها مجددا اسطوانة الصبر المشروخة، فاقترحت عليها أن تستفتي محاميا أو قاضيا في حالتها الزوجية على خلفية رغبته في التخليق وتنازلها للزوج وابنها عن دارها وما فيها. كانت أسماء قد خامرها من قبل هذا الحل ثم أدرجته بين إرجاء وآخر، لكنها شكرت صاحبته عليه ونوهت بجدته وأصالته، واعدة بالعمل به في مستقبل منظور. اغتنمت الصاحبة الفرصة لسرد حالات نساء تعرفهن، يرهقهن زواج بئيس أو مرض مزمن؛ منهن اللاتي لا زاد لهن ولا مآل إلا التقوقع أو الخبل؛ ومنهن اللاتي لا يعصمن الترف والثراء عن الشقاوة وضربات القدر، ومثلت على هذه الفئة بامرأة السكر والتراخي التي حكى عنها راضية المنشغلة هذي الأيام بإنقاذها من محاولات انتحارية متكررة. وخلصت الساردة، وقد لمعت عيناها بالدمع، إلى أنها كلما نظرت في حياتهن أو أغاثت بعضهن قدر الامكان إلا وتسنى لها أن تقيس سعد طالعها، تنصدره الصحة البدنية والعقلية التي ما زالت تنعم بفضائلها. وأهابت بها أن تحذو حذوها حتى تتنفس الصعداء وتخف؛ ثم أشارت أن ما يسعفها على نسيان ذكريات سيئة أو تحمّل مرض أمها بالأيزيمر وطول غياب ابنها الأوحـد خارج

الوطن هو إدمانها على النهل من خزانة ورثتها عن أبيها وقراءة كتب أدبية تقتنيها؛ وعرضت على الممعة في الأنصت إليها أن تعيرها أجودها وأنسبها لطبعها.

شدت أسماء على يديّ من تنعتها «أعز صديقة»، معترفة لها أن كلماتها تنزل عليها دفئا وسلاما، واقرحت أن تعلمها الغطس في الماء مقابل أن تتلقى منها شيئا من دروس الغطس في الصفحات. تضاربتا على الكفين إقرارا للاقتراح، ثم قامتا للبدء في تفعيله بالسباحة الحرة والاستحمام بالماء.

بعد مغادرة النادي، تعللت أسماء بوجوب قضاء مهمة مستعجلة، فودعت صديقتها على أمل تلاقٍ قريب، وتوجهت بسيارتها إلى صالون حلاقة وتجميل، وهنا أمضت وقتا حتى حلول الليل متلقية شتى الخدمات؛ وقبل أن تنصرف جادت على القيّمات بحلاوات، ثم طلبت من إحداهن أن تجري لها بقطعة نقدية قرعة بيل أو فاص، فأعطت الوجه وكان ذلك ما راهنت عليه.

وجها لوجه يا جمال أقابلك هذي الليلة وليس غدا، واللي يحدث يحدث. إما أركلك وإما الإياس ونفض اليدين منك... بهذا ناجت أسماء نفسها، وكلها في ذلك عزم وحزم.

ركنت سيارتها في مكان آمن، توجهت بخطى ثابتة إلى باب الفيلا، قرعت جرسه ثلاث مرات فبدا خلفه، وقد انفتح، شاب لم تشكّ الزائرة أنه ضالتها المنشودة: لامع الوجه

بالطلاء، مكحول العينين، مزجج الحاجبين... نطقت باسمه
واستأذنت في الدخول، فكان لها ذلك. جلست وقدمت
نفسها باسم مستعار فيما هو، وقد قعد قدامها، يخيرها بين
النبذ والويسكي. امتنعت وفُضلت كأس ماء. قوَّس حاجبيه
استغراباً مثلما تفعل أنثى متأصلة وسأل:

- امرأة من صنفك وما تشربي؟!

- إيش هو صنفِي يا سيدي؟

- صنف العاهرات، بائعات الهوى والمتعة، ولو أنك من
نوع لوكس.

افتعلت أسماء شيئاً من الغنج والدلال وقالت:

- إذن قرّب مني وخذ ما تشاء يا جمال...

- آه اسمي عندك! حتى أنت بعثك أبي باش ترجليني...
ما نضيع الوقت. هذا سروالي أنزّلو حتى تنظري كيف خلقت.
شوفيني وحقيقي، وبعدين خبّري بابا بالخشّي اللي شفّت
وخرج من صلبو. ودابا اخرجي وإلا عيطت على صاحبي
النائم وأسمح لو يمزقك ويعبث بك قدام عيني.

ما إن تبينت أسماء طابع الجدية والحدة في تهديد الشاب
حتى هرعت فزعة إلى الباب ثم إلى سيارتها وانطلقت ناشدة
الستر والسلامة... صدقت يا عفاف صدقت: هذا المخنث،
حتى أمهر الأطباء ما يقدر على ترجيلو!

في عشها السري استلقت الهاربة على سريرها، شاكرة الله أن نجاها من ورطة، وأقسمت ألا تعاود فعلها مرة أخرى. وحين هدأت، بادرت إلى مهااتفة صاحب الفيلا المذكورة أعلاه، وهو مغربي مقيم بين جنيف وروما، تعلم عن الحاج النصري أنه راكم ثروة هائلة بطرق غامضة، ولما تمكنت من الاتصال به، وكان في شيكاغو، عرضت عليه معطيات احتمال بيع ملكه لمشتري قل نظيره، وتعبت كثيرا في إيجادها وإقناعه بقبول الثمن الذي حدّته في عشرة ملايين درهم، أي يفوق بمليون ونصف السعر المرجو من مخاطبتها، وختمت أن الصفقة لن تتم إلا بتنازله لها عن ثلثي هذا الفرق وتحويلها الحق في تخصيص الباقي لمستحقات الوكالة والتوثيق والضريبة على الأرباح ومستلزمات أخرى. وأثناء عرضها كان الرجل يكرر متحمسا قبول شروطها وتذكيرها أنه وكلها بوثيقة وأنابها عنه في كل شيء؛ لكنها طالبت بوثيقة أخرى يقر فيها بما اشترطته ويرسلها غدا بالبريد الأسرع، فوعدها بذلك على أن تودّع من بعد نصيبه في حسابه البنكي الخاص.

بإذن من الست الرئيسة تغيب زيد عن الوكالة يوما كاملا
خصصه لشراء سكوتر وتوفير لوازمه ووثائقه. وفي عصر اليوم
التالي ركن دراجته قبالة عمارة عمله، وبينما هو يقفل محركها
ويتخلص من خوذته، تقدمت نحوه حارسة سيارات الزنقة،
وأخذت تحمق في وجهه متعجبة ثم استفسرته:

- واش أنت العساس اللي كنت كرفستك من قبل واخليت
دار بوك؟!

- هو أنا يا بنت الكلب...

- خويا كنتِ طلّعت لِيّ الدّم، ودابا زد سَبْنِي واضربني
إذا بغيت، راه (مغنية) بلا عداوة ما تكون محبة يا حبيبي/
وخلص عليك من هذ الغضبة يا طيببي... أو هاي هاي هاي،
الموتور والكاسك واللباس الزين! ما نتقدو... إذا اكرمتني
ودورت مع اختك، موتورك أمانة في عنقي... خذ بطاقتي
صوّرها وردّها ليّ غدا... سر لخدمتك وسامحني أخويا.

سلمها زيد ورقة من خمسين درهما، أخذ لها صورة
فوتوغرافية بهاتفه وهي فاغرة الفم ثم صعد إلى مقر عمله
حيث استقبلته عفاف ونعمى بالتهاني على دراجته التي

رأتها من الشرفة، وتمنتا له من بعدها الحصول على سيارة. شكرهما وسألهما عن بويا عمر، فعلم من النائية أنه أخذ قسطه من عطلته السنوية، وعن نعيمة فقالت: تزوجت، طارت مع طيار. ولما استوى على كرسيه، اطلع على ملف وبطاقات وسجل على هوامشهما كلمات في انتظار أن تذهب نعي إلى حال سبيلها، وكذلك كان. عندئذ سارع إلى استفسار عفاف عن أمر المصري، فأخبرته أنه أقبل بالأمس يطلب مزيدا من التبريرات لتأجيل عقد الصفقة معه، فكان له ما أراد ولو أنه ختم قبل انصرافه: حانتظر عشان عيون نعي... لم يابه زيد لهذا الكلام لكنه حذر من أن الإكثار في التسويف والتماطل قد يفوت على الوكالة صفقة ثمينة. طبطبت النائية على كتفه وطمأنته على اهتمام الست المديرة بالأمر وحسن تدبيرها له، ثم أوقفته ووضعت على رأسه خوذته وقالت معجبة إنها تواتيه، وشبهته بضابط ممتاز في الوقاية المدنية. تشم من حوله وسألها عن المديرة فأجابت أنها في مهمة...

وقتها كانت الست صحبة الحاج النصري في زيارة للفيلا الموعودة التي أهداها إياها عن طريق بيع لا تشوبه قانونيا أي شائبة. علامات التأثر البالغ استأثرت بها وكادت تخرسها وهي تنتقل من الصالون ذي الأثاث الباذخ إلى الغرف المفروشة والمطبخ والحمام وقاعة الصونا والرياضة، فإلى الحديقة الفسيحة ذات المسبح الفسيح والغروس الفواحة والأشجار الوارفة الظليلة.

حين جلسا جنباً لجنب في غرفة حميمية أمام طاولة خفيفة مليئة بشتى أنواع المأكّل والمشرب، بادر الحاج إلى تسليم جلسيته مفاتيح الفيلا ووثائق ملكيتها المختومة. سألته، ودمع السرور يسبقها، كيف تعبر له بالكلمات عما يجيش في صدرها من مشاعر الاعتراف الصادق والامتنان العميق، فسألها بدوره كيف يشكرها على السعادة التي عاشها في رفقتها ووفائها له بالرغم من أنه بات عاجزاً عنها. فاتحته في أمر ابنه جمال، وكانت على وشك إخباره بزيارتها له لو لم يدعها إلى نسيان موضوع امحى اليوم تماماً من مشاغله وأولوياته. وأسماء تعلم أن ما يتصدر هاته هو وضعه الصحي المتدهور واختلال وظيفة البروستات عنده. لذا كانت ليلتهما حتى منتصفها على شاكلة ليلتهما الأخيرة في عشهما العشقي: شهوانية ممتعة، ترفقها عمليات ذلك يتلقاها الحاج من معشوقته وهو في أوج الهناء والاسترخاء.

حين حل وقت الفراق، بعد أن وعد الحاج زوجته هاتفاً بعودته إليها، انفجرت أسماء بالبكاء مغالبةً إحساساً بأنها لربما لن ترى وليّ نعمتها بعد ليلتها هاته، فانهالت عليه بالعناق والتقبيل، كأنها تذخر من ذلك لأيام الذكرى والحنين. ولم تفكّ طوقها حوله إلا حين استعجل ذهابه لتناول أدويته وأخذ قسطاً من النوم، ثم أثنى على أمين الفيلا ونصحها بالاحتفاظ به في خدمتها، كما أوصاها بتوظيف سائق يحظى بثقتها، وقبلها قبلات شعر هو أيضاً أنها قد تكون الأخيرة. ختماً توجه إلى

موقف سيارته طالبا منها العدول عن مرافقته وأن تنام قريرة العين، مطمئنة.

وحيدة طافت بفضاءات الفيلا الداخلية سائلة نفسها: أكل هذي الخيرات لي؟ ثم أقفلت كل الأبواب وقصدت غرفة النوم حيث تجردت من لباسها وتهاوت على السرير الوثير، تتجاذبها أحاسيس الفرح الغامر والحزن اللاسع. وفي ظلها أخذها النوم متأرجحاً بين الهدوء والارتجاج.

صباحاً، أمضت الست ساعة في الحمام تستلذ بالماء الدافئ والتنظيف. وبعده ارتدت القميص المنشف وأخذت تفتح المخادع والخزانات، فإذا بإحداها ملأى بالفساتين وألبسة أخرى، تعلقوها بطاقة إهداء إليها وموقع عليها بحرفي ع.ن.؛ ارتدت فستاناً أزرق فكان على مقاسها، سُرّت بهذه الهبات الكمالية وخرجت إلى الفيراندا بحقيبتها، فإذا بالقيم يحييها بأدب وينعت لها طاولة الفطور وناقوساً تستعمله لإحضاره، ثم انصرف معلناً اسمه: محمود. اقتاتت بما حلا لها وطاب. انتهت إلى الساعة المشيرة إلى العاشرة، فسارعت إلى مهاتفة عفاف لاستخبارها عن المستجدات؛ علمت منها أن إرسالية من شيكاغو بالفيديكس قد وقّعت على تسلمها. كتمت ابتهاجها بالخبر، وأبلغت بالتحاقها قريباً بالوكالة، وبعدها وصلتها مكالمة من نجلاء تترجاها قبول دعوتها إلى حفل عشاء في بيتها مساء غد، فوعدها فوراً بالحضور،

وكأنها تريد بالمناسبة أن تحتفي أيضا بنفسها المشمولة بحسن الطالع والهبات الهائلة المفرحة. تهيأت للخروج، أخذت من محمود رقم هاتفه لإخباره بيوم عودتها وتعرفت على كليي الحراسة، ثم استقلت سيارتها متوجهة إلى مقر عملها فيما زخات مطرية تبشر بهطول ماء من السماء ينفع الناس ويسقي الأرض العطشى.

في مكتبها فتحت الإرسالية واطلعت على وثائقها، توهج وجهها حبورا واستبشارا في اللحظة التي أقبلت عفاف مستفسرة عن فحواها، أنبأتها بما اطلعت عليه ويسر توثيق العقد نهائيا مع المصري في أقرب وقت. كلفتها باستدعائه ومحاولة إقناعه ومن غير إلحاح بتخفيض مبلغ البيع المصرح به حتى تخف قليلا على الطرفين مستحقات الضريبة، على أن تكون نسبته معقولة غير مثيرة للشبهات. أكدت عفاف قبول مهمة اعتادت على أدائها، وتنبأت باستجابة المصري لها إما عشان عيونها أو، كما يقول، عشان عيون نعمى. ولما سألتها المديرية عن زيد ارتأت المسؤولية، تجنبا لتعكير صفو مزاجها وابتهاجها، أن تدعي أنه مصاب بركام حاد امتنع إثره عن العمل حتى لا يُعدي أحدا، وأضافت أنها عادت في بيته وتبينت أنه يتمثل للشفاء. استفسرتها عن هذا البيت كيف هو، فتنهدت عفاف ووصفته بالبيت الصفيحي غير اللائق، تغزوه رطوبة البحر وتحوله الشمس إلى فرن إذا حرّت. وعن أمه قالت إنها تعمل مؤنسة، كما يزعم زيد، عند فرنسية عجوز تعيش وحيدة مع قططها في شقة بعماراة عصرية مجاورة لدور الصفيح.

أحجمت النائبة عن مساءلة رئيستها أين قضت ليلة البارحة، كما أرجأت هاته إبلاغها بشرى تحقّق حلمها الذي حدثتها عنه من قبل، ثم وعدتها بتحسين أحوال زيد وأمه، وأوصتها بتدبير ملف المصري حالا على أن تتم الصفقة في مكتب الموثق غدا بُعيد منتصف النهار. من هاتفها دعت إلى غداء صديق الوكالة، الموثق المحنك يونس بن عمار الذي كانت له معها صفقات مربحة. في المطعم أطلّعه على شهادتي المالك: واحدة يتنازل لها بموجبها عن مليون درهم تقطع من حصته كبائع، وثانية ينيبها فيها عنه للتصرف في نصف ذلك القدر لتغطية مستحقات الوكالة والموثقية وما يليها. قرأ الموثق الشهادتين بتمعن، فأقر بقانونية منطوقهما وخواتمهما. ولما سأل جليسته عن المبلغ الذي سيصرح به، أمهلته فهاتفت نائبتها التي أبلغتها أن المشتري كان في نيته المطالبة بما تقترحه عليه وسيدفع بالسائل في الوكالة ما لن يُصرح به إن شاء الله. ولما تمت المكالمة أعلنت الست أن المصرح به سبعة ملايين ونصف من أصل عشرة، وأضافت متوردة الخدين، لامعة الابتسامة والعينين: والبونيس مضمون لك يا صديقي الأمين... حائِذ شرب الرجل كأس نبيذه على صحة جليسته ودوام معاملتهما الشفافة المثمرة.

* * *

صباح الغد، بقدرة قادر، تم كل شيء بسرعة هائلة: المصري يحضر إلى الوكالة حاملا حقيقته، يصيح: صباح

الفّل على الحلوين، يطيل النظر إلى نعمى، يسأل عن الاستاذ زيد ويقترح تشغيله إن كانت الوكالة استغنت عنه، وعفاف تقابله بابتسامة عريضة وتقول عن زيد إنه في مهمة ثم تجذبه بلطف نحو الباب للحاق بمقر الموثق حيث مواعده مع الست المديرة.

في مكتب الموثق قُدّم للأفندي والنائبة الشاي والحلاوي. بعد سويعة أقبلت الست أسماء محيية، معذرة عن تأخرها، قام الجميع لمصافحتها وتحيتها. عرض الموثق على الطرفين نسخة من عقد البيع وطلب منهما قراءة كل بنوده فالتوقيع عليه في حال المصادقة. تسلمت عفاف من المشتري حقيبة المبلغ غير المصرح به، وتأكدت بعينها الثاقبة من مقداره. إذذاك وقع الطرفان العقد ودفع المشتري شيك مبلغ البيع المتفق عليه في اسم الموثق وآخر عن تعويضات التوثيق وحقوق التسجيل والتحفيز، ثم أمرت المديرة نائبتها بتسليم مفاتيح الفيلا للأفندي حسني حسن رياض، وبارك له الجميع في ملكه الجديد، فشكرهم واسعا فيما عفاف تنهال عليه بمحفوظاتها من الأدعية المناسبة، ثم قاموا للإنصراف متصافحين، متواعدين على لقاء قريب لإتمام ترتيبات مصاحبة. انصرفت عفاف يتبعها الأفندي، وعللت أسماء بقاءها بانتظار زبون آخر.

أما زيد الغائب عن تلك الجلسة، فكان في مشفى عمومي، طريق سرير بين مرضى كثير، تلف ضمادة رأسه وعصابة

جس يدہ اليسرى ، وآثارُ رضوض على عينيه وحنكيه . كانت أمه جالسة جنبه ، ترفع يديها متضرعة تدعو على المعتدين وموصلي ابنها الأوحـد إلى «السيطار» ، وتدعو للبنت القاعدة أمامها على كرسي بالخير وأعز ما تتمناه لكونها حامت على قرة عينها وأنقذته من الهلاك . وكانت هذه البنت تواسيه وتلي ما يطلبه أو يوصي به ، كما تطمئنه على حاله وقرب عودته إلى عمله . وحدها عفاف هاتفها زيد لإعلامها بما حدث ، متسترا عن هوية المعتدين ، راجيا منها عدم إخبار السيدة المديرة بأي شيء .

وجاء في محضر الشرطة أن المسمى الزايد أمحزون تعرض لاعتداء مبرح من طرف ثلاثة مقنعين ، قال إنه لا يعرفهم ؛ وقالت حارسة السيارات المدعوة يطو أمعيز ، إنها تبعته لتذكيره بأخذ دراجته سكوتر ، فشاهدت ثلاثة شبان يجذبونه إلى درب مظلم وينهالون عليه بالضرب واللكم ، وكانوا سيقضون عليه لو لم تقاومهم وتجعلهم يفرون بصراخها واستغاثاتها ، ثم إنها ائتمنت بقالا تعرفه على السكوتر وعادت إلى الجريح لتصحبه في تاكسي إلى المستشفى .

غداة يوم عزّ نظيره، زاخِرٍ بالمسرة الجامعة، الناجمة
عن مكسب عظيم وعمولات معتبرة، استيقظت أسماء من
نومها الهادئ الهنيء في عشاها العشقي، منصرفةً الذهن إلى
ولي نعمتها بالاعتراف والامتنان، داعيةً الله له بطول العمر
المقرون بالشفاء والصحة والعافية. وفجأةً قفزت إلى ذاكرتها
أشتات رؤيا منامية مدارها مداهمة ابنها حسان لغرفة جمال
ومن معه، فطعنهما بسيف ومزقهما إربا إربا ثم لاذ بالفرار.
لكنها حمدت الله على كون الرؤيا إن هي إلا أضغاث حلم ما
فتت أن طردته وضربت عنه صفحا، كيما تدوم فرحتها غامرةً
عارمة، لا ينغصّها شيء ولا تشوبها شائبة.

يومه الأربعاء من هذا الفصل الربيعي، تريده أسماء مطبوعا
بميسم خاص ومكلا بحضور مميز في حفل عشاء عند
نجلاء. نهضت للإغتسال والنظافة، ثم جمعت بعض ألبستها
وأغراضها الخاصة في حقيبتين، ولم يوقفها إلا نقر على بابها
ودعوة عفاف لها بالخروج. استجابت الست وعانقتها بحرارة
ثم جلست جنبها في المكتب أمام مائدة اختلطت فيها صحون
الفتور والغداء. استتجت أنها نامت كثيرا ورمقت الثالثة
ظهرها في ساعتها. قالت:

- هو نوم الراحة بعد التعب والجري، وهذا القوت يحلو
الآن ويطيب... أش فعلت هذا الصباح؟

- تسلمت شيكين من الموثق، واحد باسمك والثاني باسم
الوكالة. خذي الوصلين، وغدا أحول إلى حساب المالك في
بنكه المفضل المبلغ المتفق عليه.

- واحدة مثلك عمري ما شفتها، تبارك الله عليك!

- يا حبييتي، منك تعلمت كل شيء... في الوكالة ما
فيش غيرنا، خبريني أنا القريبة منك: فين قضيت الليلة ما قبل
هذي؟ أمارات الفرحة بادية عليك وهذا يسعدني، لكن أش هو
السبب؟ وإذا كان فيه مانع، انسي سؤالي.

- لا، معك أنت ما فيش مانع... تذكري مرة ادعيت أنني
حلمت نفسي ملكت فيلا وضيعة. اليوم هذا الحلم اللي
شفت حتى وأنا متيقظة صار حقيقة. الحاج النصري، يكثر
خيرو، اشتريت منو فيلا بمالو... انت وحدك عفاف أقول لك
هذا السر...

- عمري مرة فشيت أسرارك؟ عمري مرة خنتك أو تخليت
عنك؟

- لا أبدا.

- إذن بارك الله في متاعك، واعطاك معه الصحة والعافية...
اسمعيني أعبرك عن شعوري:

ثم أطلقت زغاريد و غنّت: «هنية ألالة، هنية في دارنا»،
وأمرتتها بالقبلات الحارة الصادقة، وبكت من شدة الانفعال
والتأثر. استأذنت أسماء في الذهاب إلى العش قصد تهيين
نفسها لحفل المساء. وحين خرجت إلى البهو وسألت عن
زيد، انبهرت عفاف بجمالها الفتان وأناقته الأخاذة، وقالت
عن زيد إنه عائد إلى عمله عما قريب. وعلى عتبة الباب
أوصتها أن تبقى معها على صلة.

أتت الست متقدمة على الموعد كما طلبت صديقتها.
تعانقا وعبرت كل واحدة عن إعجابها بجمال الأخرى
وروعة زيتها وهندامها. جلستا تحت مظلة في الحديقة، فيما
إعداد الخدم لمأدبة الحفل على قدم وساق. تحادثتا، وهما
يرشفان مرطبات، في أخبار أهمها انتحار امرأة التراضي،
الذي حال دون حضور راضية حفل هذي الليلة، وحدا بها
إلى تفصي آخر سطر في قصة المتحرة. قالت المضيفة:

- صاحبتنا وافتنني بموجز حكايتي، وحكايتك تصلك منها
عما قريب، وتلح على عقد جلسة لإتمام مشروعنا.

- امرأة عجيبة (عقبت أسماء)، فيها ما يجذب وفيها ما
يحير أو يخيف!

- لا، اطمئني حبيبتي. الحياة عندها لعب ولهو، وكلنا
فيها، حسب زعمها، نمر مرور السحاب، وعلينا أن نخلف

أثر عبورنا ولو إلى حين. لها أسرار خافية عني، لكنها مش
شريرة... دعينا من هذا وخبريني عنك.

- الوكالة بخير، رقم الأعمال يتحسن. وضعي الزوجي
قار، لا جديد. متاعب مع ابني ادبرها بالهداوة... على العموم
حالي جيدة...

كانت أسماء على وشك أن تُسرَّ لصديقتها الوفية بتحقيق
حلمها اليقظ حين أقبل زوج نجلاء، وهو رجل مهذب، مهيب
الجانب، أنيق الملبس، فانحنى يقبل يد أسماء، وقال مداعبا:
- هذي شهور ما شفتك. فين الست أسماء؟ مشغولة
بأعمالها أو مسافرة، تردّ عليّ نجلاء. وحتى أنا كثير التنقل.
أش نعمل؟ هي ذي الدنيا!

- أنت يا سيدي سعد جنتلمان حقيقي والزوج الوفي لأعز
صديقة عندي. وأيّ رجل سويّ يغبطك عليها. وأنت تغيب
وأنا أغيب، وكل غيبة تزيدنا هيبة...

- الله الله على كلامك الحلو! يا نجلاء هاتني بوسة حتى
تكون لي حلاوة على حلاوة.

استجابت له الزوجة فرحةً مرحة، ثم قال قبل أن ينصرف:

- كل المدعوين يا مدام أسماء أزواج محترمين، إلا من
واحد تربطني به علاقات مصلحة فقط، له أموال يديرها ابنه،
أما هو فيسافر ويلبي كل الدعوات اللي فيها أكل وشراب، لكن

من دون زوجته. يحسب نفسو دون جوان مع أنو ثقيل الظل
وعندو العجينة في مخو. صعب أضعه في طاولة غير طاولتنا،
إذن أنتِ حببتي على يمينو وعجوز ثرثرة على يسارو، وأنا
والمدام قدامكم. ومرة مرة نتناوب على مجالسة المدعوين
في الطاولات الأخرى... أمشي الآن أطل على الباب.

نهضت الصديقتان في جولة تفقدية من رحاب الحديقة
الحافلة بطاولات المأدبة وزوايا البارات إلى فضاء الصالون
الواسع المزدان بالأثاث الفاخر ونغمات بيانو حالمة يوقعها
عازف أعمى، أشادت نجلاء، وقد دنتا منه، بموهبته الأصيلة
ومهارته المعتبرة، فرفع رأسه شاكرا، واشتم الهواء ملء أنفه
سائلا عن إسم الواقعة جنبه، قالت أسماء بعد تردد: إلهام.
ترجاها أن تدنو منه أكثر، وهمس لها بين نقرات خافتة:
اسمك يا إلهام يلهمني وكذا عطرك. معزوفتي الآن أهديتها
لك... ثم توقف قليلا وتنفس عميقا قبل أن يعزف قطعة من
أوبيرا كارمين لبيزت. وقتها كانت نجلاء مع زوجها تستقبل
فوج الضيوف الأول، تسلم عليهم وترحب بهم أيما ترحيب،
ثم وجهت بعض النساء نحو صديقتها وقدمتها إليهن: مدام
سناء زوجة الحاج الإدريسي الموجود الآن في العمرة...
وتركتها إثر هذا التقديم تخلق بدورها ما تشاء حول مهنتها
وانشغالاتها. نبرات البيانو كانت تقلل من زحم الكلام بينها
وبينهن، مما جعلهن يتدافعن نحو الحديقة وباراتها. وتلك
حيلة من حيل نجلاء اللعوبة الذكية، استعملتها مجددا مع

بعض النساء والرجال الوافدين تباعا، حتى إذا انقطع سيلهم لحقت بأسماء وبشت في أذنهما: ترين كيف عصمتك! الآن الصالون ما بقى فيه غير العجائز، ومنهم أُمي المصابة بمرض آيزايمر. سيرى سلمي عليها وما تدهشي إذا ظننتك أنت هي أنا. أما ثقیل الظل اللي كلمنا زوجي عنو فراه يتنقل وأشباهو بين أركان البارات، وسعد يقيس نجاح السهرة بالإقبال على هذي الأركان، لكن اللي خرج عن طورو يكلف من يعزله أو يسلمه لسائق سيارتو... الآن تعالي أفرجك على بعض المخلوقات.

في الفيرندا كان جمع من الضيوف يرقصون الورك أند رول على إيقاعات أغنية ري تشارلز الشهيرة *What'd I Say* ويهتفون معه: إيه... إيه... أوه... أوه... وفيما الصديقتان تديان بدلوهما في مشهد أجسام سرت فيها حمياً الموسيقى والكأس، إذا بنادل يهمس في أذن ربة الحفل كلمات مفادها أن سيدة اسمها عفاف تطلب رئيستها في شأن عاجل... ارتبكت نجلاء واندفعت صجبة أسماء إلى الخارج حيث لقيتهما الطالبة بابتسامة عريضة، وادعت أن الأمر هين، يستلزم غياب الست المديرية عن الحفل بعض الوقت لفتح مكتبها وتسليم نسخة من عقد مهم إلى رجل أعمال ينتظر الآن في المطار. واقترحت أن تأخذ الست معها في سيارتها. حاولت أسماء إخفاء انقباض وجهها واثمنت صديقتها على مفتاح سيارتها بعد أن أخرجت منها حقيبتها.

بعيد الانطلاق بقليل أوقفت عفاف السيارة وقالت: رجلك يا حبيبتى يحتضر، وهاتفك ما يُرَدّ. اجلسي خلفي، البسي هذا الجلباب، امسحي الماكياج، رشي وجهك بهذي القارورة من ماء الورد، ضعي هذا الحجاب على رأسك وسلميني هاتفك... وفيما السائقة تؤم منزل المحتضر، أجرت المنصوحة كل ذلك، وتدرّبت على الإمساك عن الكلام كيلا تترك شعورها بالانعتاق يتبدى أو افتعالها للحزن ينفصح. وحين ولجت غرفة النوم متبوعة بمرافقتها، وقف الفقيه المختار وزوجته وابنته للسلام عليهما، إلا ابنها الذي ظل على هيئته، مغمض العينين، مكبا على وجهه. انحنت صوبَ رأس المضطجع على شقه الأيمن وقبلته ثم قعدت حذاء رجله المدثرين كجسمه، وكذلك فعلت عفاف مرسله دموعا وشهقات ما فتئت عدواها أن انتقلت إلى الدانية من الترمل والمرأتين الآخرين، فهاهن الفقيه الجالس جنب رأس المحتضر، تاليا آيات قرآنية ونظره إليه مصوب. وفجأة توقف وأعلن الوفاة: هذا الرجل وافاه الأجل المحتوم، مات شاهدا مسلما ورحل عنا إلى دار البقاء، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

انحنى حسان مقبلا الميت بين عينيه، حابسا دموعه، وكذلك فعلت النساء باكيات، حتى إذا غطى الفقيه وجهه جذب الابن إلى أمه فتعانقا لحظات، وحذت حذوها عفاف معزيةً مواسية، والمرأتان الأخريان ترددان: عزأؤنا واحد، الله يقوي محبتكم بالصير... وأقبل بعض الجيران معزين،

عارضين عونهم وخدماتهم؛ ثم سهر جمع الأقارب الليل ما تبقى منه حول جثمان المتوفى، والفقيه وحسان يتناوبان على تلاوة آيات تلو أخرى. ولما أذن المؤذن لصلاة الفجر، قام الرجال لأدائها في بيت مجاور. عندئذ سلمت أسماء مفاتيح مكتبها لعفاف لتجري مكالمات وتجلب منه ما لا يوجد في ظرفين، ثم صعدت إلى غرفتها لتغسل وجهها وترتدي جلبابا أبيض استعدادا لاستقبال المعزين. وحين عادت إلى الجمع أوصت الحاج المختار بالسهر على تهيئ مراسيم الجنازة كلها، على أن تتكفل هي بنفقاتها، فطمأنها وقال إن هذا واجب عليه عينا كجار وصديق حميم للمرحوم وأخ له في الدين، ثم دعاها والنساء الأخريات إلى الغرفة المجاورة، وشرع بمساعدة حسان وجارين في غسل الميت وتجميره وتبخيره وتطييبه، وبعد ذاك لفوه في ثلاث لفائف بيض، ونقلوه في محمل إلى وسط الدار تجاه القبلة، وغطوه ببردة خضراء خيطة عليها كلمة «لا إله إلا الله».

لما عادت عفاف، تسلمت أسماء الأمانة وعلمت منها أنها نعت لبعض معارفها وفاة زوجها، ثم تحينت فرصة مقابلة الفقيه، فأعطته الظرفين خفية، وسألته عن حسان فأنبأها أنه ذهب وبعض صحبه للحصول على مئوى للفقيد في مقبرة الشهداء وتيسير الدفن قبل صلاة الظهر. وما إن انتصف الصباح حتى بدأ المعزون يتقاطرون تتصدرهم نجلاء وراضية ونعمى اللاتي ظللن إلى جنب الأرملة يواسينها متحسرات

باكيات. محتميةً بهن قدمت لهن أقارب المرحوم الحاضرين،
وجلست بينهن صامته، وراضية تهمس في أذنها: احزني يا
سّتي، احزني أكثر...

قبالة الجثمان شرع القراء في تلاوة سورة يس، وأتبعوها
ببعض الأذكار وختموا برفع عقائدهم بالأدعية للعبد المتوفى،
المتخلص من قيد الحياة الدنيا ومتاعها ومتاعها، الملتحق
بالرفيق الأعلى، ربّ العالمين وخالق الأرض والسموات
وما بينهما... وحين عاد حسان ورفاقه الملتحون، صاح
أحدهم: قُرِبَت الصلاة على الميت والتكبيرات الأربع يا
عباد الله، فلا بكاء ولا نياحة، بل تهليل وزغاريد لمن ندعو
له بالرحمة والغفران، وبالجنة يدخلها عريسا بين الأتقياء
والأخيار والصالحين. قولوا آمين وإنا لله وإنا إليه راجعون...
ردّد الجميع آمين وأطلقت نساء تتصدرهن راضية زغاريد
لما أن رأين رجالا يتقدمهم الفقيه المختار والابن حسان
يرفعون محمل الميت على أكتافهم متوجهين إلى الجامع
ثم بعده إلى المقبرة. وظلت النساء في الدار، بعضهن تبكين
وبعضهن يتناجين بالهمس والإشارات. أرسلت أسماء نعمي
إلى الوكالة لتجيب على المكالمات وتنتظر قدوم عفاف
الخائضة مع نساء أخريات في إعداد المأكل والمشرب، ثم
أنبأت صديقتها اللصيقة بها بامرأتين قبالتهن من أقارب
المرحوم توجهان إليها نظرات شبراء حادة. نصحتها راضية

أن تتجاهلهم ولا تعبأ بهما، وعانقتها ويثت في أذنها: هذي خاتمة تنبأت لك بها. صفحة إذن تطوى بشرط أن تُروى في حكاية حياتك. طبعاً الظرف غير مناسب للكلام فيها الآن، لكن ابقِ حزيناً حتى نهاية المراسيم، سيما وأنو ممنوع عليك الاحتفال بحلول السنة القادمة...

بعد صلاة الجنازة وحمل المتوفى إلى مثواه الأخير، رجع الحاج المختار وحسان وصحبه وآخرون، جلسوا في غرفة خاصة بهم، وقُدمت لهم كما للنساء فناجين القهوة والفتائر والسمن والعسل وبعدها وجبة الغداء، حسبما جرت به العادة والأعراف.

في أول أيام العدة تلقت أسماء في الوكالة تعازي زيد وبويا عمر وبعض الجيران والمعارف. أما الحاج النصري فاكتمى في ذلك بالهاتف، مطمئناً سائلته على حالته الصحية، ولو أنها استشعرت من ضعف صوته وتهدجه غير ذلك. وفعلاً لم تمض أيام حتى قرأت نعيه في بعض الصحف، وأكدته للمصدومة عفاف باكيةً، ونصححتها بالإمساك عن تعزية أهله تجنباً لإثارة أيِّ شبهات، ثم بالإقدام بعد بضعة أيام على الانتقال إلى الفيلا لا تبرحها إلا يوم الذكرى الأربعينية لوفاة زوجها، على أن تظل هي صلة وصل بينها وبين الوكالة والخارج.

قبيل مساء يوم أحد من أواخر سنة ٢٠١٢ وخريفها، غيرت أسماء بياض لباسها بلون أسود ثم قصدت إقامتها الجديدة

في سيارتها العادية صعبة نائبتها ومستشارتها الوفية. في المرأب استقبلهما القيم محمود بالحفارة والترحاب ولم يقل عن الحاج النصري إلا كلمات الترحم على روحه الطاهرة، طالبا من المالكة الجديدة إن كانت تريد إبقاءه في الخدمة أم تسريحه، أجابت بتودد وحنان: رجل صادق بحالك حرام تغييره، والمرحوم كان يعزك... شكرها الرجل متأثرا، طالبتة هي أن يكتفي بإنارة الحديقة والصالون ثم يذهب لأخذ قسطه من الراحة، وكذلك فعل.

افتتان عفاف بفضاءات الفيلا وحديقتها كان قويا، تعبر عنه بالكلمات والإشارات، ولا تفتر عن ترديد: تبارك الله! كل هذي الخيرات من فضل الله، يعطيها لمن أحبهم وقربهم، وأنت يا حبيتي منهم...

دعت أسماء صديقتها للجلوس حذاءها، شاكرا لها أحاسيسها النبيلة، ووجهها يغمره اكتئاب شديد، ثم انفجرت بالبكاء بين ذراعي جليستها، معلقةً حالتها بحزنها على وفاة رجل خير كريم لم تر ولن ترى مثيله أبداً، وقالت ستبقى متشحة بالسواد إلى آخر يوم من أربعينته، لا تغادر إقامتها ولا تقتات إلا بالنزر اليسير. عبرت لها عفاف عن تعاطفها وتفهمها وكذا عن استعدادها لتوزيع وقتها بين الوكالة والفيلا حيث تخدمها وتؤنسها وتبيت معها. ضمتها أسماء إليها متحننة ممتنة، سائلة: كيف أجازيك يا أعز حبيبة، كيف أجازيك؟

جاوبتها: بشي واحد... تقومي للنوم في الحال على أن أدبر أنا قبل نمومي وضع الغرف وحاجيات المطبخ. وكذلك كان.

في الصباح كانت المرأتان في الفيرندا حول طاولة الفطور التي أعدها القيمّ بإتقان، وظل، بعد أن حياهما، رهن إشارتهما على بعد بضعة أمتار. اكتفت عفاف بإبداء إعجابها بمهنية الرجل واستقامته. رأت من احمرار عيني جليستها أنها لم تنم جيدا وأوصتها بالاسترخاء والراحة، ثم استأذنتها في أخذ سيارتها لقضاء أغراض في منزلها والوكالة، متعهدة بالرجوع قبل حلول المساء. وفي طريقهما إلى المرأب ترجتها أسماء أن تختار من فساتينها في العش العشقي ما تشاء، هدية متواضعة. شكرتها مسبقا واستأذنتها بترحيل أثاث الغرفة السرية في الوكالة إلى منزلها مؤقتا، ووعدتها أن تتخذ لهذا كل إجراءات الحيطه والتخفي، فأذنت لها ثم قفلت راجعة إلى غرفتها لتستعيض ما فاتها من نوم ليلة البارحة، التي هيمنت عليها روح المرحوم النصري وذاكرياته.

يومه الاثنين، أنبأت عفاف موظفي الوكالة الحاضرين أن السيدة المديرية ستتغيب أياما بسبب العدة، وأمرتهما بالعمل الجدي كما لو أنها في مكتبها تنظر وتراقب. رنّ جرس الباب، تقدم رجل أجنبي حسن الهندام. خاطب النائبة بفرنسية لكناء، مفادها أنه إيطالي يريد شقة متواضعة في حيّ شعبي، لكونه مكلفا من قناة تلفزية في بلده لم يسمح لإنجاز روبرتاج عن بعض الأحياء الفقيرة، ويلزمه عنوان قار حتى يحصل على رخصة السلطات المحلية. تدخل زيد طالبا منه بطاقة تعريف فقال إنها في حوزة مساعده الذي ينتظره في طاكسي بجوار العمارة، وألح على زيارة الشقة أولا قبل أي إجراء. سمعت عفاف من زيد كلمات مهموسة لم تعبأ بها وسلمته مفتاحا واحدا يناسب الطلب في حي التقدم.

قبل التوجه إلى العنوان المسجل، أركب زيد خلفه على السكوتر الحارسه يطوّ وقال لصاحب الطاكسي أن يتبعه. أثناء الطريق كانت الفتاة تطوّق نطاق سائقها بيديها وتضع نصف وجهها على ظهره، باعثة تنهيدات وزفرات مصحوبة بكلمات تعني أنها تحبه وتترجاه أن يتزوجها، من صنف: «أنا أحملك يا حبيبي وانت تسترني و...»، فهددها بإنزالها لما سمع كلمتها

الماجنة الأخيرة. إذذاك ظلت على هيئتها تهمس بتمزيغت:
انتِي أَلْحِيْبُ جِيْبُ لِي غَ الْخَبْ، أما الْحَبَّ عَلَيَّ أنا أَلْحِيْبِيه
يَطْوُ...

عند الوصول ائتمنها على السكوتر وخودته وأشار إلى
الطاكسي بالوقوف، فخرج منه الإيطالي وشاب وسيم ذو
شعر طويل، لا تشي ملامحه إلى أي قوم ينتمي وأي جنس
يُردّ. صاحبهما إلى شقة في الطابق الثاني مكتفيا بكلمات تشيد
بتدين سكان العمارة والحي واستقامتهم وتقواهم، سيما وقد
لفتت انتباهه حركات الشاب وإشاراته المشبوهة غير السوية.
وحين استفسره الرجل عن سهم الكراء بدا له أن يثلثه دفعا لأي
مساومة في الموضوع، وكذلك فعل محدثا ارتباك الإيطالي
وعجبه من ثمن لا يصح، كما أكد، إلا في الأحياء غير الشعبية.
وقطعا للكلام افتعل زيد مكالمته هاتفية أعلن على إثرها أن
مالك الشقة وجد من يشتريها منه.

في طريق الإياب ظلت يطو على هيئتها كما في الذهاب،
حتى إذا وقف السائق أمام الضوء الأحمر اقتربت منه شرطية
وطالبتة بتقديم أوراقه وبطاقة تعريف التي خلفه. سألته عن
طبيعة علاقته بها فأجاب متلعثما: أختي... من الرضاعة...
ضحكت السائلة بكل نواجذها وقالت ساخرة: وهكذا راها
شادة عليك كل هذ الشدة!... وأضافت: رخصتك تمنع عليك
تركب شي احد من دون كاسك. خذ أوراقك هذ المرة من

حيث ضحككتني، واختك من الرضاغة تكمل طريقها على رجليها أو تاخذ طاكسي... سلم زيد ليطو نقودا وتابع وجهته نحو الوكالة.

بدا المرشد العقاري أمام النائبة ونعمى كالح الوجه، متوترا. سألتاه عما حدث فحكى لهما سخرته البائخة ونفوره من الإيطالي ورفيقه وحيلته للتخلص منهما، فضحكنا خفتا مراعاة لحداد السيدة المديرة، لكنه أخفى قصته مع يطو والشرطية. ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر، مع وجود الفارق، رأى زيد الفرصة سانحة لإطلاع المرأتين على أول خرجة له بعد تقلد منصبه الجديد، فروى ما جرى له مع رجل محتال وامرأة متنكرة في هيئة عجوز قدمها كأمه، أراد إسكانها في منزل واطىء بأي ثمن كان. ولما ذكر خروجه بترج ملحاح من الابن المزيف للبحث عن سجائر للأم المزورة لا وجود لها في السوق ثم عودته هرولة إلى الدار وقد خلت من الزاني والزانية، حيثئذ لم تقو عفاف عن حبس ضحكها، أما نعمى فأصيبت بنوبة ضحك حادة ألقتها أرضا وتحولت إلى احتباس تنفسي مصحوب بتصويبات وحشرات شبيهة بنزعات الموت، فبادرت النائبة إلى رشها بالماء ثم إغاثتها بالهواء من الفم إلى الفم آمرة زيد أن يفعل مثلها، فتردد ثم استجاب؛ وكانت على وشك الاستنجاها تنفيا بسيارة إسعاف لو لم تلحظ ميل نعمى إلى التنفس الطبيعي وصدرها إلى الهدوء بعد

الاضطرام. ساعدتها على الوقوف فالجلوس والتنفس واسعا مع استنشاق قارورة عطر، ثم أمرت زيد بالانصراف حالا وإلا عاودت المسكينة أزمتها... بعدئذ رجعت إلى مكتبها تنظر في ملفات، وتجيب على مكالمات أو تجري أخرى كان ختامها مع الست أسماء للإطمئنان عليها وإبلاغها أهم المستجدات المهنية.

أما زيد الدهش والمتأثر بما حصل لفمه من انطباق على فم نعمى، فما إن غادر باب العمارة حتى واجهته يطو متوددة مستعطفة، تتوسل إليه أن يضربها حتى ينتقم لنفسه منها ويرضى بإنقاذها من العنوسة والبوار. أنبأها أنه متزوج ولا رغبة له في الكلام، واستغرب لكونها امرأة تتحرش برجل. طأطأت الفتاة رأسها وذهبت إلى حال سبيلها حزينة مكتئبة، فيما هو يودع دراجته النارية في مرأب قريب ثم يقصد المسجد لإزالة جنابة قهرية وأداء صلواته والاجتماع في الصحن مع من اعتاد لقاءهم للتداول في أحوال الدُّوار وحاجيات ساكنته. وانضاف إلى الجمع موظف في مجلس مقاطعة يعقوب المنصور، يقطن في تجزئة السكن العشوائي من الدوار، أخبرهم أن صقور المضاربين العقاريين يحومون حول الأحياء كلها بدءاً بأرض دور الصفيح للإستيلاء عليها بأثمنة بخسة ووعود كاذبة بإعادة إيواء الأهالي في السكن الاقتصادي. وأوصى الجمع بالتحرك والتعبئة. هتف زيد متبوعا بالآخرين: والله لن

يفلحوا ولو مرّت جرّافاتهم على أجسادنا وارتكبوا في الأهالي
المجازر... وكان الهاتف صادقاً في وعيده، معرباً عن وفائه
لأناس الدوار والتحامه بقضايهم كيلا يدّعي أحدهم يوماً أنه
اغتنى و«قطع الواد ونشفت رجلاه»، كما يقول المثل...

حين عادت عفاف إلى الفيلا، ألقت الست في غرفتها نائمة. ساعدها القيم على نقل أكياس الزاد والعولة من صندوق السيارة إلى المطبخ، حيث أخذت بمفردها بعد استئذان مساعدتها تضع مواد الاستهلاك في الرفوف وتشحن الثلاجة باللحوم والأسماك والأجبان وغيرها. وبعدها انهمكت في غسل الأواني مجددا والزيادة في تنظيف المطبخ كله، حتى إذا لمحت أسماء تقصدها تلقتها بالعناق والتقبيل متقية نظراتها المعاتبة بالقول: اللي ما قمت به اليوم في بيتي أقوم به عندك. فين الفرق؟ خليني أنهي عملي وانت ادخلي الحمام وفي الفيرندا جلوسنا... عندي لك كلام كثير...

بعيد ساعة جلست الصديقتان حول طاولة حافلة بالمأكول والمشرب من إعداد القيم المنصرف إلى مراقبة بستانني يسقي الحديقة وغرو سها. أحست عفاف أن الست رقدت حتى غروب الشمس بفعل منوم خفف من سهاد ليلتها، وارتأت أن تزيح عنها قليلا وشاح الحزن بسرد بعض الطرائف المستملحة، فاكتفت منها بقصة زيد مع الزائر المحتال وأمه العجوز المزورة، فندت عنها ابتسامة ما فتئت أن صارت ضحكات طليقة متلاحقة، فترجتها الساردة أن تتلهى بأيّ

شيء، ثم حكّت لها - علّها تعتبر - ما حصل لنعمى بعد سماعها للقصة على لسان مرشد الوكالة العقاري...

انفجرت أسارير أسماء. ألقت نظرة في لائحة مناديبها بالموبايل. لاحظت اسم راضية مرة واسم نجلاء خمسا، فجاءتبتها في الحين متلقية منها تعازيها السرية في وفاة الحاج النصري، مطمئنة إياها على حالها، واتفقت معها على مرافقة عفاف لها عشيّة غد إلى عنوانها الجديد. حبذت جليستها الدعوة وأثنت على خُلق المدعوة ووفائها. ومن دون فاصل أنبأتها خبر اعتداء حسن وعصابتة على زيد قبل وفاة زوجها، إذ اضطر إلى قضاء يومين في المستشفى للعلاج، وامتنع بإصرار عن رفع شكاية ضد المعتدين وحتى عن إعلام السيدة المديرية بما جرى. وعطفا على هذا، نقلت إليها عن الحاج المختار أن الابن العاق ألغى الذكرى الأربعينية لوفاة زوجها بدعوى أنها بدعة، كما أفتى شيخ «فرقة الخرقه والتقوى» التي ينتمي إليها، وعيّن لها كمقر دار أبيه المرحوم، كما ادعى... فقاطعتها أسماء صائحة غاضبة: الدار داري وحدي وأنا حيّة... لا حق لهذا المسخوط فيها... غدا أكلف من يطردو منها هو وعصابتو...

توفقت عفاف في تهدئة روع الست وفورتها حين أعلمتها أن الحاج المختار عازم على تعبئة الجيران وإبلاغ السلطات، إذا ما فشلت مساعيه السلمية لدى الابن الضال في إقناعه بوجوب الإفراغ. ووعدتها أن تخبرها يوما بيوم بالمستجدات.

رأت أسماء الفرصة مواتية لزف بشرى إلى صديقتها طالما
راودتها فكرتها، قالت:

- تسكني داري حبيتي... بالمجان.

- يكثر خيرك، لكن...

- ما فيش لكن. وبعدين أبيعها لك.

- وثمتها أجيو منين؟

- بمالي أبيعها لك. هكذا فعل معي المرحوم النصري في
تمليكي هذي الفيلا.

- شوفت منك خير كثير! وهذا شي ما حلمت به نائمة أو
فايقة...

- أنتِ تستحقين هذا وأكثر منو. اسكني في الأول، ومن
بعد ندبر التفاصيل.

ارتمت عفاف على ولية نعمتها تقبلها شاكراً باكية.
استأنفت أسماء:

- إنما عندي طلب واحد.

- طلبك أمر يا حبيتي.

- شوية حمية وشوية رياضة وسباحة. ضروري تنقصي
من وزنك... لو كان عندي مايو على قدك لرميتك الآن
في المسبح.

- أقول شي وما تضحكي عليّ... ما عرفش أعوم!
- يا أله! سهلة... بعد أيام أعلمك خطوة خطوة.
- معك حق. يلزمي أخفّ. جبّت لك فساتينك وعلقتها في مخدعك. ولا واحد جا على قياسي!
- إذن هي في انتظارك حتى تخفيّ... والآن أش رأيك آخذ زيد بصفة سائق مؤقت؟
- والله فكرة طيبة! أكلّمه في الأمر، ولو أنّي عارفة شروطو: بدون راتب، تجلسي خلفو ويحط نظارة سودا على عينيه...
- كلميه والشروط مقبولة...
- إيه نسيت! مكافأته على صفقة بيع فيلا للمصري اللي كنتِ حدّثيني عنها، قال يقبل بالمبلغ لكن يُخصم منو بونيس لنعمى وبويا عمر.
- تصرفي يا عفاف، تصرفي...
- وآخر شي: هكتارات بوزنيقة، فيه مقاول يطلب شراءها...
- لا مش هذا وقت بيعها... فكرتي نساهم بها مع شركة متخصصة في السكن الاقتصادي ونفرض فيها أئمة تناسب عموم الناس، وتكون أرباحنا أكبر بكثير من أرباح بيعها.
- والله فكرتك، مولاتي، هائلة وما فيش أذكى منها!

- قومي الآن تفرجي على التلفزيون، وأنا ماشية أغازل
نومي...

على فراشها ظلت الست مطولا على الخط مع نجلاء،
بادلتها التهاني والتمنيات بمناسبة حلول السنة الجديدة، ثم
أنبأتها بحياتها الهادئة في إقامتها الحديثة، وعلمت منها أشياء
كثيرة، أهمها عزم راضية على الهجرة إلى أمريكا وتنظيمها
بالمناسبة ليلة السبت القادم لحفل عشاء تحت شعار *Good*
bye party، تدعو إليه عليّة المعارف والصديقات المختارات
ضمنهن السيدة أسماء. في الختام أكدت نجلاء زيارتها لها
عشية الغد، وشاورتها في اصطحاب راضية معها، فاستحسنت
أسماء ذلك.

منذ تملك زيد السكوتر، عود أمه العجوز على أخذها خلفه خلال نهار يوم السبت أو الأحد في جولة استطلاعية لشوارع المدينة ورحابها. في المرات الأولى كانت بيد تتشبث بظهره وبالأخرى تثبت خوذتها وتغمض عينيها مرددة: يا حافظ يا ستار!... أما بعدها فصارت ترخي يديها، تغمغم كلمات فرح وحبور، تغني أخرى، تدعو لابنها، قرّة عينها، لما يمتعها به من نزّهات تفرّج عنها وتشرح صدرها. وحين يكون الإياب إلى البيت تشعر بالخفة والحيوية، فتقدم أحيانا على سرد جولاتها في بر المدينة وساحلها لبعض الجارات، اللاتي يعبرن فورا عن رغبتهن في أن يكون لهن نصيب منها...

وذات صباح، وزيد على أهبة الالتحاق بعمله، ترجّته الأم أن يوصلها إلى مسجد السنة تقضي فيه يومها لا تبرحه إلا إلى الحديقة بجواره. لبى لها الرجاء طائعا. وفي طريقه أوقف درّاجته وقصد البقال في زنقة الوكالة ليشتري لأمه بعض القوت، حينئذ اقتربت منها يظّو وقالت لها كلاما. أطلت نعي من الشرفة ضاحكة ونادت على عفاف للتفرّج على العجوز أم زيد ذات الخوذة. عند باب المسجد استرجع الابن الخوذة من أمه وأخبرته أن البنت العساسة سألتها إن كان متزوجا فلم تجبها. أوصاها أن تنتظره بعد صلاة العصر وأن لا تتبعد.

عائدا إلى مقر عمله، ركن المشمول برضى والدته درّاجته في المرأب وتخطى باب العمارة، فيما يطوّ تحاول إيقافه لإظهاره، متوددة دامعة العينين، على خوذة دوكانيون اشتريتها، فقال لها ملاطفاً: الله يدخل عليك هذّ الناج بالزواج. أما أنا، مرة مرة أعطيك اللي قدرت عليه، لكن بيني وبينك حجاب الله... أوأال دَ نضواب^(١)...

حين دخل زيد الوكالة، لاحظ انتصاب حاجز من الخشب المقوى المنقوش يعزل مكتبه عن مكتب نعى. سلم على عفاف وهناها على هذا الإنجاز. جالسها كما طلبت في مكتبها وبررت له ذلك بكون البنت ادعت أنها لا تريد أن تصيبها نوبة ضحك أخرى قد تقتلها وتعصف بشبابها وأحلامها، ثم فاتحته في العرضين: البونيس على صفقة بيع الفيلا للمصري وطلب السيدة المديرة أن يكون سائقها، فكانت شروطه في الحاليتين هي نفسها التي توقعتها، وأكد أن المكافأة لا بد أن تشمل بوبا عمر وحتى نعى. وعدته بذلك وسلمته شيكا استكثر قدره ورسائل مخطوطة ليرقنها. انصرف شاكرًا واعتكف على العمل المناط به. ولما أنهاء اطلع في الأنترنت على ما تيسر من أخبار البلاد وسيرورة الربيع العربي في تونس وليبيا ومصر واليمن وسوريا. وفي انتظار أن تكلفه النائبة بعمل آخر أجرى جولة في يوتوب وبعض المواقع الإلكترونية؛ وكلما انشغلت المرأتان بالمكالمات الهاتفية، أطلق لنفسه العنان في الهمس

(١) كلام صواب.

بأزجال وموشحات وأناشيد حماسية أثيرة لديه، وذلك حتى لا تصيبها في حافظته ثغراتٌ وخروم.

ساد صمتٌ غريب لا تشوبه إلا ضحكات نعمى الخافتة، صمتٌ ما لبث أن خرقتَه ولولات واستغاثات ضاجة عمّت أرجاء العمارة، لم يشكَّ أحد أنها لامرأة الطابق الأخير. أقدمت عفاف على إخطار البوليس هاتفيا وطلب قدومهم، وصعدت صحبة نعمى وزيد وبعض الجيران لمعاينة ما يجري، فوجدوا أنفسهم أمام باب موصل لا يُسمع خلفه إلا أنين المرأة وتوجعاتها. لم تنفع توسلاتهم للزوج في فتح بابه والكف عما يفعل.

قدم أفراد الشرطة والوقاية المدنية فأرغموا المعتدي على الظهور، وضبطوه في حالة سكر فادحة وامراته مغمى عليها ينزف الدم من رأسها وأنفها. استقدموا سيارة إسعاف نقلتها إلى المستشفى، وحرروا محضر الواقعة أخذين أسماء وتوقيعات الشهود، الذين أكدوا على تكرار اعتداءات الرجل على زوجته، ثم انصرفوا مصطحبين معهم الجاني.

في هذه الأثناء كانت يطوّ في باب الأحد جالسة أمام كاتب عمومي، تعبّر له عن حبها الشديد لشاب اسمه زيد وولعها به ليلَ نهار، على أن يرقن الكاتب بكلمات بليغة شيقة أحاسيسها الحارة الصادقة. ولمّا أتم دمج الرسالة ونمّقها قرأها عليها فأعجبت بها وتسلمتها مقابل تعويض زهيد، ثم وقعتْها

بالمداد وقطرة من دمها وحوثها في غلاف معطر، ثم انصرفت
شاكراً تتبعها كلمات الكاتب: سيري الله يجيب لك التيسير
أو يشفيك من هذ الربطة الزغبية، وإذا طلع لك هذا الحب
بالصفر، ها حنا موجودين...

أما زيد فكان يصحب أمه على السكوتر إلى منزلها بعد
أن وجدها نائمة على أرض الحديقة المعشوشبة، وحول
رأسها حمامتان نقابتان. وبعدها هب إلى فضاء مقهى النقابة
الخارجي لانتظار بعض أصحابه قصد التشاور في شؤون دوّار
الكورة ودواوير أخرى. وبينما هو يترقبهم محتسباً قهوته، مسنداً
ظهره إلى سور الموحدين القديم، متصدقا على المتسولين
ما استطاع، إذا به يلمح أحرق يطوف بالساحة صائحا طوط
أطوط... طوط أطوط، كأنه يسوق عربة وهمية. وفجأة توقف
أمام زبائن المقهى مطلقا ضحكات هستيرية ما لبث أن قطعها
جراة إصابة قفاه بضربة مقلاع من أحد الأطفال المتسكعين.
لاحق الأحرق الطفل الذي ظل يراوغه بين الباعة المتجولين،
ولما تمكن منه هوى عليه باللطم والضرب، فلم يخلصه منه
إلا زيد وبعض المارة الذين أمروه بأن يزحق حالا ويغبر وإلا
سلموه للبوليس...

حين أقبل جمع الأصدقاء، وكانوا أربعة يتقدمهم بشر،
تكلموا لماما في مواضيع شتى تههم الدوار، وعرض كل واحد
ما استطاع فعله في المهمة الموكلة إليه. أطلعهم أمهرهم في
الانترنت والشبكات الاجتماعية عن وضع البلاد الذي وصفه

بالشائك والخرج، وشبه مفاصله بألسنة نارية أسيء إطفائها.
وقبل أن يحددوا تاريخ ومكان الاجتماع القادم كلفوا زيد
بصياغة شعارات مطلبية قد يحتاجون إليها في مظاهرات
إنذارية محتملة الوقوع، كما ذكروه مازحين بحسن قيادته من
قبل مجموعة عميان وكأنه واحد منهم، وأهابوا به للعب هذا
الدور أيضا إذا اقتضت الضرورة ذلك...

كان ماء المسبح المتموج ليئاً مسالماً يعكس زرقة سماء صافية الأديم. قريباً منه طاولة حافلة بأواني المأكّل والمشرب وحولها الصديقات الثلاث في جلسة حميمية يخدمهن الأمين محمود وعفاف الظاهرة المتوارية، فيما الكلبان يسهران عن بعد على حراستهن. تلقت أسماء في بدئها مجدداً تهاني ضيفتيها على إقامتها الجميلة وتمنياتهما لها بالصحة والسعادة.

هذي الجلسة وصفتها راضية بالأخيرة للحسم في ملف الحكايا قبل رحيلها المعلن إلى أمريكا، وعبرت عن استعدادها لدفع مقدمين ماليين كعربون على جدية المشروع وجدارته. بعد إعراض المعنيتين بالأمر، أشارت إلى أن حسناء امرأة السكر والتراضي قد أضاف انتحارها إلى قصة حياتها زخماً تراجيدياً مثيراً، وقوى عنصر التشويق في نسيج السيناريو المتناسل المتحابك. سألتها أسماء عن سبب الانتحار أو ظروفه، أجابتها أن المسكينة انسدت أمامها كل السبل، بما فيها الإدمان على الكحول وحتى الحشيش، إذ عانت الأمرين من عقوق عشيقها السائق وصدوده، ثم مفاجأتها له مع زوجها عارين على فراش الفحش اللواطى، فكانت هذي الفعلة هي

النقطة اللي أفاضت كأس مرارتها، ودمرت تماما رغبتها في الحياة، ودفعتها في نوبة هستيرية حادة إلى كسر كل منحوتات زوجها وما وقعت عليه يداها من أواني المنزل وأثاثه.

تنافست المنصتان في الاستلطاف والعياذ بالله، فيما راضية تستأذن في الذهاب إلى الحمام بعد أن أتمت شرب كأسها، فاغتنمتها فرصة للتشكيك في صحة الخاتمة التي وضعتها الساردة لحكاية امرأة السكر والتراخي، وأسرت أسماء لصاحبها أنها لو لم تكن في حالة حداد على موت المرحوم الحاج النصري لارتمت في المسبح تذرعه عوما من أدناه إلى أقصاه، وذلك لترطيب عجبها براضية الأسرة المحيرة.

حين عودتها بادرت نجلاء إلى تسألها عن سر معرفتها بملايسات نهاية حسناء المفجعة، فجاوبتها بلهجة لا تخلو من الانزعاج والتحدي:

- يا حبيبتى من بحث وجدّ وجد. وأنا من بعدما طلّقت مهنة الصحافة، اللي صار معظمها عندنا مجرد ارتزاق وسخافة، بقيت لمتعتي الخاصة فضولية ونقابة. إذا انتهيت إلى واقع رديء أو زفت ما يستحق يُحكى غسلته بماء الحياة، وصبغته بألوان جذابة، ونفخت فيه من روحي حتى أرقّيه إلى سدة الخيال الخلاق والتشكيل الخصب... نجلاء مش أنتِ اللي رويت لي مرة ما قالتها العرب: أعذب الشعر أكذبُه!

جرعت المتكلمة كأس نبيذها وأردفت قائلة:

- صحّ! إنما فيه شيء ما كذبت فيه. الست حسناء كانت تقول لي تحبّ تكتب موتها بقفزة كبرى في الفراغ، وتكثر الكلام في محاسن الموت الاختياري وشجاعة من ينهي حياته بنفسه، فتمجد في عالم السينما والغناء بأشهر النجمات المتحركات كميرلين منرو ورومي شنايدر والأخرى الإنجليزية... ذكريني باسمها...

هتفت أسماء:

- أُمي منهاوس...

- لكن أريد أورد زوجها الخنزير في موتها. كان معها في محطة الترحيل على الثلج بقمة جبل الأطلس الكبير. خصومة أخرى بالليل في الفندق، هددت خلالها بأخذ السيارة والنزول إلى مراكش وهي سكرانة. عوض منعها تحداها ورماها بالمفاتيح. وعند الصباح عثر عليها رجال الدرك هي والسيارة في قاع هوة على أسوأ حال... هذا الخبر عما قريب أسرّبه للصحافة ومواقع إلكترونية كثيرة وأترك التحقيق يعمل اللي عليه. التهمة: عدم إغاثة زوجة في حالة خطر من طرف زوج حقود، انتقاما من إقدامها على كسر متوجاته النحتية... سوسبانس!... الآن نرجع لحكايتك يا أسماء. تخيلي أرجوك حل لغز عشيق أختك المتوفاة...

قاطعتها المخاطبة:

- نسيتهُ يا راضية، نسيتهُ...

- لا حبييتي، مش من حقك. تخيلي لقاءك معه وما قد يترتب عليه، حلقة لا بد لحكايتك منها، وإلا أنوب عنك في تصويرها...

- إذن نوبي عليّ وخلصيني.

- سمعت يا نجلاء، أنتِ شاهدة على تفويضها... أسماء تفوّض لي أكتبها... ثم أنتِ فين وصلنا؟

- لا مشاهد جديدة من غير اللي في الملخص. حكايتي تنتهي بنهاية زواجي الأول. أما زواجي الثاني، الأحوال فيه، والحمد لله، هادئة ما فيش ما يهم الموفينكا السينمائي... RAS.

- شكرا حبييتي على صراحتك وأتمنى لك كل الهناء والسعادة...

حاشت راضية قنينة الشراب وملأت كأسها مسرعة، كأنها أثناء كلامها سهت عن أداء فريضة، وبعد تأمل ممزوج بتردد استأنفت حوارها قائلة:

- لكن عندي قصة جيدة لا أذكر فين قرأتها ويهمني إدراجها بعد تكثيفها في سياق أوسع وأمتع. هي ذي مسجلة في كراستي: عرفتُ رجلاً وامرأةً حدا بهما الحبُّ إلى عقد قرانهما. وما هو إلا عامان حتى أعلنّا أنهما، تجنبا لأبغض

الحلال وحفاظا على اتزان طفلهما، أبرما عقدا ثانيا سمياه
عقد الكلام الوظيفي، يتعهد بموجبه كل طرف أن لا يحدث
الآخر إلا عند الحاجة الماسة والضرورة القصوى: كأن يشاهدا
ببتهما مهددا بحريق، أو واحداً من الأهل في حالة مرض
خطير، وما إلى ذلك. وكل خرق لهذا الاتفاق يكون عدواناً أو
انتهاكاً لحرمة الآخر، وكل كلام تمليه النزوات والعاطفة يكون
حشواً وصداً، بل دنساً وفضلات في قرارات الانطواء على
الذات وفك الارتباط بالآخر... أحب عند هذين الزوجين
شجاعتهم في الجهر بما يكتمه أو يتلهى عنه أعداد لا بأس
بهم من المتزوجين...

حدقت راضية في كأسها مفكرة ثم حوّلت نظرها إلى
جليسيتها وقالت:

- إذا كان يخفى عليك نجلاء صاحب هذا الكلام العميق،
وأنت المدمنة على القراءة، من الغد أسأل عنو من حولي وفي
الأنترنت، فإما أجده وأشتري فكرتو وإما اقتبسها لسيناريو
وأنسبها لمجهول... الآن نغلق هذا الملف. يوم سفري إلى
أمريكا أحمل معي ملخصات الحكايا بالإنجليزية، وإن شاء
الله يكون خير...

سألتهما أسماء بصوت مستغرب حنون:

- لك يا حبيتي في بلدك معارف وأحبة، وأنا ونجلاء
منهم. مواهبك وأنشطتك كثيرة ما شاء الله! الجلسات معك

كلها حلوة وممتعة. كل هذا حاصل وتخلي وطنك وتخلينا من دونك، وفين راك رايحة! إلى قارة أخرى بعيدة، أمريكا...
- لا أسماء! سطوب، وإلا تنهدت وبكيت... الأمر يلزمه كلام طويل، لكن ملخصه أن زوجي حتى هو راغب في الهجرة، باع ما يملكه ما عدا فيلا الصخيرات اللي تبقى مو طي أقدامنا... أما أنا فبلدي المغرب فيه أشياء وأشياء غير سوية ومن المغربات. يخصني أخرج في مظاهرات رافعة لافتات مكتوب عليها ما راضياش وما راضينش... مواهبي اللي ذكرت، أنا خايقة عليها تذبل هنا وتفنى... شوفي بالمثال سميرة سعيد كيف طلعت شاطرة، تمصرت وخلت خلفها مطربات الحي يغنين مع المغبونة نعيمة سميح «ياك أرحي جريت وجاريت...». شوفي العلاقات الإنسانية عندنا: زفت وعنف، ثم الجهالات والمكايد، الزبونية والمحسوبية والفساد، وزيدي وزيدي... جائر أكون أباغ شوية أو كثير، إنما شعوري اللي يلازمني من سنين هو ما قلت... لكن ما أقول الهجرة هي الحل. كم وحدة ضعيفة أو غبية هاجرت وصارت مستغلة أو من بنات الهوى! اخترت أمريكا - وأبدا ما أتمركن - لكونها أرض واسعة تضم خمسين ولاية، إذا ضاقت بي واحدة أروح لأخرى. وفيها اللي عنده موهبة وقدرة على العمل الجاد، في الغالب ينجح وربما نجمو يسطع... إذا أعجبني الحال تبارك الله، وإلا فمعرفتي بالإنجليزية تنفعني في بلاد مجاورة هي كندا، أجرب حظي فيها، وإذا فشلت في البلد ينفعناه أنو مواهبي مجرد أو هام لا غير...

استفسرتها أسماء متأثرة:

- وعلاش ما اخترت فرنسا القريبة منا؟

- على فرنسا خليني ساكتة. قلبي من جهتها فايز...
يكفيني أقول هذي القوة الضيقة الحجم والصدر ما عاد ديكها
يصيح كما كان في عز أنوارها. العنصرية المكشوفة تلبّست
بفئات فرنسيين يكبر عددهم، والعنصرية المقنعة وصلت
سمومها حتى عند نخب مهمة. تقدّم اليمين المتطرف دليل
مخيف، وأتمنى المستقبل يكذبني... طوّلت في الكلام،
وأتعبتك يا نجلاء حتى سكّت...

نظرت المخاطبة إلى راضية نظرة ودّ وحنان وقالت:

- حرام عليك. شوفي عينيّ. ما بقى لي غير أبكي لكلامك
وفراقك، وأسماء حالها بحالي...

- إياك تبكي. المسافات ما عادت مشكل. العطل أمضيها
في بلدي. واحنا علاقتنا نتابعها بالايمل والسكايب والويكم.
وحيث أكون استقبلك أنتِ وأسماء على راسي وعيني...

في هذي اللحظة المؤثرة أقبلت عفاف معتذرة وسألت
الصديقات إن كنّ يحتجن إلى شيء. أجلستها راضية حذاءها قائلة:

- أقعدي معنا. احنا ما نتكلم في أسرار الدولة. أنا أعرف
أنك امرأة كفءة وأمينّة. أسماء تعزك وأنا بحالها أعزك، وكلنا
نفخر بك ويمكن نباهي الرّجالة.

لمعت عينا عفاف بالدمع وانحاشت إلى المنوهة بها تقبلها
وتدعو لها:

- سيري يا لالة راضية الله يخليك لنا، ويعزك ويقويك،
وينقي طريقك من الشوك ويوالي من والاك، وينصرك على
من عاداك...

- اللهم آمين يا رب... والآن استسمح في الذهاب، يتبعني
مسك دعاء الست عفاف. وموعدنا في داري مساء السبت
القادم. أعول عليك يا أسماء، أعول عليك.

قام الجمع يرافقها نحو الباب، والكلبان يخصان رجليها
بالملاسات الوديدة، سألت محمود عن اسمهما، أجاب:
روك ورول. حنت عليهما مداعبة رأسيهما وقالت: وداعا
يا روك أند رول... الوداع. ولما استوت على مقعد سيارتها
خاطبت عفاف:

- وحتى أنتِ مدعوة. وفي يوم إن شاء الله أتمنى تحكي
لي حياتك.

- حياتي! يا لالة هي كحياة ملايين النسوة... عادية، جد
عادية...

- عادية من وجهة نظرك أنتِ، لكن تصوير استثنائية من
منظوري أنا... باي باي...

أثناء ذهابها إلى فيلا داعيتها خلف سائقها الجديد زيد
ذي الكوسطار وربطة العنق الأسودين، كانت أسماء تتجاذبها
مشاعر غامضة تصرفها عن الكلام، فتكتفي بإشارات توجيهية
إلى العنوان المقصود في الصخيرات. عند قدومها وجدت في
انتظارها نجلاء التي عانقتها وصاحبتهما بين صفوف الضيوف
إلى حيث تقف المضيئة وزوجها، فاستقبلها بحفاوة بالغة
ووعداها باللاحق بها حالما ينهيان مراسيم الاستقبال. تذكر
أسماء أنها رأت الزوج مرتين أو ثلاثا، وأيضا ما قالته لها
زوجته ذات يوم من كونه تقلّب سابقا في مناصب عليا عديدة،
كما في أسرة نساء كثيرات حتى بعد قرانهما، وأنه أضحى اليوم
متقلب المزاج، قلق الطبع، قد يدعو إلى حفل في إقامته ثم
يلغيه أو يحضره قليلا ثم يعتصم في غرفته معتكفا على بليي
ستايشن ومشاهدة أفلام الوسترن والبورنو.

سألت نجلاء صديقتها:

- أترك حرة أم أحملك؟

اجابتها فوراً:

- ابقني جنبي، وعند اللزوم قدميني باسمي المستعار.
وحتى عازف البيانو اللي شفتو عندك خليني بعيدة عنو شوية...

كان البيانيسـت الأعمى يعزف كشكولا من توليفات متنوعة، فيما نساء يتناوبن على الدنو منه متهادياتٍ مترنحات، يتلقين من إحدى يديه ملامسات وطبـطبات ردفية تستحلينها فرحات. نبّهت أسماء رفيقتها إلى فعل الضرير الفاجر، فسمعتها تعلق ضاحكة: لا يرى لكنو يتخير ما تقع عليه يده؛ حاسة اللمس عندو ما تغلط. أما الرجال فقولهم واحد: لا حرج على الأعمى...

في الحديقة كان الضيوف مغاربة وأجانب واقفين أو قاعدين يتناولون ما يقدمه النُـدل المتجولون من مُقبلات ومشروبات، وآخرون يمشون الهوينى بين بار وآخر. قدّمت نجلاء صديقتها إلى بعض الأزواج: سناء الإدريسي. ربّ أسرتها في العـمرة... التقط زوجها من ورائها هذا التقديم فبث في أذنها استغرابه، وحين واجهته هي وصاحبـتها كان رفقة صديقه الجديد، فبادرت إلى القول:

- السيدة أسماء، مديرة وكالة عقارية ناجحة. صديقتي نامبر وان، وبعد التصفيات النهائية تبقى هي الوحيدة... وهذا عزيز الشاذلي...

قاطعها زوجها معاتبا:

- خـليني أولا أقبل مدام أسماء... الآن أنا اللي أكمل التعريف بهذا الرجل: بيزنسمان، خبير لدى بورصة الدار البيضاء وبعض الأبنـاك الوطنية والأجنبية، يلعب بالمال حتى

سها تماما عن زواج جديد وتكوين أسرة... صح كلامي
يا عزيز؟

تناول الرجل بلطف يد نجلاء فقبلها وعطف على يد
صديقتها مقبلا، ثم استقام وقال بصوت هادئ رزين:

- يا حبيبنا سعد، ربح المال بالمال مش عيب. السؤال هو:
نعمل إيه بفائض المال؟ نقوّي به راس المال الثابت وبقسط
منه ندعم جمعيات مدنية ومشاريع خيرية، وأنت تعلم أن هذا
هو خيارى.

أجاب سعد متوددا:

- ما ترعل منى عزيز. أعلم أنك مش مارسل لوبان. أنت
في عالم المال والأعمال استثناء، وفيك شيء من شخصية
روبان دي بووا، تاخذ من الأغنياء وتعطي للفقراء.

أفرغت أسماء كأس عصيرها وعلقت.

- أنا على رأي السيد عزيز. المال في حد ذاته مجرد
وسيلة عند الأسخياء الكرماء، ويتحول إلى معبود بين البخلاء
والمضاربين الجشعين.

أدلت نجلاء بدلوها وهي تعانق زوجها:

- فيه كاتب فرنسي، أظنّه جول روناو، على قول أثرياء أنو
المال لا يصنع السعادة أجب: ردّوه إذن...

متأهبا للمشي، قال سعد ضامّا زوجته إليه:

- كلامنا يكون لو ما بعدو. خلاصة: أنا على رأي نجلاء
ومدام أسماء على رأي السي عزيز، وكلنا على بعض،
وموسيقى السلو في الصالون تنادينا. يا الله بنا...

أضواء خفيفة تعم أرجاء الصالون الواسع، على منصة
مزينة يؤدي أعضاء جوقه مقاطع من موسيقى راقصة متهادية،
جذبت إليها فلولاً من متوسطي الأعمار، منهم الأزواج الذين
يحاولون بهذه الرقصة إحياء بعض خلايا حبهم المتآكل؛
ومنهم غيرهم يفتحون بها علاقة غرامية قد تقصر أو تطول،
وإلى هذه الفئة ينتمي عزيز وأسماء الأخذان في محاولة
تغليب الحوار التعارفي على التجاذب الجسدي. وبينهما
كذلك إذا بالتي أسكرها سحر الأنغام والرقص الناعم تبصر
الشاب عاشق أختها المتوفاة، واقفاً في زاوية وحيدا، شاحب
الوجه قلقا، يخصصها بنظرات مطردة، لا تحيد عنها ولا تزيغ...
وضعت ذقنها على كتف فارسها حتى تُشعر ناظرها أنها
لاحظته وتعرفت عليه، فيما عزيز مؤولا إشارتها إيجابيا يحتك
بها أكثر، يشتم شعرها ويطبّع عنقها بقبلات خفيفة ثم حارة.
وكم عجبت لحالها بين رجلين، واحد يضمها متعشقا متمتعا
 وآخر قبلتها يشاهدها وربما يشن ويغار.

في هذه الأثناء، كان زيد يتخندق في السيارة هروبا من أسئلة
بعض السواقين الفضوليين، ينصت من سماعة وولكمان أو يعيد
قراءة رسالة يطو متأملا مغمما زجلا يُسمع نغمه دون كلماته.

لما أبدلت الأوركسترا الموسيقى الحاملة بأخرى صاخبة،
فكت أسماء ارتباطها بالفارس وتعللت بذهابها إلى الحمام،
فهبت عجلت إلى الخارج، من دون أن يلحظها أحد من
معارفها ولا أن تقتات من سماط المأدبة في الحديقة. نقرت
على زجاج سيارتها ناهة، فخرج زيد معذرا وفتح للست
الباب الخلفي وأغلقه دونها. خيرته بين أن تتركه قريبا من بيته
أو أن يبيت في الفيلا، فأثر العرض الأول، ثم لم تنبس ببنت
شفة أو تُجب على رنات محمولها. وحين أدركت إقامتها
سلمت لمحمود مفاتيح السيارة وهرعت إلى الحمام ثم إلى
فراشها حيث استلقت دائخة حيرى.



صباح يومه الأحد استفاقت أسماء ورأسها ما زال يعج
بصور الأمس، متدافعة، خطية أو حلقيه، فأنبأت بها نجلاء
الملحة في طلبها بالموبايل، آملة أن تجد لديها عذرا لانسحابها
من مشهد لم تتوقعه ولا تشك أن لحظته العصبية لهي من
إعداد راضية وإخراجها. جأرت غاضبة: لا أسمع لهذا
المرأة تكتبني. أنا عاقلة وحررة مش دمية... لمحاولة تهدئتها
وعدتها مخاطبتها بإلقاء كل الأضواء على الأمر واستأذنتها قبل
إنهاء المكالمات في طمأنينة عزيز أن انسحابها المفاجئ لم يكن
هروبا منه كما ظن متألما، فأذنت لها.

أقبل القيّم محمود محييا، وضع على الطاولة جنب
المسيح قتيحة ماء وأخرى عصير برتقال، سألته عن حياته
الخاصة فجاوبها مقتضبا أنه بلغ عقده السابع وترمل منذ
خمس سنين، دخل بعدها في خدمة المرحوم الحاج النصري
الذي أرسله إلى الحج مرة وأنعم عليه من فضله وإحسانه. له
ابن في الأربعين لا يعلم أين يقيم وهل هو حيٌّ أم ميّت. وختم
أنه يجد راحتَه في خدمة الفيلا ومولاتها وقرّة عينه في الصلاة
والذكر... التمسّت منه أن يظل في بيته إلى أن تنادي عليه، فما
إن غاب حتى خلعت قميص الحمام وارتمت في المسيح
تتمنى من مائه الصافي المتدافع تبريد انفعالاتها وأحاسيسها،
فأكثرت من العوم طولا وعرضا وعمقا، كأنما تبغي أيضا
تعويض ما فاتها منه منذ أيام وأيام لأسباب مانعة قاهرة.

لما قضت وطرها من السباحة لمحت عفاف منطرحة
على العشب نائمة. ارتدت قميصها وتمددت جنبها محدّقة
في أديم سماء لا شتوية ولا صيفية، طالبة من زرقتها العميقة
ذرات سلام وشفاء. وحين أفاقت النائمة ناجت المتمددة من
دون أن تغير هيئتها:

- صباح الخير حبيتي وخبر الخير! ليلة البارح سهرت
في بيتك الآخر، أنظفّه وأرتب ما فيه. ها هي مفاتيحه، سلمها
لي الحاج المختار وخبرني أنو حسان رحل إلى بلد بعيد ربما
يكون أفغانستان...

نهضت المرأتان وتعانقتا بحرارة تعبيراً عن فرحتهما بهذا
الفرج الرباني ثم جلستا وشربتا من البرتقال والماء كثيراً.
أرادت عفاف تسليم مفاتيح الدار المسترجعة إلى جليستها،
فتلقت منها تأكيداً أن الدار وما فيها ستصير قريباً ملكها،
فلم تجد من وسيلة لإظهار امتنانها وعرفانها سوى إرسال
دمع غزير مرفق بسيل أدعتها الموصوفة بالتضرع والصدق.
وبعدها تناظرت المرأتان صامتتين، كأن واحدة تريد أن تُسرّر
للأخرى بشيء ما، فبادرت عفاف إلى القول:

- أنا، مولاتي، عمري ما أخفيت عنك أي شيء في حياتي.
والآن واجب عليّ أخبرك أنو الحاج محمود يميل إليّ... فقط
للمؤانسة لا للزواج...

فلتت من أسماء ضحكة خفيفة وقالت:

- وأنا في حفل الأمس عند راضية عرّفوني برجل اسمه
عزيز أظهر أنو ميال إليّ. لكن نتكلم في الموضوع بعدين.
- وحتى نعمى، المصري، رغم فارق السن، ميال إليها!...
وزيد القريب من الثلاثين فيه الحارسة يطوّ ميالة إليه، وهو
مش ميال...

- الله يستر ويبعد الشر... وزيد كيف أخباره؟

- خبرني أنو الفرنسية العجوز اللي أموتونسها مريضة، وهي
مقطوعة من شجرة، وتحب تدفن هنا في الرباط. قلت مع نفسي

نشترى منها شقتها ونملكها لزيد بعد وفاتها بالطريقة القانونية
اللي تشوفها.

- والله فكرة جيدة، لكن ننظر في الأمر بعدما أستشير
صاحبنا الموثق... وأنت شوفي محمود الميال إليك يشير لك
تاتي...

هبت عفاف تنظر في الأمر ثم رجعت تخبر رئيسها أن شابا
في الباب ترك بطاقته وتمنى التشرف بمقابلتها متى شاءت،
وركب سيارته وذهب. وحين وصفته قالت إنه متوسط
القامة، وسيم أنيق ووجهه شاحب من شدة الأرق أو شيء
آخر. لم تشك أسماء أنه عشيق أختها المتوفاة، وأن حضوره
في حفل الأمس وقدمه إليها الآن من ترتيبات الجنية راضية
وإخراجها، فاضطرت إلى إخبار عفاف بقصتها معه واستفتتها
في الأمر. جاوبتها:

- يا اختي استقبليه وشوفي اللي تحت راسو... أكيد أنو مثل
عزيز ميال إليك. وأي رجل جميل وذكي في الدنيا شافك إلا
ويميل إليك... خلّيني أهيم لك الغدا والعشا وأنظف الصالون
والغرف، ومن بعد أقصد منزلك أكمل أشغالي وأبيت فيه...
والمنزل ذا فكري جيدا قبل تحقيق وعدك لي بشانو.

قاطعتها أسماء بحدة:

- أغير رأيي إذا مرة أخرى كررت كلامك هذا. يا الله
سيري...

انصرفت المأمورة مهرولة، فخلعت الست قميصها
وارتمت مجدداً في المسبح، وكلما قطعتة عمقا ناجت نفسها:
ها أنت يا هادي الورد تخرج من غيابك، تكشف عن اسمك:
شوقي الشامي، تقف في بابي، تترجى لقائي... راضية تريد
تكتبني وأنا ماشية معها حتى نهاية الحكاية... فقط لأنظر
وأتفرج... أما عزيز فقصته شي ثاني، تفلت من الأعياب
راضية وإخراجها... قصة قد تموت في المهد أو ربما تصمد
وتتسلسل، وأكون أنا اللي أكتبها...

حين طفا رأس السابحة على السطح كانت عفاف تردد:
للمرة العاشرة وأنا أصبح يا لالة الغداء جاهز...

وبعد هذي العومة العارمة حتى المنادى عليها جاهزة.

حول الطاولة تقاسمت المرأتان وجبة الغداء، والأمين
يجيئ ويذهب بالصحون، وحالما أنهى عمله وراح
قالت عفاف:

- الكلام في شؤون الوكالة مش وقتو الآن. لكن فيه أمر
مستعجل: نعمى صارت تتغيب وتعمل وراسها مع وعود
المصري بالزواج. لا بد نشوف من يخلفها. زيد اللي الضغط
عليه كثير يقترح واحد كفء ويضمئه...

- جريبه وبعدين نشوف...

- آخر شيء، خبرت محمود أنو الشاب شوقي أخوك من الرضاعة. أنا الآن رايحة... حتى سيارتك الثانية صارت كأنها سيارتي!

أطلقت أسماء ضحكة صاخبة:

- الشاب أخي من الرضاعة! والله أنت شاطرة وماكرة... نادي عليه الآن وحددي لو الموعد هنا في السابعة وقولي لمحمود يدخلو للصالون. سيري تقضي شغلك. برنامجي لبقية اليوم حافل: دوش وقيلولة وقراءة وموسيقى ومقابلة أخي من الرضاعة...

في الساعة المذكورة صاحب محمود الزائر إلى الصالون. رحّب به وقدم له مشروباً اختاره. طال انتظاره لسيدة المقام بين أضواء خفيفة وموسيقى ناعمة. وفي هذا الجو الرومانسي الملطّف بهبات أنسام الحديقة الفيحاء، برزت الست بوجهها الصبوح الوضاء ذي ماكياج خفيف، ترتدي فستاناً أسود مزركشاً بأشكال وردية متنوعة. وقف الضيف منفعلًا وانحنى على يدها الممدودة إليه يقبلها. دعتَه إلى مجالستها وتناول ما يطيب له من المرطبات والحلاوي. سألتَه بلطف سؤالات متتالية مدخلاً للكلام. استأذنها في التدخين وسمعتَه بوجهه الشاحب جداً يقر بأنه باعث الباقات السري، وأن السيدة راضية تركت له رقم هاتفها منذ أسبوع عند حارس مقبرة الشهداء، وحينما طلبها دعتَه إلى حفل الأمس فحضر من دون

أن يقابلها من قبل أو يعلم مسبقاً شيئاً عن هوية المدعويين، بمن فيهم السيدة التي يتشرف الآن بمحادثتها. واعترف أنه تبعها بسيارته بعد أن غادرت حفل الأمس إلى منزلها.

أما عن سؤال علاقته بأختها المتوفاة، أجاب، وقد احمرت عيناه ولمعتا، أنها علاقة صوفية صرفة، أقسم أنه خلال مدتها لم يمسسها إلا مرة واحدة في بيته، بعد أن توحداً، كما قال، وصارا لدى الضم والتعنيق حرفاً مشدداً، وسكراً بخمرة الشطح والجذب، فرفعتهما ما شاء الله إلى الأبراج العلوية، مسبحين باسم الواحد الحي، ثم طرحتهما على أرض المحسوس الفانية، بين هياج الشوق العارم وغلبة الحواس الحيوانية، فكان ما كان مما ليس يذكره إلا ملسوعاً بسموم الحسرة والأسى. وختم متفوّهاً بجمل غامضة، غريبة المبنى والمعنى، نسبها إلى رجال الله وأوليائه الصالحين البررة.

أما أسماء، وهي تصيخ السمع لجليسها المنفعل المرتبك، المتصبّب عرقاً، فقد ساورها شك في اتزانه النفسي وصحة عقله، فكأنما سقطت على أم رأسها، وتكشفت لها حماقتها في شغل بالها شهوراً بأوهام سرابية ليس غير. لكنها أثرت صرف نظرها عن هذا الكشف حتى تطّلع أكثر على حالة هذا الشاب وتستبين حقيقة صفحته قبل أن تطويها تماماً.

جن الليل. دعتة إلى وجبة عشاء، اعتذر لكونه لا يتعشى أبداً. نهضت لتقريب صحن فواكه ثم جلست جنبه وأخذت تقضم نقاحة، قائلة إنها في الليل كثيراً ما تكتفي بفاكهة أو

شربة. بعدئذ، ومن دون لف ودوران، حاشته إليها وحاولت
تقبيله، فتمنّع واعتصم متعللاً بكونه عاهد روح أختها الطاهرة
أن لا يمسّ امرأة من بعدها ما بقي على قيد الحياة. لم تدر كيف
امتدت يدها إلى وجهه، فصفعته صائحة: زهرة ماتت وأنا حيّة!
استقام الشاب واقفا فبادرت إلى أمره بالذهاب وقطع الصلة
معها من دون رجعة. وما إن انصرف طائعا متعثر الخطى حتى
لاذت بفراشها وشغلت ذهنها بمتابعة فيلم بوليسي في التلفاز.

منتصف يومه الاثنين، علمت السيدة المديرة بالهاتف من مديرتها أن نعى عقد عليها المصري وسافرت معه على جناح السرعة إلى العمرة أو وجهة غير معلومة؛ كما أن شاباً، بتوصية من زيد، خلفها لفترة تجريبية مدتها ثلاثة أشهر، قبل أن يكون خلالها متعدد الخدمات.

كان على الست أن تلبي رغبة نجلاء في لقاءها. اجتمعتا حول الغداء معا في مطعم الغولف الملكي، حيث استقبلهما المدير بحفاوة بالغة واختار لهما أجمل مكان وأهداه. سارعت أسماء إلى الكشف عن سبب انسحابها الخفي من حفل راضية، ثم حكّت لها تفاصيل قصتها مع الشاب شوقي الشامي وزيارته لها بالأمس وما آلت إليه. توقفت نجلاء عن تناول الطعام ومسحت شفيتها تهيؤاً للكلام:

- يا حبيبتي أنتِ عارفة محبتي لك. كلماتي صادرة من قلبي وغايتها سعادتك ومستقبلك... أنا لا أوافقك على إساءة الظن براضية، وهي على كل حال رايحة وربما ما تعود. أما أنتِ يلزمك الآن تطوي صفحة الشاب شوقي. زوجك مات والحاج النصري مات. أنتِ اليوم حرّة! هل أنتِ واعية كم أنتِ

حررة؟ لكن الأيام تمر ويخصك زوج يكون بينك وبينو حب وتنجبي منو. أنا وسعد تكلمنا في الموضوع، شو فنا عزيز هو الرجل اللي يستحقك. إنما عندنا شرط: الرأي كله يرجع لك من بعد ضحبة كافية معه حتى يكون اقتناعك مش اقتناعنا هو الحاسم في اختيارك... عزيز ينطق باسمك مرات كثيرة ويعبر عن إعجابه بجمالك وذكائك، لكن والله ولو خطرة ما سأل عن ثروتك، وهو على كل حال أغنى منك بكثير...

حملقت أسماء في كأسها، ثم في وجه جليستها فألفت كل ملامحه تفوح بأمارات الوفاء والصدق. قالت:

- شكرًا نجلاء على كلامك الحلو. طيبوتك ما لها مثيل!
لكن خبرتيه بكل شيء عني؟

- هذا أمر يرجع إليك في مقابلاتك معه بعد رجوعو من أوروبا. إنما فيه شيء دبرته الأقدار بينك وبينو بالتعادل: زوجك الثاني مات من بعد الأول، وحتى هو فقد زوجتين، وواحدة خلقت لو ابنو الأوحده اللي يعيش في مونريال. ومثلك لا أم ولا أب... لكن أرجوك ما فيش لزوم تخبريه عن علاقتك بالمرحوم النصري... ما فيش داعي...

- صح، ما فيش لزوم... وفي أي يوم يعود؟

- الله! بدأت تسألني عنو... إذن بدأت أنا أتوفق في مساعي الحميدة.

- أقصد حتى أفكر أكثر وأرتب أموري.

- أمامك عشرة أيام. قلبي الأمر من كل وجوهو، ومن بعد
بلغيني باللي قررتّه. تسمحي أعطيه رقم هاتفك؟

- لا خليه بعدين. التاني في هذي الحالة خير من العجلة...

رن موبايل أسماء، فإذا بعفاف تخبرها هلعة أن شوقي
الشامي يوجد طريق سرير في مستشفى ابن سينا، ويترجى
رؤيتها قبل أن يسلم الروح. أخذت منها رقمه وركبته، وهي
تبلغ الخبر لجليستها، فلم تحصل عليه. إذاك هاتفت طبيبا من
معارفها تسأله عن المريض وما به. أمهلها لحظة ثم أنبأها أنه
سيُنقل بعد ساعتين إلى قسم الأمراض التناسلية في مستشفى
ابن رشد بالدار البيضاء... طلبت الفاتورة فامتنع المدير عن
ذلك بدعوى أن أحباب الأستاذ عزيز الشاذلي لا يؤدون في
هذا المطعم شيئا، وشيّع السيدتين إلى الباب مبتسما محيا.

من مكتب الاستقبال بالمستشفى رافقتهم ممرضة إلى
غرفة النزيل المطلوب، وطالبتهم بتقصير الزيارة لكونه
منهك القوى وخاضعا للإسعافات الأولية. سألتها نجلاء
عن أهله، قالت إنهم قادمون إليه هنا من طنجة. وحين دخلتا
عليه فزعتا لضمور جسمه واصفرار وجهه المحاط بأنابيب
شتى، فأشار إلى أسماء بالدنو وبث في أذنها بصعوبة متناهية
كلمات متقطعة: أختك زهرة... المرة الوحيدة اللي جامعته
بعد رقصتنا الصوفية... نقلت إليها فيروس... السيدا...
وكنت والله أجهل أنني أحملهُ... موتها في حادثة سير هو
انتحار... بالأمس في بيتك... حرّمت على نفسي... تكوني

ضحيتي الثانية... كلامي هذا أقوله أمام ربّي غدا لعله يغفر لي
ويعفو عني...

انصرم صوت المريض فجأةً وعلا لهائه. استعجلت
الممرضة الزائرتين في الخروج، فانحنت أسماء على جبهته
مقبلةً ثم انصرفت متكئة على رفيقتها، مشتتة الذهن دائخة،
وطلبت منها نقلها إلى منزلها على أن تتكفل عفاف بإحضار
سيارتها من مرأب المستشفى.

في الطريق المكتظ بحركة السير، ظلت المصدومة خرساء
لا تند عنها إلا زفرات وتنهدات. حتى إذا وصلتا واستقرتا في
الصالون جنباً لجنب انفجرت بالبكاء، وحكت بين شهقاتها
الحرى فحوى همسات المريض المرعبة، ثم اعترفت لها
بأنها بالأمس راودته عن نفسه وساءلتها عما كان سيصيبها لو
لم يصدّها ويتمنع، وجّارت: الموت بعينوا نجلء، الموت
المخجل!... ضمتها صديقتها إليها وهدأت روعها وهي
تقودها إلى مجالستها قرب المسبح، حيث نصحتها بتطهير
ذهنها من الوسوس والصور السيئة. خلعت المنصوحة ثيابها
وقالت: كلامك يا حبيبي أمر، فارتمت عارية في الماء والليل
يرخي سدوله، والقمر يلقي بضياءه على الأرض وصفحة
المياه. ولما شفت العائمة غليلها خرجت فألبستها نجلء
قميصها ونصحتها بحمام ساخن والخلود إلى نوم ناعم.

جاوبتها ملحة:

- مش من قبل ما أعرف رأيك. أنا أتصور راضية وراء كل ما حدث لي مع الشاب شوقي. تذكري كلامها: لا بد لحكايتك مع عشيق أحتك من نهاية. هو أنكر معرفتو بها، لكن هذا نفسه أكيد قالو بوضعية منها. كل شيء ممكن مع هذي الجنية، كل شيء ممكن!

- لا لا، شوية وتصيري مثلها، خيال على خيال يغلي ويفيض. الفرق أنو هذا هو شغلها وأنت لك شغل غيره... قومي باللي نصحتك به، ويصبح ويفتح واحنا على الخط...

في باب الفيلا صادفت نجلاء عفاف، أوصتها بعدم إزعاج الست إن لم تطلبها وودعتها وهي تنطلق بسيارتها.

نامت أسماء حتى منتصف يوم الغد. القرص المنوم جنبها الأرق وأضفى على ليلتها هدوء لم توقعه. بعيد الفطور هبت إلى الوكالة لتعيد الارتباط بعملها وتصرف ذهنها عما يثن به من هواجس الأمس ورجاته. حين دخولها وقف زيد والموظف الجديد محيين باحترام فائق، وفعل مثلهما بويا عمر بتحيته المعهودة. بادرت عفاف إلى تقبيل كتفها وتقديم زميل زيد بشر الرامي المتعدد المهام والخدمات. رحبت به الست المديرة وأوصته بالعمل الجاد خيرا والاستفادة من تجربة زيد وخبرته، ثم قصدت مكتبها رفقة نائبتها.

تناظرت المرأتان قليلا حول فنجانَي قهوة. تجردت عفاف

للكلام بادئة بنعي شوقي الشامي الذي أسلم الروح إلى باريها هذا الصباح ونقل أهله جثمانه إلى طنجة. ترحمنا معا على المتوفى ودعنا له بالعفو والمغفرة. لاح للست أن تحدّث جليستها عن صفحة الراحل وما حوته وهو حي، فأرجأت ذلك إلى يوم آخر، وعوضه انكبت على عقود فُسخت وأخرى ماثلة للتوقيع، ضمنها عقد تشغيل الموظف الجديد الذي زادت في راتبه وأمرت عفاف بتمكين زيد من تعويضات عن عمله كسائق، ثم سلمتها رسالة من حارسة السيارات للإطلاع، فقالت عفاف:

- هذي ثالث رسالة منها تطلب فيها خدمة كمنظفة، وتقنع بأي أجره نعرضها عليها... لكن...

- لكن أش؟ المنظفة قبلها غابت، وبويا عمر عجوز. جربها وشوفي.

- لكن زيد متحفظ في شأنها وقال لي: خديها على ذمتك، وبينها حجاب الله...

- إيه! صار هو اللي يحكم؟

- لا أبدا. البنت تحبّه وترسل لو رسائل غرام...

- إذن هي متعلمة؟

- ربما شوية، لكن رسائل الحب يكتبها لها كاتب عمومي في باب الأحد...

أطلقت أسماء ضحكة صافية وقالت:

- وفيها إيه؟ الحب حلال علينا احنا، وحرام على
المساكين! لا، خديها من الغد وحددي أجرتها بحسب
وضعها وظروفها... سيرتنا: نسعف المحتاجين بما ناخذُه
زيادة من الأغنياء.

- يا ما أنتِ خيرة وكريمة! الجنة ما خلقها الله إلا
لأمثالك... وعلى ذكر زيد، التقيت بالعجوز الفرنسية وحكيت
معها في الصفة اللي على بالك. رحبت بالفكرة بشرط يكون
المستفيد زيد وأمو...

- خليني أنظر في الأمر مع الموثق العارف بالقانون
الفرنسي في هذي الحالة...

- يا ستي اللي لُو لسان ما يتلف. أنا سألت من حولي،
وفهمت حتى من العجوز أنو فيه شيء اسمو *viager* أي راتب
عمري يتقاضاه المالك من المسمى للتمليك، وحين تموت
يرجع الملك إليه بالقانون. يبقى نعرف واش تصح الصفة بين
نصرانية ومسلم...

- وما لك يا عفاف مستعجلة من أمرك؟

- لأنني شايقة عزرائيل يطوف بالعجوز المريضة، وإذا
قبض روحها غدا أو بعده، ما بقى لنا فيياجي ولا شرا، أو
يخرج لنا وارث أو أكثر بحال الشياطين.

- اصبحت شاطرة أكثر مني. البزنيس صار في دمك
وطييعتك.

- لا حاشا! العين ما تعلو على الحاجب. كل شيء تعلمته منك. وما دمت شوية شاطرة، احنا بإذنك مقبلين على ما سماه زيد إعادة الهيكلة: نتخلص من المعاملات المتعبة الضعيفة الدخل؛ نركز على الصفقات والمبادلات المضمونة الربح على المدى القريب أو المتوسط، أي القطع الأرضية داخل المدار الحضري وخارجو والشقق هاي ستاندينج للبيع والشراء؛ نقيم للوكالة موقعها الإلكتروني يعرف بعروضها عبر بوابات وخانات متجددة، وننظم لها حملات ماركتينج بالصوت والصورة وزيارات افتراضية بالفيديو والويكم؛ نربط علاقات مع وكالات عقارية ناجحة خارج المغرب بالإنترنت؛ نجهز الوكالة بأحدث آلات الليزر للطبع والسحب والتصوير والإرسال... وكلها اقتراحات زيد والموظف الجديد بشر المتخصص في هذا القطاع؛ التنافس بين الوكالات العقارية قال بشر سوقه حامية، واللي تهاون أو غفل هزّه الما... أش رأيك؟

أجابتها أسماء مبتسمة:

- تبارك الله! باغيين تديرو ثورة في الوكالة.

- وعلاش لا؟ ثورة وزعيمتها السيدة أسماء اللي مش منها اثنين، والغاية تقوية رقم أعمالها وتوسيع نطاق نشاطها... لكن حبيبتني، أنا أتكلم معك في أمور جدية وأنت ساهية وبالك مش معي. أنا أبداً ما أخفي عنك

أي شيء. أنت بمثابة أختي الصغرى ويهمني أعرف
ما بك...

أطرقت أسماء قليلاً ثم نظرت إلى جليستها بعينين لامعتين:
- فيه رجل بدأ يدخل في حياتي، سبق ذكرته لك. تعرّفت
عليه بواسطة نجلاء وزوجها في حفل عند راضية.

- كل ما يجي من نجلاء فيه خير، هي تحبك وما تشوف
غير اللي فيه سعادتك.

- صح... قالت عنو ما يفوق الوصف. أخلاقه، احترامه
للمرأة، كرمه... هو الآن مسافر ويرجع عما قريب.

- وعما قريب تقابليه، وعما قريب تاخذه، وعما قريب
مولود نفرح به! تسمحي أزغرد.

- لا مش الآن... بعد شهرين أو أكثر أعول على زغاريدك
حتى يبح صوتك.

- أزغرد وأزقص المغربي والشرقي. أشمر على ذراعيّ
وأخدمك في عرسك حتى تسعدي بزواجك من هذا
المحظوظ السعيد... اسمه؟

- عزيز الشاذلي، خبير مالي...

- عزيز... اسم حلو! الآن يا عزيزتي ضروري أراقب فين
وصل الطاقم. فيه رواج للعروض والطلبات لا بد نبدأ نبث
فيها...

- تريشي شوية... تذكرى أم خالد، ولدت ذكر، ورجلها وهي في قمة الفرح. سيري هنيها واعطيها من عندي هذ الهدية. قولي لها غادية أزورها بعدين. وهذا غلاف آخر سلميه للحاج المختار، قولي لو الخير قدامنا. الرجل فقير، زوجته مريضة، أخته مطلقة في وجدة وبنته عانس... وأنت هذي نسخ عقد تملكك داري بحي الليمون. وقعي عليها حتى تصبح عند الموثق.

ترددت عفاف من شدة الانفعال والفرح، فاستعجلتها مهددة:

- وقعي وإلا بعد رقم ثلاثة أغير رأيي: واحد... اثنين...

تناولت المأمورة القلم بتؤدة ووقعت وعيناها تفيضان بدمع ممزوج بالكحل، وبعده أخذت تمسح عينيها وخديها. قالت:

- الدموع عقدت لساني، وقلبي يخفق لكل هذي الأفراح والشارات... تسمحي حببتي أذهب...

انتقلت عدوى بكاء المنسحبة إلى أسماء، فغالبتها بإجراء مكالمات كان آخرها مع الموثق الصديق. أما عفاف فقد أجرت مع الشنائي اجتماعا قصيرا قبل أن تأذن للجميع بالانصراف، ثم انكبت على مراجعة رسائل حررها ورقنّها بشر. كان زيد آخر المنصرفين، وفيما هو يجوز بهو العمارة الأسفل اعترضته يطو مادة رسالة إليه، أظهرها على الأولى في جيبه فاستطارت ابتهاجا وتبعته تقول: رسالة حبي في جيبك! بجاه المصطفى

حبيبنا محمد رقق قلب الرايسة عليّ حتى تعطيني خدمة.
وأنت والله ما أخيب ظنك أو أشوش عليك...

في يومه الخميس، تم تملك دار أسماء القديمة لعفاف
التي تخلصت من عبء كراء شقتها ورحلت إلى سكنها
الجديد، كما أن الوكالة اشترت من الفرنسية العجوز شقتها
وأبقتها فيها مكترية بشرط تساكنها مع زيد وأمه، وهي الصيغة
القانونية التي فضلها الموثق وأفتى بها.

ظُهرَ اليوم نفسه ساق زيد سيارة الست المديرة، وهي
جالسة على المقعد الخلفي، متوجها، كما طلبت، إلى مقبرة
الشهداء. حين توقف في المرأب فتح لها الباب بطريقة مهنية
وسار وراء المرتدية جلبابا وحجابا إلى قبر قصده فنان، وأمام
ثالث على شاهده اسم الحاج عدنان النصري أمضت وقتا
أوفر خاشعةً مترحمةً باكية، يصحبها بضعة قراء يتلون آيات
بينات ويختمونها بأدعية لروح المنتقل إلى جوار ربه. وفي
نهاية الزيارة تصدق زيد عليهم، وقصد بوابة الخروج والست
تمسك بذراعه اتقاء التعثر أو فقدان الوعي من شدة الكمد
والتأثر. ولما بلغا السيارة فتح زيد بابها الخلفي كما العادة،
فأغلقت بقوة ونعتت الباب الأمامي فنقذ. جلس وشد على
المقود بكلتا يديه مغالبا ذهوله وارتباكاه؛ ثم خلعت نظارتها
ونظارتها الشمسيتين وحدقت في وجهه مشيرة إليه أن يفعل
مثلها، فاعتذر متذعرا بواجب الحيطه والحذر في السياقة،

ولو أنه رمقها بنظرة عجلي مرتين . عندها نطقت بكلمة الإقامة وجهتها القادمة، وسمعتة يتلعثم بعبارات الشكر والامتنان لتمكينه وأمه من سكن جيد لم يحلما يوما بتملكه والتمتع به . اكتفت بإيماءات لطيفة، حتى إذا أوصلها إلى مقرها، أخذ دراجته وعاد إلى عمله بالوكالة، كما أمرت .

في خطوط التماس بين فصلي الربيع والصيف من سنة ٢٠١٢، تدافعت الوقائع والاحداث بوتيرة لم تعهدها أسماء من قبل. الوكالة تكتسب حُلة جديدة من حيث تحديث أجهزة العمل ووسائله، وكذلك إعادة تنظيم المكاتب والفضاءات؛ الفتاة يطوّر تشريع في عملها الجديد كمنظفة ومساعدة عند الحاجة، وذلك لقاء أجر لم تكن المسكينة تحلم به، مما جعل زيد يدّعي مازحا أن للوكالة الحق في الافتخار بكونها حققت المناصفة بين الجنسين في طاقمها العامل؛ عفاف أخذت تخالجها فكرة اقتراح نقل مقر الوكالة إلى آخر أوسع وأجمل في عمارة حديثة ذات موقع مميز وخدمات جيدة، لكنها أثرت إرجاء الكلام في هذا الشأن مع رئيستها المشغولة طوال هذي الأيام بعزیزها ومآربها الخاصة.

وفعلا، أسماء منذ أذنت لنجلاء بتمكين عزيز من رقم هاتفها وهي تحادثه مطولا حيثما يوجد في مونريال ودبي وجنيف. ويوم عاد إلى المغرب استقبلته في إقامتها حول مائدة غداء أحسن محمود إعدادها. رحبت به أيما ترحيب، وتلقت منه كلمات طيبات صادقات. لم يسألها شيئا عن ماضيها، لكنها بادرت إلى الكلام الموجز عن زوجها

المتوفيين وابنها المقيم في الخارج، فأقر بتطابق وضعيهما في هذا الشأن، وأشار إلى تطابق آخر، الوحيد الذي أطلعت عليه نجلاء، وهو هواية السباحة، معترفاً أن كثرة أعماله لا تسمح له بممارسة غيرها في مسبح إقامته بالدار البيضاء. والتمس منها أن تُكسبه بعض المهارات في هذي الرياضة النافعة الكاملة. كان شرطها أن يلقتها شيئاً فشيئاً من علمه الزاخر في عالم المال والأعمال، كاشفةً عن معرفتها بشهاداته العليا من أشهر المدارس والجامعات في أوروبا وأمريكا. وبالمناسبة أطلعت لماماً على إدارتها لوكالتها وين وين أو المرابحة، فأعجب بالتسمية ودلالاتها الإيجابية؛ كما حدثته عن أعضاء طاقمها ونوهت بنائبتها ويدها اليمنى عفاف، فبارك لها في مقاولتها وعملها من دون أن يسألها عن رقم أعمالها مثلاً، ولا عن رأس مالها أو ممتلكاتها الخاصة، واكتفى بالتعبير عن جعل خبرته رهن إشارتها قدر الإمكان، مظهراً كثيراً من التواضع والكياسة. شكرته بحرارة على لطفه وعنايته، وخطر لها أن تسأله عن طبيعة علاقاته ونوعية شركائه والمتعاملين معه، لعلها تستدرجه من بعد لبعث ولو إشارات عن حياته العاطفية، لكنها أحجمت عن ذلك تجنباً للتسرع والإحراج، فقتعت بالإنصات إليه ملياً، وهو يصف عامة الفاعلين في أسواق المال والبورصات بمجانين المال وعبداء الأرباح السريعة الفاحشة، شعارهم أن تفترس أو تفترس، تصدق عليهم، كما ذهب، الآية الكريمة ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا، ووسم أغلبهم

بالمضاربين الصعاليك، والوحوش الضارية، وأشرسهم في تصويره برنار مادوف، رئيس إحدى أهم شركات الإستثمار في وول ستريت، مارس الغش والتزوير، وخرب حياة كثير من الناس، وحُكم عليه في ٢٠٠٩ بالسجن لمدة قرن ونصف. وابنه الذي استفاد من عمليات أبيه الإجرامية انتحر من شدة إحساسه بالخزي والعار. وأمثال مادوف الصغار ما زالوا يحكّمون شريعة الغاب، ولا يتوانون في التآمر على المذخرين البسطاء كما على قيمة عملات وطنية وحتى قارية، ومثل بمنطقة الأورو ومنها اليونان التي أصبحت دولتها على حافة الإفلاس وطبقائها الدنيا وحتى الوسطى تعاني يوميا من شظف العيش وضائقاته ومن العواقب الوخيمة الأخرى لأزمة خانقة متفاقمة؛ ثم استثني من كل أولئك فئة قليلة تمنى أن يكون منها، تعمل ضد اقتصاد الكازينو وزوابعه الجارفة، وتدعو إلى عقلنة أسواق المال والاقتصاد وضخها، ما أمكن، بالقيم الانسانية العليا التي تعطي للحياة دلالة وطعما...

سكت لحظة مستلذا بأكل سمك صحنه ومثنيا على طازجه، ثم ختم قائلا: المال يا ستي أسماء خادم جيد، لكنه سيد سيء... بعد عودتي من مهمة في برازيليا يكون لي إن شاء الله شرف إطلاعك على مسببات الأزمة الاقتصادية القائمة. وقبل موعدنا القادم شوفي في الإنترنت موضوع أزمة العقار في إسبانيا حتى نتحدث عنها، وطبعا أنت في هذا القطاع مهياة لفهم مكوناتها وأسبابها... خطر للممعة في الإنصات أن

تقول له ما تعلمه في هذا الشأن، لكنها استحييت كما التلميذة الخجولة أمام أستاذها، لا سيما وأنه أردف قائلا: أدعك الآن في رعاية الله. آسف لكون *Time is money* هو شعار أمثالي، ولو أنني أذكرهم مرة مرة بأنو الزمن هو كذلك زمن التأمل في الحياة والتمتع بها...

كانت أسماء ترشف كلمات جليساها الموشاة بالدقة والرقّة، تجرع جملة النيرة البليغة، راجية لو أن دفعها الدافع يدوم وتيارها الناعم لا ينقطع... وقف ذو الهامة والهمة - هكذا تبدّى لها - فوقفت مشرّبة بعنقها إليه، متودّدة، متمنية له سفرا سالما وعودة ميمونة، فانحنى يقبل يدها ثم خديها، ووعداها بالبقاء معها على صلة أيام غيابه. وعلى مقربة من باب الخروج التفت إلى محمود المبدي علامات التبجيل والإحترام، وأوصاه بالسست خيرا، ثم نعت رجلا قويا عملاقا فقال لمصاحبتة: شوفي هذا الغارد-كور دايمّا تابعني بحال ظلي. فيه جهات خايقة عليّ... بدا لأسماء أن تسأله هل له واحدة بمثابة *garde-cœur* فأمسكت واكتفت بالتلويح له فيما العملاق يفتح له باب 4x4 الخلفي ويجلس حذاء السائق؛ وظلت هي كذلك إلى أن غابت سيارة السيد عزيز تماما.

بعد ذاك استمعت لمحمود يستفسرها عما يفعله بهبة مالية من الزائر الكريم، فسمحت له بأخذها ما دام لم يطلبها، وأمرته أن يراقب عمل البستاني ومنظف المسبح دون أي خدمة أخرى، ثم هرعت إلى الحمام وأخذت أمام المرأة

تلامس بأصابعها خديها وتقبلها هامسة: حتى أنا خائفة عليك يا عزيزي، والله خائفة عليك أكثر من أي مخلوق آخر... ثم ارتمت على فراشها تتقلب فيه، تعانق الوسادات، مغرقة فكرها وجوانحها في ما يحدث لها، فلم يلبسها عن ذلك إلا صوت نجلاء مكبراً في الهاتف:

سألتها: عملتِ إيه في الرجل، يسبح باسمك بعد الله، ويلخص انطباعو عنك: امرأة رائعة!...

أجابتها: وأنت حبيبتي حرام عليك. سلطت عليّ هذا جتلمان والخبير المذهل، وأنا مش قد مقامو وعلمو. ورغم هذا راني الآن مهووسة به ومحال أنام الليلة...

ردت نجلاء: راضية مسافرة ليلة غد، وأنا مشغولة معها. ممكن نمر نشوفك في الوكالة غدا في الصباح. هي رغبته تودعك، وبشر في ما تعلم شيء عن علاقتك بعزيز... خلاص اتفقنا...

عقب انتهاء المكالمات، لاذت أسماء بالسبوح في الإنصات إلى موسيقاها المفضلة، مرخية العنان لأحلام يقظة، فارسها الأوحده عزيز، هذا الوافد الجديد على حياتها، والمرشح الأقوى والأحلى لترقيتها وإسعادها. وظلت كذلك ساعات طوالاً، حتى إذا حل الليل اندست في فراشها مستسلمة لنوم لين لم تنعم بمثيله من قبل.

* * *

قبيل حلول الموعد كانت يطّو قد أعدت على مائدة الست
المديرة كل ما أمرت به عفاف من مشروبات وحلاوي.
استقبلت أسماء صديقتها بالعناق في بهو الوكالة، تمت
لراضية الشفاء العاجل ليدها اليسرى الملفوفة في الجبس،
وعللت نجلاء هذي الوعكة بكون الفارسة حزنَ فرسها لفراقها
واستاء، فأسقطها من فوقه سقطه خفيفة؛ ثم إن الجميع وقفوا
محيّين بإيماءات تقدير وإكبار. طلبت راضية من مضيفتها أن
تقدم لها أعضاء الطاقم، بادرت عفاف الغنية عن التعريف
إلى تلبية طلبها بإيجاز، ثم دعته إلى تشريف صالون الست
المديرة، فاستجابت وهي تطيل استراق النظر إلى زيد.

حول المائدة رحبت أسماء براضية في أول زيارة لها
للوكالة، سألتها الزائرة:

- عزيزتي أسماء، جلستنا للأسف قصيرة. هذي الرسالة
المختومة هي مني إليك. أمنيّتي تطلّعي عليها وأنا غائبة حتى
تحسني الظن بي ونظل صديقات العمر... عشنا لحظات
جميلة وأخرى شوية صعبة، الأولى هي اللي تبقى وتذكرها...
إنما الشاب زيد وحتى زميله مش غريبين عليّ...
قاطعتهما نحلاء:

- لا يا راضية، الحكايات انتهينا منها خلاص!
- طبعاً حكاياتنا وضعنا لها نهايات، وهي في طريقها إلى
وكالة هوليود اللي تكلمت عنها... لا، أنا أسأل فقط عن زيد

فين شوفته من قبل، فين؟... لا يهم، ننسى الموضوع... الآن
حان وقت غود باي، قومي نجلاء نمشي. أغراض أخرى
في انتظارنا.

نهضت الستات وتعانقت راضية وأسماء عناقا حارا، وفي
البهو جددتا العناق حتى البكاء، ثم أخذت راضية تحملق في
وجه زيد وصديقه، ثم هتفت في اتجاههما بعينين محمرتين،
رافعة شارة النصر:

هذي وقفه سلميه والمبادئ حقوقيه...

تردد الشبان ثم هتفا بدورهما:

هذي وقفه سلميه وقِيمنا تحريره
الحركة سلميه والحراك بلا عراك
الفساد الفساد هو عدو هذا البلاد
ما مفارقينش ما مفاكينش وعلى الظلم ماراضينش وما راضينش

أمام ذهول المديرية ونائبتها وتمادي بويا عمر في تحاياها
العسكرية وانضمام يطو إلى الهاتفين، جذبت نجلاء راضية
إليها تنهاها عما هي فيه، فسكتت معتذرة وقالت:

- صديقتنا تفسر لك بعدين ما حدث يا عزيزتي أسماء.
وانت يا ست عفاف تركت لك عند نجلاء حوائج والكثير من
الأثاث، وزعيها بينكم، وما تنسي هذي البنت... أش اسمك؟

ارتعدت فرائص المنعوتة وأجابت متلعثمة:

- يا لالة... اسمي يطّو.

- إذا كنتِ عزبا سيري الله يجيب لك شي فرططو...

قالت راضية دعاءها هذا وقد اجتازت عتبة الباب وأخذت تنزل الدرج مع رفيقتها. توجهت المديرية إلى مكتبها، وبعد لحظات التحقت بها النائبة وأبلغتها سبب ذلك المشهد المثير للدهشة والعجب، بعد أن استقته من زيد وصاحبه، وهو أن الست راضية كانت منذ سنة ويزيد تشاركهما محجةً مظاهرات حركة ٢٠ فبراير، ويرددون مع الجموع شعارات أسمعونا بعضها، وكلها من صنع زيد حارس السيارات سابقا والمرشد العقاري حاليا. والتمست عفاف من رئيسها أن تقبل اعتذارات الجميع وتسامحهم، وسمعت منها كلمات تفيد قبولها وأخرى تعبر عن عجبها واستغرابها من راضية المحيرة والفريدة من نوعها، وتمنت ألا تكون الرسالة التي تركتها لها قنبلة مسيلة لدموع الكرب والأسى جراء مفاجئات غير سارة.

استأذنت النائبة في العودة إلى مكتبها، وظلت أسماء وحيدة، عينها على هاتفها، لا تفكر في شيء آخر غير عزيزها، تُردد كلماته وتُجمّله، وتستعذبها بحواسها وكيانها كله. سطرت كلمات على جذاذات حتى تبحث عن تعاريفها ومعانيها في ما تتوفر عليه من معاجم وفي غوغل ويوتوب، ومنها أرسن لويان، روبان دي بوا، أزمة العقار الإسبانية،

مضاربات الأسواق المالية... وفيما هي تفكر في أخرى رنّ هاتفها، ففتحته فوراً وإذا بنجلاء تشرع في شرح سبب مشهد الشعارات، فقاطعتها بأنها عرفت السبب وبطل العجب، لكنها ساءلتها لماذا راضية خاطبتها بكلمة عزيزتي على غير عاداتها من قبل. أقسمت المسؤولة أن الأمر مجرد مصادفة، لا تلميح فيه إلى عزيز، ثم وعدتها بلقاء قريب...

عودا إلى إقامتها، أثرت أسماء تأجيل قراءة رسالة راضية
تجنبنا لما قد يعكر صفو خاطرها وجنوحه إلى الذي بات
يقيم في قلبها وتتردد كلماته العلية بين صدرها وذاكرتها.
فتحت بريدها الالكتروني فطالعتها فيه رسالة منه نزلت عليها
دفئا وسلاما؛ يعبر بالفاظ حرة متقدة عن شوقه إلى رؤيتها
ومجالستها ورغبته في محادثتها، واعداء إياها أنه من أجلها
قد يقصر أيامه في الخارج. سارعت فورا إلى إجابته بكلمات
معتدلة الاندفاع والتوق إليه، ولو أنها ختمتها بما لم تستطع
كبحه والسكوت عنه: ترقبها للقائه على أحر من الجمر.
سحبت الرسالة ورقيا، وأخذت على فراشها متقلبة تقرأها
مرارا وتكرارا حتى حفظتها عن ظهر قلب، وظلت تستحلي
كل مفردة على حدة، متأولة رقتها وشذاها تأويل البشر
والخير، متمنية سماع صوته على خط هاتفها...

وقتها كان زيد، صحبة بشر وآخرين، يصيد السمك بصنارته
في الساحل البحري المقابل لحيه، ويطلع هو بدوره على رسالة
يطو إليه في انتظار أن تؤتي الطعمة أكلها؛ رسالة هي الخامسة
أقسمت باعتمادها في مطلعها أنها كتبتها بنفسها وبخطها، وتبدي
له صدق دعواها من كلماتها وجملها البسيطة المعبرة، البعيدة

عن أسلوب الحذقة والتصنع. واستقى من قراءتها مرتين أن
 للبت حظاً من التعليم وحباً تكنه له صافياً بريئاً لا غبار عليه،
 هذا علاوة على استقامتها وحسن سلوكها في الوكالة. شيء
 واحد لم يستسغه في الرسالة، ولو أنه قابل للتصحيح، هو أن
 تناديه: يا فَرْطَطُو ذِيالي، متأثرة ولا شك بورود هذي الكلمة
 في دعاء راضية لها بالزواج. وبينما هو منصرف الذهن إلى يَطْوُ
 وما يحوم حولها إذا بالصنارة تأخذها رعدة حادة، فسارع إلى
 سحب سلكها، فيا لِسُروره لما اصطاد! سمكة شبوط سرعان
 ما عكست له صفحتها الناصعتان وجه المتعلقة به، الآخذة
 في ترويض قلبه، فصاح من حيث لا يشعر: صدقت يا بشر!
 هذي ربطة زغبية والفاتحة زيدية، ثم التف حوله رفاق الصيد
 وهناؤه على غنيمة المعتبرة. ولما امتلأ نصف سلته بأسماك
 أصغر حجماً، ودعهم على أن يلحق بهم ليلاً في مقهاهم
 المعتاد بالقاهرة للتحادث في قضايا الدوار وأخرى متنوعة...

* * *

عزيز وعد وأوفى. ها هو يؤكد لأسماء بالهاتف تاريخ
 عودته القرية إليها، يضرب لها موعداً في إقامته بالدار البيضاء،
 يزودها بعنوانه وأرقام هواتفه.

يومه السبت فاتح مارس ٢٠١٣ تاريخ سجلته أسماء في
 ذاكرتها ووجدانها بأحرف ذهبية بارزة. في صباحه توجهت
 إلى داعيها يسوقها زيد في سيارتها مرسيدس الحمراء. طوال
 الطريق، جالسة على الأريكة الخلفية جنب باقة ورد فاخرة،

لم تنبس سوى بكلمات إرشادية لفرط ما استأثر بها الفرح
والانفعال بلقائها المرتقب مع عزيزها وفارس أحلامها...
على عتبة عمارة هاي ستاندينغ استقبلها حارسه الشخصي
الذي نعت لزيد مدخل مرأب السيارة ورافقها محييا في
مصعد سريع، أفضى بهما إلى بهو وسيع ذي باب واحد يقف
عليه المضيف ببدلة بيضاء أنيقة، فتسلم منها الباقة مقبلا مرحبا
ورافقها إلى الصالون حيث انحنى لها خادمة جميلة وتلاها
خادم شاب قال عزيز إنه زوجها، فانبسطت أسارير الضيفة
وأخذت تعبر عن إعجابها بفخامة المنزل ورونق هندسته
وأثاثه وجمال لوحاته التشكيلية ومنحوتاته. أخذها عزيز من
ذراعها وعرفها على غرف الطابق السفلي وفضاءاته ثم على
الطابق العلوي حيث دُهِشت وسُرت باحتوائه على مسبح
فسيح مغطى. استحلت احتكاك مرافقها بها وقالت متعجبة:

- هذي فيلا هائلة معلقة!

- في الطابق العشرين، الأخير. مساحتها ٤٠٠ م^٢... وهنا
جنب المسبح نجلس، وفيه قبل الغداء يكون سباقنا...

- سباقنا؟ مش ناوية أعود. ما أخذت معي المايو.

- عندي لك واحد من طراز فريد.

- ما استعمل مايو العشيقات.

- حرام عليك! قلت لك من طراز خاص. أصنع لك مايو
حواء من ورق التوت.

- نشوف الأمر بعدين.

أجلسها قبالة حول طاولة حافلة بشتى المشروبات، ضغط على زر فمثل الخادم وأخرج زجاجة شامباني من سطلها وفتحها. نعتت أسماء عصير طماطم، لبى طلبها وسقى المجلس المندھش ثم انسحب... دار الحديث بينهما لماما عن نجلاء وزوجها سعد، فتوافقا على التنويه بأخلاقهما العالية ووفائهما لمن يختارونه للعشرة والصدقة. تنهدت أسماء وتأسفت لكون جل الأزواج ليسوا مثلهما!

سألته عن راضية وبعلمها، فأقر أن معرفته بالأولى ضعيفة، وعلاقته بالثاني دامت بضعة شهور منذ زمن مضى وانقطعت بسبب خلافات في التعامل والسلوك؛ ثم اعترف أن تلبيته لدعوة راضية تمت بإلحاح من نجلاء وزوجها، وأثنى على صنيعهما، إذ مكناه من التعرف على امرأة رائعة حسناء اسمها أسماء، التي شكرته على وصفه لها، وأيدته في الشاء على مسعى الزوجين المتحابين الخيرين.

بدا للجلسة أن تأخذ هذه المرة بزمام المبادرة في المحادثة وإبداء مشاعرها، قالت:

- أنا يا عزيز لا أشرب الخمر ولا أدخن، لكنني أحداث... صحتي رأس مالي ولا أريد الإساءة إليها. ربما ترى في السكر ما يسعف اللسان على الانفتاح والبوح؛ أما أنا يكفيني أي عصير وحتى الماء لأعترف لك أنني من لقائنا الأول حتى

الآن سكرانة بحسنك وكلامك ولطفك. إنسان مثلك جوال وصاحب مهام، أكيد لك عشيقات في كل أنحاء الدنيا. وهذا من حقك ولا تعليق لي عليه...

بدا للمتكلمة الجسورة أن تذهب أبعد فتسأله: أما آن لمطلق وأرملة مرتين أن يجربا زواجا تشي أمارات شتى بإمكان نجاحه. بدا لها ذلك لكنها أمسكت. وعوضه التمسست منه أن يحدثها عن سفرته الأخيرة بنهاراتها ولياليها، فابتسم وأفرغ كأسه وأجاب:

- لا، بعدين أحدثك عن سر بروز البرازيل كقوة صاعدة، وعن صمودها أمام جائحات العالم المالية؛ بعدين أحكي لك عن لولا دا سيلفا الرئيس الأسبق لهذا البلد الشاسع ورائد نهضته اللي أتمنى تقويها الرئيسة الحالية، الست ديلما روسف؛ أما حياتي الغرامية فأنا ودعتها الوداع الأخير من وقت شفتك وقابلتك... من قبلك عرفت نساء ونساء، لا أتذكر حتى أسماء بعضهن. كان الشيب بدأ يغزو مفرقي، ولا واحدة غيرتني به، سواء كانت من سني الخمسيني أو أصغر. واليوم ورأسني يندرنى بالاشتعال شييا، عليّ بطي صفحة من حياتي وفتح أخرى، وهذي الصفحة الجديدة ما أراها إلا معك يا ستي أسماء، وإذا سمحت... يا حبيبتى...

احمرت وجنتا الست ولمعت عيناها ببريق القبول الممزوج بالتحوط. ولمحاولة تخليص جوابها بنعم من لكن، بادر عزيز إلى القول:

- الإمساك عن الشراب والتدخين مشروع مؤجل عندي،
وتنفيذه متعلق بك، وكذلك التقليل من السفريات إلى
الخارج، ما عدا الضروري منها آخذك فيها معي حتى نُنعم
بالحب وتحرسني قلبي... الآن حان وقت سباقنا في الماء،
ومن يطلع الأول يطلب يد الثاني...

- والمايو يا عزيز، المايو!

- مايو حواء يا حبيبتني أسماء. الله وحده يرانا ويشهد على
صدق نوايانا... أغمض أنا عيني، اخلعي أنت لباسك واقفزي
في المسبح، والتحق بك بعد شوية...

وكذلك كان. لما قطع المتباريان المسبح طولاً مرتين،
كان السبق لعزیز الذي بادر بعد التوقف إلى طلب يد منافسته،
أعطته إياها ثم جذبته إلى عمق المسبح لإظهاره على تفوقها
هناك، فصارا كحوتين ذكر وأنثى يتراقصان، يتلامسان، يتعانقان
ويتلاحمان على وقع نغم صامت ينفذ إلى قلوبهما وجوانحهما
عذباً ناعماً. ومن حين لآخر يطفو عزيز برأسه على السطح
للتزود بالهواء ثم يعود إلى ما كان فيه مع أنشائه، حتى إذا هاج
بهما الشوق والهوى سعيا إلى التنفس ملء صدريهما ومتابعة
الانغمار في لجة التعتيق والتقبيل الجامحة... وبعدها هرعا
إلى مخدع ارتديا فيه لباسا خفيفا فإلى غرفة الحب ذات السرير
الوثير والأضواء الخافتة...

في هذي الأثناء، كان زيد قد رجع من المطعم إلى السيارة
حيث تممد على الأريكة الخلفية، تارة يعيد قراءة رسالة يطو

الأخيرة، وطورا يسبح في أمور شتى، متأرجحا بين الغفو والانتباه، حتى أتى عليه وقت رأى فيما يرى النائم رئيسه الست أسماء تستقبله في شقة فاخرة، مرتدية فستانا شفيفا، ووجهها في أبهى صوره وكذلك جسمها؛ تأمره بالتعري فيمثل وبتقبيلها حيثما شاء فيطيع؛ لكن تيار رؤياه سرعان ما انصرم إثر قدوم الكوريلا الذي أخطره بقرب مجيء سيده لكي يستعد للسياسة.

صاحب عزيز محبوبته إلى بهو العمارة السفلي حيث قبلها خلصة ووعد بزيارتها في الغد لجولة سباحية إياية ووضع ترتيبات تخصهما. حين قصدت سيارتها، فتح لها زيد الباب الخلفي، ملاحظا من طرف خفي ابتهاجها وانتشاءها، ثم انطلق عائدا إلى الرباط.

في الطريق ظل بال الست منشغلا بما حدث لها وعاشته، فلم يخالجها أي ندم في ما فعلته، ولا أي ريب في استقامة عزيز وصدقه. وبين حين وآخر تلتفت إلى سائقها وتستفسره هل هو مرتاح في عمله بالوكالة، «بل سعيد وجد محظوظ» يجيب؛ وعن أمه وسكنه الجديد، فيشكرها مجددا عما فعلته من خير في حقهما، ويدعو لها بالصحة والوفرة والنصر والتوفيق... خطر له أن يسألها عن أداء بشر في عمله ويطو في شغلها، كما عن إمكانية توظيف سائق غيره، كيما يتفرغ لشؤون الوكالة وحاجتها إلى المزيد من التحديث والتوسع لكنه، وقد لاحظ في المرأة الارتدادية سهوها عما حولها، أثر أن تكون عفاف واسطة خير في ذلك، حسب ما اعتاده منها.

وعد عزيز وأوفى. ها هو بعيد الزوال مع عزيزته جنب المسبح بلباس العوم حول طاولة تي تايم أعدها محمود واختفى. قدّم لها بدايةً هداياه المقتناة أثناء سفرته الأخيرة: حقيبة جلدية بديعة الشكل واللون، حليّ وقوارير عطور. دنت منه أسماء شاكراً مقبلةً، ثم دعاها إلى سباق الحسم السباحي، فاستجابت مظهرًا علامات الخشية والتهيب. وما إن قفزا في الماء حتى أبانت السباحة عن لياقة بدنية ومهارة عاليتين، بحيث نالت قصب السبق بفارق زمني ممتاز، فما كان من عزيز إلا أن أقر بهزيمته وهنا المتفوقة بسيل من الضمّات والقبلات. وبعد ذلك استحما تحت دوش مشترك، تلتها استراحة استعدادا لتناول العشاء في جلسة حميمة لا تلحقها الأضواء ولا الأنظار.

في قاعة الطعام حول طاولة أعدها محمود وزينها بالورد والشموع ثم انسحب، أصرت أسماء أن تخدم ضيفها الأعز وتختار له ألد الأكلات وأشهاها. سقته نبذا استطابه ومدح مذاقه وتربة مأتاه، واهتبلها فرصة لكي ييوح لها أن فطمه عن الخمر تحت وصايتها ورعايتها قد يتطلب وقتا وتدرجا على

غرار ما اقتضاه الأمر القرآني بالتحريم. وتمنت له المنصته
المبتسمة أن يسبق ذلك الفطم الإمساكُ عن التدخين حتى
يحسّن أداء رئتيه وأنفاسه في العوم، فيثأر منها ذات يوم بالفوز
أو بالتعادل. عبّر لها عن استبعاده لهذا وذاك، ووعدها بإخضاع
علاقته بالتبغ للتقشف في انتظار الاضراب عنه.

عم صمت بين العشيقين، تلذّذاً خلاله بالأقوات المتنوعة
كما بأنغام موسيقى عذبة لطيفة، تنعش الحواس وتستثير
الرغبة في الرقص. توقف عزيز عن الأكل دون الشرب. نظر
ملياً إلى وجه جليسته النَّضِرِ الصُّبُوح وقال:

- تفوقي عليك في جولة السباق الأولى إنما تم بتدبيرك
الذكي، حتى أكون السِّبَاق إلى طلب يدك... صح؟

جذبت أسماء يد عزيزها، لفتها بكفيها وهمست:

- تفوّقي اليوم يجعلني أنا أسماء العامري اللي أطلب يدك
وأخذها... أطفأت كل الهواتف لأقف كما ترى وأصرح لك
أمام الله أنني أخطبك وأريدك زوجي...

وقف المخاطب بدوره وصرح بمثل ما صرحت به، ثم
تعانقا وتضاماً في رقصة سُلُو ناعمة مسكرة، ثم حملها بين
ذراعيه إلى غرفة الإمتاع والسحر الحلال...

* * *

بعيد منتصف نهار الغد، استقبلت عفاف رئيستها بالعناق ورأتها على غير عادتها تصافح كل أعضاء طاقم الوكالة واحدا واحدا بمن فيهم يطو، تسألهم عن أحوالهم ومدى ارتياحهم في عملهم، فلا تتلقى منهم سوى كلمات الرضى والإعتراف؛ ثم وعدتهم بزيادة وشيكة في أجورهم قبل أن تقصد مكتبها مع نائبتها، متبوعة بآيات الشكر والامتنان وتحايا بويا عمر المعتادة.

حين دخلت المرأتان المكتب، أزاحت عفاف الستائر وهتفت:

- شوفي اللي فعلتُ بالعش، السرير طار، المكتبة حركتها إلى الحائط أمامنا. تركت من الأثاث اللي يجعل من هذي التوسعة صالون يكمل صالونك...

حيّت أسماء صنيعها وتهالكت على أريكة تستطيب التكملة. رنّ هاتفها فسمعتها جليستها تجهر بصوت في غاية الصفاء والإبتهاج: وحتى صباحك يا حبيبي فل ياسمين وكل أيامك سعادة وهناء... أنا حلوة وأنت أحلى والناس من حولي حلوين... قبلاتك ومتمنياتك وصلتنى على الهواء. وانا بدوري أقبلك وأقبلك... سمعت قبلاتي... والله، صدّقني، أول مرة أشعر بالحب يغمرني بمثل هذا الدفق وهذا الدفء... أنا عاشقة! ولولاك... ما تقاطعيني... لولاك، وأقولها ألف مرة، ما كنت عرفت هذا الرجل الكامل الأوصاف اللي ملأ عليّ حواسي، كلّ حواسي... مشروعنا؟ مش بالموبايل...

أشوفك في المسا وأحكي لك عنو، وكل كلمة ببوسة... نعم غدا يأتي عزيز لزيارة الوكالة. يعجبك تكوني معنا؟... عندك حق بلاش، ثم عندك حصّة تنيس... وراضية أش اخبارها؟... الله يمتّعها بالسلامة والصحة. إذا سألت عني حييها باسمي وأكدي لها: خلاص حكاية أسماء عرفت هاّبي آند حقيقي مش زيّ في السينما، وأنو أبدأ حكاية أخرى أنا اللي أكتبها... گود باي حبيتي.

عفاف التي لم يزل دهشها ارتمت على المستطيرة فرحا تقبلها، ثم جلست جنبها وانهالت عليها بسيل من التهاني والأدعية، ثم قالت:

- السعادة نورها يشع منك... خلاص أنا فهمت كل شيء..
الوكالة من اليوم ننظفها ونزينها، وغدا نفرش لهذا في أي بي الورد ونستقبلو بالتمر والحليب وبأجمل ما عندنا... خليني أمر يطو وكل واحد أش يلزم يعمل، وأعلن زيارة شخصية بارزة غدا من دون أي إشارة لمشروع زواجك به...

- انتظري شوية... أنت عفاف مكانك هنا وفي صالون داري ومش مطبخها. ما تنسي أنك مديرة بالنيابة... أش رايك أخذ بنت الحاج المختار شغالة عندي؟

- والله فكرة طيبة. البنت أمينة وحاذقة... وفكرة بفكرة.
رايك جد إيجابي في بشر؟

- إيه طبعا، وحتى في يطو...

- زيد طلب مني أقترح عليك توظيف سائق يعرفه ويضمّنه
إسمه رشيد حتى يتفرغ لشغلو في الوكالة...

- وحتى هذي فكرة جيدة. رتبي كل شيء وما تنسي
الزيادة في الأجور اللي وعدت بها... عينك ميزانك... وأنا
دأبا خارجة. عندي موعد...

- خيليني أزغرد... فقط في أذنك، أرجوك...

* * *

في الغد بعد الزوال ها هو الطاقم المكون من عفاف الماسكة
بياقة ورد وزيد وبشر ينتظرون على عتبة العمارة قدوم الست
المديرة وضيفها الكبير، وقد ارتدوا أحسن لباسهم، لا يلغون
ولا يتهامسون، ولو أنهم لاحظوا لفتات بعض الجيران إليهم
وحلول حارس سيارات جديد محل يطو. رنّ موبايل النائبة،
فعلمت من رئيستها أن سيارة السيد قريبة الوصول. عدّل
زيد ربطة عنقه وفعل مثله صديقه. وحين ظهرت مرسيدس
بيضاء فاخرة فتح سائقها البابين الخلفيين، خرجت منه الست
أسماء وأعقبها السيد المنتظر بسمو كينج أزرق أنيق فتوجه
نحوهما الوفد محيين، قدمت عفاف للزائر نفسها وسلمته باقة
ورد وعرفته بالشابين ثم قصد الجميع العمارة فباب الوكالة،
فيما زيد يناجي نفسه وقد لمح الكوريلا يتسلم الباقة ويقف
كالصنم قرب السيارة: كل شيء توضّح والطريق بان...

سبقت النائبة الجمع إلى مدخل الوكالة حيث قدمت للوافد الكبير صحن التمر والحليب. دخل الجميع وراء المقدمين. فرت يطور إلى المطبخ، أدى بوياء عمر التحية المعتادة وكان على وشك سرد سيرته العسكرية لو لم تسكته عفاف بغمزة حادة. حاولت أسماء إخفاء انبهارها بالبهو وقد أزيح مبسطه وزين بالورود وأضواء تخفت أو تشع، وتحول إلى ما يشبه قاعة سينمائية صغيرة. بضعة مقاعد وراء كرسيان بارزان. على الحائط الأمامي شاشة متوسطة الحجم وفي الخلف زاوية ريجي بأدوات وآلات يسهر على تسييرها بشر وزيد. عرضت عفاف على رئيستها والزائر الكبير صحن مرطبات ثم مقبلات، فتناولا منها قليلا، ثم أخذت مبتسمة منشرة شكره على تشريفه وكالة وين وين التي تديرها السيدة أسماء بكفاءة قل نظيرها وأخلاق عالية. زكى السيد عزيز قولها، وكم أفرحها ثناءه عليها كمديرة بالنيابة وكامرأة يسبقها صيتها الطيب ويتأكد بحضورها.

سألت أسماء إن كان وقت عرض روبرتاج عن الوكالة قد حان، أشارت عفاف إلى الشابين، فإذا بهما يخفضان الأضواء ويشرعان في عرض معلومات على الشاشة، بعضها عن ميزانيتها التسيير والاستثمار ومؤشر المعاملات ومستخلصات الأجور والضرائب ومعدل الأرباح السنوي، وغير ذلك مما تضمنته لوحات رقمية ورسوم بيانية، ثم تلتها بالصورة وصوت زيد وبشر تناوبا زيارات افتراضية، على وقع

موسيقى مناسبة، لأهم عروض الوكالة العقارية في أربع مدن كبرى، بدءاً بالشقق والفيلات المتوسطة والكبرى وانتهاءً بالأراضي التي طالها التوسع العمراني أو المرشحة لذلك، وكلها تندرج في عمليات ثلاث: البيع، الكراء والمبادلات على الصعيدين الوطني والخارجي... واختص بشر بإيراد مثال على زيارة فعلية قادها المرشد زيد وتمّ تصويرها ومزجها بالصوت في مونتاج وفوتو-شوب؛ وهي باختصار: الفيلا هذي من الطراز العالي، مبنية بالحجر الصخري المصقول، كأنو حجر الأهرام، يقوّي الأساس والسواري والسقوف، كل حائط يثنيه آخر وبينهما ألواح القُرق أو اللياج. إذن الصيف في الفيلا مبرّد والشتاء دافئ... الحديقة الفسيحة وغروسةا، ما شاء الله على جمالها وهندستها! المسبح يشبه بحيرة أو قطعة من النيل، مع فارق كبير: العوم فيه أنقى وأسلم، والعائم يشعر في مياه المتجددة ليل نهار بانتعاش جسمو وتقوية عضلاتو بحركات لينة ناعمة...

ندت عن السيد عزيز ضحكات خافتة، مالت عليه أسماء هامسة: الزائر مصري... ثم ختم صوت بشر قائلاً: وهذي بوابة أخيرة اسمها: بنك المشاريع موزعة على ثلاث خانات: خانة التداير الانعاشية الفاعلة، خانة الإجراءات الوقاية ضد مخاطر الانكماش والركود، وخانة الأفكار والمقترحات الجيدة القائمة على دراسات سوق العرض والطلب...

لما انتهى العرض وأشعلت الأضواء، صفق السيد عزيز بحرارة، قام يهنئ الست المديرية ونائبتها، وتوجه إلى الشابين فصافحهما مشجعاً، وسألهما هل للوكالة ويب ساييت فأجاب بشر أي نعم وعقب زيد: هذا بيست-أوف، سيدي المحترم، مأخوذ من موقعنا الإلكتروني... فبارك لهما في عملها تحت رعاية السيدة المديرية المقتدرة وبعون نائبتها المحنكة؛ ثم بطلب من عفاف ألقى الزائر الكبير نظرة على قاعة الانتظار والمكاتب والتجهيزات فأشار أن الوكالة يلزمها مقر أوسع وأحدث على أن تظل هذي ملحقة لها؛ وأبدت عفاف إيماءات تزكية وتأيد.

ختم الرجل المميز جولته بجلسة مع محبوبته في مكتبها على انفراد، يتناجيان بكلمات خافتة طيبات، ويتبادلان نظرات شوق وولع. أخذ يدها بين يديه وقال: متى تعقدي علي ونتزوج؟ ما بين نهاية هذي السنة وبداية القادمة؟ صح!... وقفاً معاً وتعانقاً وهي ترمق المدخل السري لعش كان ذات يوم عشها العشقي، ثم طبعته على خده وشفتيه قبلات حارة تغالب بها ما رمقته... ذكّرت به بموعدهما مع نجلاء وسعد، فقصدا باب الخروج. في البهو سلم على الشابين ثم على بوياء عمر وسأله: بلغت سن التقاعد يا حاج؟ أجاب: سيدي تقاعدت كمقاوم، لكن مع هذي السيدة الكريمة، ما زال فيّ ما يعمل... وما يحجج أنا وزوجتي المسكينة... ربّت على كتفه وقال: حجك وحجها، يكون خير... ثم طلب بإحضار الشغالة

المختبئة في المطبخ، استفسرها عن سبب هروبها منه، أجابت مرتبكة وعيناها مغمضتان: هي الحشمة يا سيدي، سامحني... لامس رأسها وغادر الوكالة والعمارة صحبة أسماء، فيما الثلاثي يتبعونهما بإشارات التوديع والاحترام إلى أن انطلقت السيارة بهما.

في الطريق إلى مواعدها، خطر لأسماء أن تحدث حبيبها عن موظفي الوكالة من المغادرين إلى القارين والملتحقين، مركزة على عفاف وزيد، لكنها أجلت ذلك إلى مستقبل الأيام، الذي سيتسع لمواضيع أخرى شتى تنبئه بها كيما تبدو شفافة صافية، خلوة من ظلال الأسرار، إلا ما منها يعصى على البوح والافشاء، لعلاقتها السيئة مع ابنها المختفي وكعشها العشقي وما كان لها فيه من جلسات حميمية مع الحاج النصري، ولي نعمتها المتوفى...



زوال منتصف اليوم التالي، دخلت عفاف صحبة بنت الحاج المختار إلى إقامة رئيسها بعد أن تيقنت من غياب السيد عزيز. قدمت لها خديجة وأبلغتها امتنان أيها ودعاه لها بالخير الوافر ودوام الصحة والتوفيق. سُرّت أسماء بمجيء الخادمة الجديدة ورحبت بها، وتوجهت الأنسة فرحة شاكرة إلى حيث طُلب منها أن تبدأ عملها.

لما بقيت المرأتان على انفراد، انقضت أسماء على عفاف بالتقيل والعناق وهي تجهر في وجهها:

- أنتِ جنية، عفريتة! اللي فعلته البارح لاستقبال عزيز
والله ما توقعتُهُ ولا حتى تخيلتُهُ.

-أنتِ معذورة يا حبيبتي... بالك كَلُّه مشغول برجل هایل
ومتواضع، منعم وأكيد كريم. وأنا متيقنة تكون لك معه حياة
سعيدة، أنتِ تسعدي به وهو يسعد بك والحبايب يسعدو
بفضلكم... أدعيتي في صلواتي هي لك ولمحبوبك، والله
شاهد على ما أقول...

أتى محمود محيا بآنية شاي وقهوة وصحن أكلات خفيفة
تساعده خديجة. استأنفت الست كلامها وهي تحتسي شايتها:

- صح! ما أستطيع التركيز إلا على عزيز، سوا حضر أو
غاب... شؤون الوكالة، ما عدا حالات خاصة، دبريها يا
عفاف. عندك طابعها، وقّعي بتفويض منّي قبل زواجي وربما
حتى بعدو...

- سمعا وطاعة يا رئيستي... إيه نسيت، السائق اللي
اقتروحوزيد هو في الغاراج يغسل السيارتين. فحصت ملفو
وجدته جيد. وفيه طلبات شغل أنظر في بعضها، لا دخل لزيد
فيها وربما أعرضها عليك.

- تصرفي واعطي الأسبقية للأكفاء والمحتاجين... إيه
أنا في هذا الأسبوع تصلني سيارة هدية من عزيز، وأنتِ بعد
شهر سلّمي سيارتي القديمة لزيد وشوفي لك أخرى جديدة
على حسابي.

- لا يا ستي، ملكتني دارك والآن تهديني سيارة! هذا كثير عليّ...

- هذا أمر رئاسي لا يردّ... اشربي وكلي ونفّذي...

- يا ما أنت كريمة يا حبيتي! سعيدة ورغبتك إسعادي...
بعدين أبكي من الفرح. الآن أرجع إلى الوكالة مع السائق.
اسمُه عبد الرحيم، رهن إشارتك في أيّ وقت. هذي بطاقته.
تركتك بخير...

قامت عفاف وانحنت على الست تقبلها ثم انصرفت.
بعدها ناداها عزيز وظل معها على الخط زهاء نصف ساعة.
شكرها مجدداً على حفل استقباله في وكالتها، وتبادل معها
كلمات حبّ وشوق وأخرى في نصحتها ببيع أسهمها في
البورصة سمّاها؛ ثم أنبأها أنه ذاهب إلى طنجة في مهمة.
عرض عليها أن ترافقه، فاعتذرت قائلة إنها تفضل السفر معه
إلى مدن في دنيا لا تعرفها؛ والأصح أنها إنما تستحسن التقليل
من لقاءاتهما وترويض نفسها على غيابه وشغفها الشديد به إلى
أن يحل يوم عقد قرانهما وفتح فصل جديد في حياتها يكون
لها في عشرته طالع يمن وعيدا.

في ارتقاب قدوم نجلاء إليها سارت في أرجاء الفيلا
تتفقدّها، وعطفت على المطبخ فأوصت محمود بخديجة
خيراً في تعليمها وإرشادها، ونعتت لها ملحقة في الحديقة
تسكن فيها والعريشة تعد على مائدتها مشروبات ومقبلات...

هنا في العريشة حيث تتردد أصدااء سمفونيات مختارة،
جالست أسماء صديقتها نجلاء، تسلمت منها شاكرة حزمة
كتب أخرى؛ تحدثتا في أمور كثيرة ضمنها اعتذار الست
عن قبول عرض عزيز السفر معه إلى طنجة، فأيدتها الجليسة
وباركت لها في ذكائها وفطنتها، وعبرت عن أملها أن تكون
الأولى بعد الزواج في معرفة أنها حبلى. سكنت أسماء
لحظة محتسية شايبها ومستلذة بأنغام الموسيقى، ثم فجأة
سألتها مفزوعة:

- والرسالة اللي أخفيت عندك؟ رسالة راضية...

- أولا أهنتك على قبول حكايتك من طرف الوكيل
الأمريكي. هذا ما قرأته في إيمل صديقتنا الأخير. أما حكايتي
فوجدتها عادية، أي غير صالحة للسينما، وأنا غير مستاءة ما دام
أنتِ نجحت...

لم تعر المضيفة أي اهتمام بالأمر، فأردفت الجليسة قائلة:

- أما بخصوص رسالة راضية اللي تقلقك، ففيها تعترف
لك بأشياء تحت عنوان: ساعة الحقيقة دقت. هي كانت
عشيقة زوجك الأول اللي حكا لها وهو سكران تجده، وأنت
معه في السيارة، في موت الطفل خالد، هذي الأولى؛ الثانية
أنها قرأت في كف أبو خالد وبشرته بولد من زوجته بعدما
أخضعتها لإيكوغرافيا عند طبيبها الخاص ظلت طي الكتمان؛
الثالثة أنها دعت عشيق أختك الميتة إلى حفلها اللي حضرناه

من بعد حصولها على اسمو وعنوانو من أحد قراء مقبرة الشهداء، وتقسم أنها ما كانت تعرف أي شيء عنو. غايتها هي أنك تفكي لغزو، فإما تتخلصي منو أو ترتبطي معه في فصل جديد من حياتك. وفي الختام تستأذنك في إدراج نهايتو المأساوية في حكايتك مع تقيدها بشرط السرية وتغيير أسماء الشخصيات...

تنفست أسماء الصعداء وقالت:

- راضية إذن كانت عرافة مزورة، تقرأ في الكف ما تعلمو من قبل... هذي امراه ما عرفت مثلتها أبدا!

- فات اخبرتك كيف برهنت لي أنو كانت عشيقة زوجي الأول، وأملت عليه طريقة التعرف عليّ بالطريقة اللي سبق حكينا فيها... هي هكذا، الحياة عندها لعب ولهو... في حفلها الأخير غود باي بارتني، ألقت خطابا بالإنجليزية أمام المدعوين؛ سألتها من بعد تلخص لي مضمونو، أجابت: مجرد كوكتيل من التفاهات والأكاذيب... وعلى العموم كانت تقول لي: أنا بهلوانية، أمشي على حبال الحياة وألعب. ويوم أفقد توازني أسقط ميتة أو مهشمة... قلنا إيه في استذنانها منك؟

- بلغيتها الطلب مقبول والشرط على ذمتها... يا الله! راضية امراه تجنّ وتدوّخ...

ثم تناولت الرسالة وأحرقتها. وبدا لها الوقت مناسباً لتسر لصديقتها بما يتابها أحيانا من قلق وهواجس، قالت:

- تصوري ابني حسان يبرز لي في يوم ويعكّر عليّ حياتي
أو يقتلني بسلاحو...

قاطعتها نجلاء بصوت حاد:

- لا يا ستي، البلد فيها قانون وقوى أمن، وأكيد اسمو عند
حرس الحدود. حسان مستبعد جدا يعود. وإذا عاد أنا وسعد
اللي يدو طويلة نخلّصك منو. لكن بعد شهور أو سنة احكي
عنو لعزیز...

- وعزیز يا حبييتي، أكيد عندو أسرار يخفيها عني... مثلاً
امراً أو أكثر ما زال على علاقة بها... صعب عليّ أصدق ما
ليه عشيقات في أسفارو...

- يجوز هذا، لكن هو عازم على الزواج بك أنت، ومعه
يكون طوى صفحة علاقاتو الماضية، ويفتح أخرى جديدة
معك وحدك، لا شريكة لك...

- كلامك والله يريحني ويقويني... معرفتي بعزیز غيرت
فيّ أشياء كثيرة. صورتو وكلامو وهو كلويث في روعي
وجسمي دبذبات ناعمة ومنعشة. الحياة عندي صارت حلوة
بهية. حتى السما بنجومها وكواكبها صرت أنظر فيها وأنا
متعجبة ومنهرة... بالأمس تابعت من هنا غروب الشمس،
كما لو كنت أشاهدو لأول مرة، ناجيت نفسي: يا الله، الشمس
تغرب! وحدث لي هذا مع كلّ ما تحفل به الطبيعة: الأشجار
والأزهار والطيور... والأنوار اللي أصبحت أشمها... حتى
علاقتي مع روك ورول تحسنت، والتفاهم بيننا قايم. قبل ما

تاتي تمغط روك على عتبة الصالون وشافني بعينه كأنو يطلب
مني الدخول. أوميت لو بعيني فقط فأقبل وتمدد بين قدمي،
أما القطط ما تسألني... شفت اللي فعل الحبّ بي!

- خلاص يا حبييتي، سميت حالتك وحلاوتها! الآن يا
الله بنا للصالون نكمل كلامنا ونقتات ونسمع موسيقى... إيه،
قبل ما أنسى اقرئي من كتبي إليك رواية فتنة الرؤوس والنسوة
لكاتب لا أذكر الآن اسمه...

في الوكالة وحتى في الحي، لم يعد سرا أن بين زيد ويطو أشياء، إذ أضحى، كلما أنهى عمله وقضى بعض أغراضه في المدينة، ينتظرها في درب محاذا لزنقة بيت لحم ثم يأخذها وراءه على دراجته النارية، فيجول بها جولات قبل أن يوصلها إلى بيت والديها وإخوتها في دوار التقدم. وفي صباحات أيام العمل يمر لنقلها من مكان معلوم في حيها إلى آخر قريب من مقر عملها. وأول من علم بذلك هو بشر الذي شجعه عليه وأنبأه أنه هو أيضا مرشح للزواج بعد أن تحسن وضعه المادي، مجددا شكره وامتنانه لصديقه على حسن وساطته ودوام دعمه.

توالت أيام بين زيد ويطو على ذلك النحو حتى إذا عزم على تحسين دينه، فاتح أمه في الأمر بحضور العجوز الفرنسية السيدة جان، فعجب لكونها وافقته توا وباركت له، وتبدد عجبه لما أن علم منها أنها في غيبته استقبلت البنت مرارا في البيت القديم، وقلبتا بصفتهما كانت من قبل قابلة، فوجدتها عذراء ما مسها رجل، وجربتها في الطبخ وشؤون المنزل، فألفتها ماهرة حاذقة وشغالة؛ ثم ذكرته أنها حامت

عليه ضد أولاد حرام كانوا لولاها سيقتلونه أو يعطبونه، كما أنها هي من استقدمت البوليس ووقفت إلى جنبه في سيارة الإسعاف والمستشفى. ولم تكن الأم تعرف أن يطو هي التي ساهمت من حيث لا تدري في ترفيته من حارس سيارات إلى مرشد عقاري.

سألت العجوز عما تسمعه ولا تفهمه، أجابها زيد بلغتها مبتسما مبشورا أن الأمر يتعلق بفكرة زواجه. هنأته وألحت على أن يكون الزفاف في هذا المنزل وأن تعيش العروسة فيه مع زوجها حتى يقوى النشاط وتجد من يؤنسها أكثر. قام زيد شاكرًا لها عرضها وفضلها، ثم قبل رأس أمه وانصرف هامسا: كل شيء توضح والطريق بان...

بكل هذا حدث زيد من بات يسميها أختي عفاف، وشاورها في الأمر. اعترفت له أن علاقته بيطو لا تخفى عليها، فأيدت قصده وباركت له فيه موصية إياه أن لا يحرم البنت من عملها هنا كيما تعينه على تكاليف الحياة؛ كما أنها بشرته بتمليكه قريبا السيارة العادية هدية من الست المديرية. عبّر عن امتنانه لها وعرفانه ثم أطرق مفكرا مترددا. سأله النائبة عما به فقال:

- أولا أنا أفضل تكون حياتي الزوجية في بيتي الصفيحي، ولو مؤقتا؛ ثم أحب ائتمنك على سر ما قتلوا أحد غيرك، وما تضحكي عليّ أرجوك... تذكري يوم جيت للوكالة بوجه مجروح وأنف يعرف... اللي فعل في هذي الفعلة هي يطو

في سطح عمارة قريبة من هنا. تحدثني وقالت: نتعارك واللي غلب يكون وحدو حارس سيارات الزنقة. غلبتني بضربات قاضية، وبعدها عملت في الوكالة وتحسنت حالتي صارت تبعث لي رسائل غرام وتغني كلما صادفتها: بلا عداوة ما تكون محبة يا حبيبي... وهذي هي قصتي معها ولو أني مع الوقت صرت أنساها، سيما وهي اللي كانت اعتقتني من اعتداء حسان واصحابو عليّ...

انتاب عفاف ضحك سرعان ما حبسته:

- بنت عندها كل هذي الصحة والقوة ما تتردد تعقد عليها وتغلبها بعطفك وحنانك... زواجك أساعدك فيه، والست المديرية أكيد تنفق عليه وتهنيك بعدين...

- آخر شي... أنا وبشر راغبين نشوف الست المديرية، ونكلمها وانت حاضرة في أعمال خيرية نساعد أصحابها، وناخذ رايتها ورايك حولها حتى إن شاء الله نتقدم ونتوفق... وهذي المرة أنظر إليها باحترام وجها لوجه.

- هذا أحسن لك! طلبك مبلغ وما يكون غير الخير... ارجع الآن لعملك.

- شي أخير... أنا وبشر يشرفنا نهدي للسيدة المديرية هدية متواضعة بمناسبة زواجها السعيد...

- وبشر ما له كثير ساكت وبالع لسانه؟

- طبعو هكذا من يوم عرفته. هو والكومبيوتر واحد

بالع الآخر!

- لكنه كفاء في ميدانه... أما الهدية حتى يجيء وقتها.
- وأنا عندي لك هدية، أختى عفاف... قط من النوع اللي يعجبك. كنت من قبل أتاخر في شراء وبيع الحيوانات الأليفة، وما زلت شوية...
- ضحكت المنصتة ملء فيها، قالت:
- لا أرجوك، في داري قطط الحي تكفيني.
- لكن هذا قط فازسي، وهو في القفص تحت طاولتي، وإذا فضلت عليه كليب كانيش لك أو لست المديرة...
- سر الآن، وبعدين أشوفه...

في الطريق السيار بين الرباط والدار البيضاء، كانت الست أسماء تتوجه إلى إقامة عزيزها في سيارة فخمة أهداها إليها، يقودها السائق الجديد. وَبَآتُ الفرح بادية على محياها الصبوح، وقلبها يخفق شوقاً إلى لقاء حبيبها وقرة عينها... وقتها كان زيد يسوق السكوتر وحبيته يطّو خلفه تعانقه واضعة نصف وجهها على ظهره مهمة: أَوَّالُ تَمْ أَيُونُو / آيس داس تَنْيَخُ أماري إِنَّه رِيخُ^(١)... فجأة، أثناء توقف أمام الضوء الأحمر توجهت شرطية إلى السائق طالبة أوراق سائق الدراجة وبطاقة تعريفه، فحصتها وردتها إليه، ثم سألته عن الراكبة خلفه بخوذتها القانونية إن كانت ما زالت أخته من الرضاعة. تذكر زيد أن الشرطية هي نفسها التي أوقفته ذات يوم ويطّولا خوذة لها، أجابها متأدباً: لا أمولاتي، هذي أخرى وعاقد عليها بالصدّاق، تحبّي تشوفي عقد الزواج؟ ردت عليه الشرطية مبتسمة: لا بلاش... مبارك مسعود واللّه يكمل بخير... الله يكمل بخير عليك وعلى كل المخطوبين... والعقبى لي... وردّدت دعائها وهي تؤدي لهما التحية البوليسية...

(١) في لغتك يا أماء أبث لوعتي المحرقة.

للكتّاب بالعربية

□ الإبداعات:

* كناش إيش تقول (شعر كاليغرافي)، دار النشر المغربية،
الدار البيضاء ١٩٧٧.

* ثورة الشتاء والصيف (شعر كاليغرافي)، منشورات البديل،
الرباط ١٩٨٣.

* كتاب الجرح والحكمة، بيروت، دار الطليعة، بيروت (ط. ٢)
١٩٨٨.

* مجنون الحكم (جائزة الناقد للرواية)، دار الشروق، القاهرة،
٢٠١٢ (طبعة جديدة).

* محن الفتى زين شامة، بيروت، دار الآداب، بيروت ١٩٩٣.

* سماسرة السراب، المركز الثقافي العربي، بيروت/
الدار البيضاء ١٩٩٥.

* أبيات سكتتها... وأخرى (شعر)، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧.

* العلامة، دار الآداب، بيروت ١٩٧٧ (جائزة الأطلس الكبير،
٢٠٠٠ وجائزة نجيب محفوظ ٢٠٠٢).

* فتنة الرؤوس والنسوة، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٠.

* زهرة الجاهلية، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٣.

* أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى، دار الآداب، بيروت
٢٠٠٤.

* هذا الأندلسي! دار الآداب بيروت ٢٠٠٧.

* معذبتي، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩. (ط ٢).

* جماع الشعر، افتراعات، دار رياض الريس، بيروت ٢٠١٠.

* سيناريات: أفلام تلفزيونية للقناة الثانية المغربية : أمواج
البر (٢٠٠٣)/ علال القلدة (٢٠٠٤) / علاش لا! (٢٠٠٥).

□ الدراسات:

* في نقد الحاجة إلى ماركس، بيروت، دار التنوير ١٩٨٣.

* معهم حيث هم (حوارات فكرية)، دار الفارابي، (ط. ٢)،
بيروت ١٩٨٧.

* التشكلات الإيديولوجية في الإسلام - الاجتهادات والتاريخ
- بيروت، دار المنتخب العربي، (ط. ٢)، بيروت ١٩٩٠.

* في الغمة المغربية، دار شراع، طنجة ١٩٩٧.

* الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨؛
لمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧ (ط. ٢).

* في معرفة الآخر، دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٣.

* نقد ثقافة الحجر وبدواة الفكر، المركز الثقافي العربي، بيروت
٢٠٠٤.

* **العرب والإسلام في مرايا الاستشراق**، دار الشروق
القاهرة، ٢٠١١.

* **ابن رشد وشوق المعرفة**، منشورات مجلة «العربية» جدة،
٢٠١٣.

* **في الإسلام الثقافي** (تحت الطبع).

□ بالفرنسية

- * **De la formation idéologique en Islam**,
Anthropos, Paris, 1983 (réédition, Rabat, 2006).
- * **Ibn Khaldûn, un philosophe de l'histoire**, An-
thropos Paris 1990, (réédition Rabat 2006).
- * **Au pays de nos crises, Essai sur le mal marocain**,
Casablanca 1977.
- * **Le calife de l'épouvante, Le Serpent à Plumes**,
Paris 1999 ; réédition Segquier-La Croisée des
Chemins, Paris, Casablanca, 2010.
- * **Etre en vie! et autres fragments**, 2ème éd. Non
lieu/Eddif, Paris-Casablanca, 2010.
- * **Le Livre des Elans**, Marsam, Rabat, 2012.
- * **Le roman d'Abdel** (sous presse).

«رَنَّ هاتفُ أسماءَ فسمعتُها جليستَها عفافٌ تجهُرُ بصوتٍ في غاية الصفاء والابتهاج: وحتى صباحاً يا حبيبتي نجلاء فل ياسمين، وكل أيامك سعادة وهناء... أنا حلوة وأنت أحلى والناس من حولي حلوين... قبلاتك ومتمنياتك وصلتني على الهواء. وأنا بدوري أقبلك وأقبلك... سمعتِ قبلاتي... والله، صدَّقيني، أول مرة أشعر بالحب يغمرني بمثل هذا الدفق وهذا الدفء. أنا عاشقة، مفتونة! ولولاك... ما تقاطعيني... لولاك، وأقولها ألف مرة: ما كنت عرفت هذا الرجل الكامل الأوصاف، الي ملأ عليَّ حواسي، كلَّ حواسي... مشروعنا؟ مش بالموبايل... أشوفك في المسا وأحكي لك عنو، وكل كلمة ببوسة... نعم، غدا يأتي عزيزي لزيارة الوكالة. يعجبك تكوني معنا؟ عندك حق بلاش، ثم عندك حصة تنس... وراضية إيش أخبارها؟... دائماً ما راضياش؟ الله يمتعها بالسلامة والصحة.»

بنسالم حمّيش؛ مفكر وأديب مغربي. وزير الثقافة سابقاً. يكتب بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. ترجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. اختار اتحاد كتاب مصر روايته «مجنون الحكم» ضمن أحسن الروايات المائة للقرن العشرين. من الجوائز والتنويهات: جائزة الناقد للرواية (١٩٩٠)، جائزة الأطلس الكبير (٢٠٠٠)، جائزة نجيب محفوظ من

